عدد خاص

عن

محافظة إدلب

خريف ٢٠٠٧



ثورة الشمال

هل صحيح أن إدلب بلدٌ بلا تاريخ؟

الأزياء الشعبية النسائية في شمال سورية

آثار عربية إسلامية في منطقة ريحا

حارِم.. دراسة تاريخية وأثرية



فصلية تُعنى بشؤون التراث والفكر



تصدرها في حلب جمعية العاديات السورية

بموجب الترخيص رقم ٧٨٧٣/٢٠٠٣

المدير المسؤول رئيس التحرير

محمد قجة

مدير التحرير

محمد جمال طحان

المدير التنفيذي

تميم قاسمو

شارك في التحرير

الكسندر كشيشيان - بغداد عبد المنعم

حميدو حمادة - عبد الله حجار - فؤاد هلال

الاشتراك السنوي

سورية: ٣٠٠ ل. س "بدون أجور بريد" - ٤٠٠ ل. س مع أجور البريد

الدوائر الرسمية والمؤسسات والهيئات العامة: ١٠٠٠ ل.س

خارج سورية: ٥٠ دولاراً أمريكياً

للمؤسسات ١٥٠ دولارًا أمريكيًا

ثمن النسخة في سورية: ٧٥ ل.س

العدد المزدوج: ١٥٠ ل.س

مجلة العاديات:

- ص. ب ٦٤٧٤
- هاتف وفاكس: ٢٢٦٧٦٧٤ _ ٢٢٨٥٧٣٠
- الموقع على الإنترنت: www.adyatsyria.com
- البريد الإلكتروني: Email: adyat@scs-net.org

الهيئة الاستشارية

سورية: أحمد ارحيم هبو ـ سعد الدين كليب ـ سلطان محيسن ـ عمر الدقاق ـ غريغوار مرشو - محمد محفل - محمود أسد.

لبنان: جورج كتورة ـ سعاد الحكيم ـ مسعود ضاهر.

الأردن : محمد الأرناؤوط.

السعودية: عبد الله العثيمين.

الكويت: فايز الداية

مصر: جمال الغيطاني ـ يوسف زيدان.

تونس: الطاهر الهمامي.

المغرب: امحمد مالكي.

مكاتب الفروع

اللاذقية: صفوان شريتح	هـ:	٤٦٢٤٣١
حمص: شعيب شعبان	هـ:	٥١٤٩٧٠
حماه: محمد مسعف الشيخ خالد	هـ:	٠٩٣٤٦١١٠٠
جبلة: جهاد جديد	هـ:	٨٣٣٠٧٤
السويداء: محمد طربية	هـ:	٢٢١٠٣٣
سلمية: رومل قطريب	هـ:	٨٢٥٥٥٢
الميادين: علي امرير	هـ:	٧٠٠٠٢١
طرطوس: علي سوريني	هـ:	٢٢٩١١٩
الرقة: محمد العزو	هـ:	٢٣٢٥٠٦
درعا: يونس شلبي	هـ:	٢٣٧٩١٧
إدلب: نجيب بركات	هـ:	٢٢٠٣٠١
مصياف: حسين حج ابراهيم	هـ:	٧١٧٥٥٤
الحسكة: أحمد اد[illegible]س	هـ:	٣١٢٩٣٣
مكتب دمشق: سهيل [illegible]ذي	هـ:	٣١[illegible]٣٠٠

شروط النشر في المجلة

يسرّ أسرة تحرير مجلة العاديات أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الكتاب والمثقفين والباحثين في التراث والفكر.

وترى أسرة التحرير أن تكون المواد المرسلة وفق الشروط الآتية:

- أن تراعي المادة المرسلة قواعد البحث العلمي من حيث الموضوعية والمنهجية وذكر المصادر والمراجع.
- تراجع المواد المرسلة من قبل أسرة التحرير، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حال عدم نشرها.
- تفتح المجلة أبوابها للحوار حول الموضوعات المنشورة.
- ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية.
- ألا تتجاوز المادة المقدمة للنشر عشرين صفحة، و أن تكون مرفقة بالصور والمخططات الموضحة للموضوع.
- الآراء الواردة في المجلة تمثل وجهة نظر أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.
- يحصل المساهم في المجلة على نسختين مجانيتين من العدد الذي ساهم فيه.
- توجه المراسلات باسم مدير التحرير.

ترسل المواد إلى المجلة عن طريق بريدها الإلكتروني أو على قرص مرن مرفق بنسخة مطبوعة على الورق.

العنوان البريدي: ص. ب ٦٤٧٤ حلب، سورية

أو تسلم باليد في جمعية العاديات، شارع اسكندرون، جانب صالة معاوية

ننتظر مساهمتكم في تحرير هذه المجلة سواء بالكتابة فيها أو تقديم أي اقتراح يفيد في تحسين أدائها، وجعلها لائقة بجمعيتنا العريقة.

التحرير

"إدلب والفصول"

في إدلب يحيا الإنسان الفصول كلها، وإذا كان الربيع للبادية والصيف للشاطئ فإن لإدلب العام بأكمله.

ما أن تهطل تباشر أمطار الشتاء حتى يطل "الحَّويش" برأسه خفراً من باطن الأرض، وتجد الناس زمراً وأفراداً منكبين يجمعون أول ثمار الأرض أعشاباً في نسغها الخير كلّه. ثم تستمر الأرض بالعطاء شهراً بعد شهر حتى تختتم سمفونيتها بالزيتون.

ولقد عاش الإنسان في هذه المنطقة الخصيبة منذ فجر التاريخ وسّطر عليها أسمى إنجازاته، وشيئاً فشيئاً تتكشف الأرض هنا، فتظهر إيبلا المملكة المفقودة، وهناك على أطراف سهل الروج نجد بدايات سكن الإنسان، وعلى هضاب الكتلة الكلسية مئات القرى التي ما زالت حجارتها المهجورة تروي عبقرية الناس الذين عاشوا فيها وبنوا دوراً مترفة وبيعاً ومعاصر زيتون وعنب.

في ريف إدلب ينتزع الإنسان رزقه من سويداء الصخر، فيزرع الزيتون في كل حفرة بين صخرتين ويفلح الأرض مهما صغرت بقعتها ليبذر فيها القمح السوادي، في حين تزهو الوديان والسهول بالشجر المثمر والماء المتدفق.

ومن ريف إدلب انطلقت أول الثورات السورية ضد المحتل الفرنسي. وكانت فيه آخر معارك الثورة قبيل الجلاء.

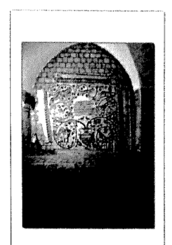
وهذا العدد الخاص عن إدلب الخضراء، هو العدد الثالث الذي تحتفي فيه مجلة العاديات بجزء غالٍ من الوطن. بعد أن أصدرت فيما سبق عددين فيهما ملفان أحدهما عن أوغاريت والآخر عن السويداء.

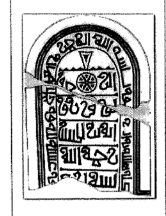
ولقد فاقت مواد العدد الحجم المعتاد للمجلة في فيضٍ من الدراسات والأبحاث دلّ على غنى إدلب بالمواقع الأثرية وغيرة الباحثين وعنايتهم بتراثهم، مما دعا التحرير إلى تأجيل بعض المقالات إلى أعدادٍ قادمة، أي أن إدلب التاريخ والآثار ستبقى مادة ثابتة في أعدادها القادمة.

وسوف تستمر المجلة في تركيز الضوء على أجزاء الوطن جزءاً بعد آخر، ولن يمر وقت طويل حتى يظهر عدد خاص عن حماه، مدينة أبي الفداء.

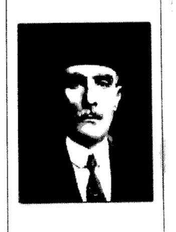
المدير التنفيذي

محتويات العدد







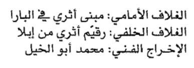







خـــريـــف ٢٠٠٧

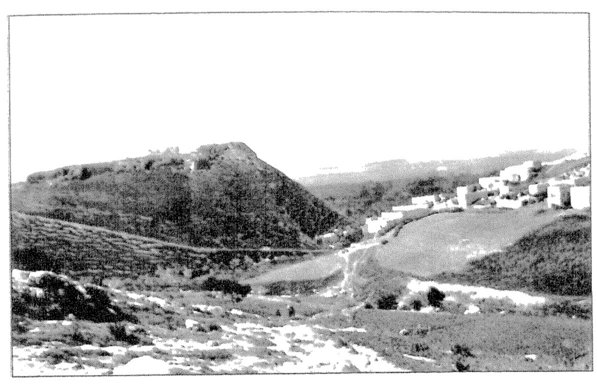




الغلاف الأمامي: مبنى أثري في البارا
الغلاف الخلفي: رقيّم أثري من إيبلا
الإخـراج الفنـي: محمد أبو الخيل

سلقين وحارم منذ مئة عام

زارت الرحّالة الإنكليزية "جرترود بل" سوريا، ووصلت إلى حارم وسلقين في نيسان ١٩٠٥م، وهذه هي الصور التي التقطتها في ذلك العهد.





يمكن الاطّلاع على صور رحلات "جرترود بل" ومذكراتها على الموقع: http://www.gerty.ncl.ac.uk

إدلب اليوم

محمد صفوة بيطار*

١ـ الموقع الجغرافي والمساحة والسكان:

تقع محافظة إدلب في الجزء الشمالي الغربي من القطر العربي السوري وتحتل رقعة من الأرض مساحتها حوالي /٦١٠٠/ كم٢ أو /٦٠٩٧١٠/ هـ. آ كما يبلغ طول حدودها مع الجوار حوالي /٤٧٥/ كم تتوزع كما يلي:

- ١٢٩ كم من الشمال مع لواء اسكندرون
- ١٥٩ كم من الشرق مع محافظة حلب
- ١٥٨ كم من الجنوب مع محافظة حماه
- ٢٩ كم من الغرب مع محافظة اللاذقية

يعطيها هذا الموقع أهمية كبيرة كونها صلة الوصل بين المنطقتين الساحلية والوسطى من جهة والمنطقتين الشمالية والشرقية من جهة أخرى إضافة إلى أنها المعبر الرئيس والهام للقوافل القادمة من أوربا عبر تركيا من معبر باب الهوى الحدودي.

أما سكان المحافظة فعددهم مليون وستمئة وثمانية وثمانين ألفاً ببداية عام (٢٠٠٥) وفق سجلات الأحوال المدنية وبذلك فإنها تحتل المرتبة الخامسة بين محافظات القطر من حيث عدد السكان المسجلين.

٢ـ التقسيمات الإدارية:

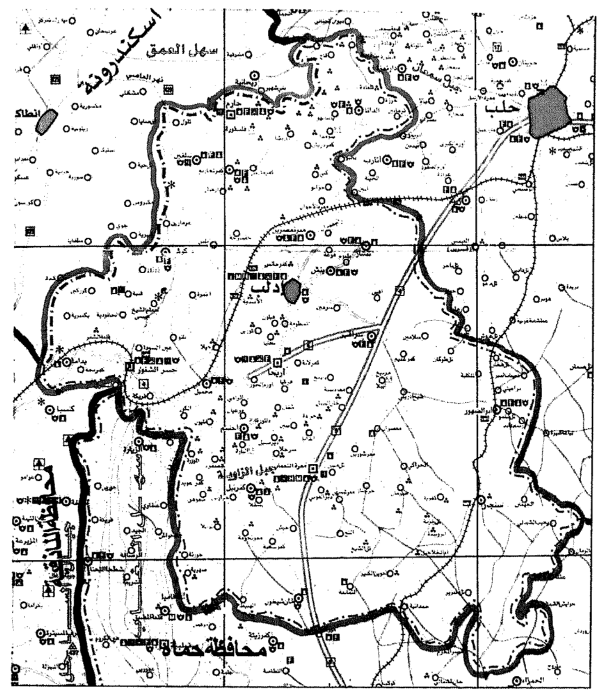
تقسم المحافظة إدارياً إلى /٥/ مناطق هي: (ادلب - أريحا - جسر الشغور - حارم - معرة النعمان) وتضم /٢٠/ ناحية

يبلغ عدد المدن /١٣/ مدينة والبلدان /٢٢/ بلدة وهناك /٣٤/ قرية ذات شخصية اعتبارية و/٦٢/ بلدية أما القرى فإن عددها /٣٤٢/ قرية عدا البلديات والقرى ذات الشخصية الاعتبارية والمزارع /٤٩٧/ مزرعة.

ويتوزع سكان المحافظة على مناطقها الخمسة كما يلي:

المنطقة	السكان المسجلين ببداية عام ٢٠٠٥
ادلب	٤٨٧٦٩٢
آريحا	٢٤٦٨٠٩
جسر الشغور	٢١٣٩٧٠
حارم	٢٨٦٠٩٩
معرة النعمان	٤٥٣٠٨٨
المجموع	١٦٨٧٦٥٨

* مدير التخطيط في محافظة إدلب.

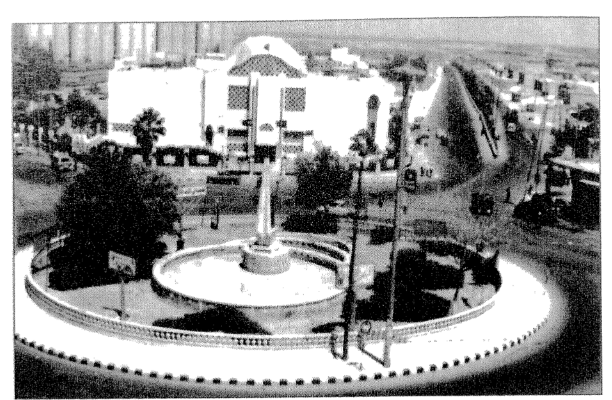


المصور السياحي لمحافظة إدلب

ومـن خـلال توزيـع السـكان حسـب التقسيمات الإدارية فإننـا نجـد أن سـكان المدن يشكلون ٣٤٪ من سكان المحافظة. كما أن سكان الوحدات الإدارية (مدن - بلدان - قرى ذات شخصية اعتبارية - بلديات) يشكلون ٧٥٪ من إجمالي عدد السكان

٣ـ جغرافية إدلب ومناخها:

تعـود معظـم صخـور المحافظـة إلى الحقب الجيولوجي الثالث وهي بذلك كلسية حوارية صالحة للبناء وقد استخدمت في ذلك من قبل السكان عبر التاريخ، واشهر الجبال الكلسية في المحافظة هي:



(حلقة ـ باريشا ـ الأعلى ـ الدويلة ـ الوسطاني ـ الزاوية) بحيث تتجاور مع السهول اللطيفة التموج واشهر السهول في المحافظة (سهول ادلب الشمالية والجنوبية وسهل الروج). أما مناخها فهو حار صيفاً تتراوح حرارته مابين (٢٩ ، ٣٧) درجة مئوية وشتاؤها دافئ تتراوح حرارته ما بين (٥-٨) درجة مئوية، تتوزع المحافظة بين الأقاليم المناخية الرطبة وشبه الجافة والجافة بحيث يتراوح معدل الأمطار فيها مابين (٢٠٠) مم في أقصى الشرق ليصل في غرب المحافظة إلى (١٠٠٠) مم وهذه الأمطار بمجملها شتوية.

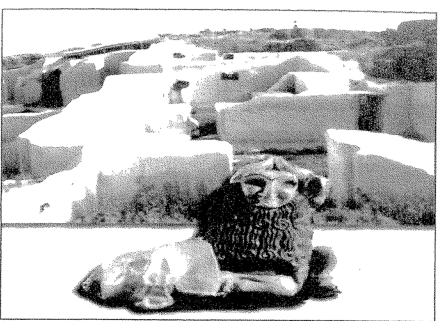
٤ـ الغنى الأثري يجلب بعثات التنقيب العالمية:

تشكل أراضي محافظة ادلب جزءاً مما كان يسمى تاريخياً الممر السوري القديم الممتد ما بين خليج اسكندرونه غرباً وحتى كوع الفرات شرقا وهي اليوم تمثل بوابة سوريا على الأناضول مما يجعلها عقدة مواصلات هامة.

وقد جعل المناخ اللطيف وتجاور السهل مع الجبل إضافة إلى الأمطار الكافية لإنبات المزروعات من المحافظة موطناً لطفولة البشرية ونشأتها حيث عرف الإنسان على أرضها الزراعة وتدجين الحيوان وهذا ما أكدته البعثة اليابانية التي ما زالت تعمل في المحافظة منذ السبعينيات من القرن الماضي في تلال (عين الكرخ وعري وعبد العزيز) الواقعة في سهل الروج وقد اكتشفت حوالي ثلاثين موقعاً اثرياً للإنسان السوري منذ العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠، ٥٠٠٠) ق.م وقد دلت الاكتشافات الأثرية في تل عين الكرخ على معرفة إنسان المنطقة بزراعة الحبوب وتدجين الحيوانات حوالي (٦٠٠٠) ق.م.

وتوجد في المحافظة عدة بعثات تنقب في تلالها منها البعثة اليابانية الثانية التي تنقب في تل المسطومة والبعثة الإيطالية المنقبة في تل مرديخ (ايبلا) برئاسة البرفسور باولو ماتييه العاملة منذ عام

١٩٦٤ والبعثة الايطالية الثانية المنقبة في تل (آفس) منذ السبعينات من القرن الماضي برئاسة الدكتورة مستغانيا ماتزوني وبعثة ايطالية ثالثة في تل الطوقان تعمل منذ السبعينات من القرن الماضي أيضا وبعثة وطنية في (تل دانيت) وبذلك فان عدد التلال التي ينقب فيها في المحافظة تبلغ ثمانية (٨) تلال فقط من اصل التلال الأثرية الموجودة على ارض هذه المحافظة والبالغ عددها (١٦١) تلاً مما يظهر مدى حاجة المحافظة إلى مزيد من الكوادر البشرية الأكاديمية والفنية للتنقيب في تلك التلال وسبر الحقب الزمنية التي تعود إليها. خاصة ونحن نعلم إن البرفسور باولو ماتييه بدأ التنقيب في تل مرديخ ايبلا منذ عام ١٩٦٤ وما زال حتى اليوم.



٥ـ الواقع الزراعي:

تتوزع مساحة المحافظة حسب قابليتها للزراعة إلى:

٣٤٩٠٧٥ هـ.آ قابلة للزراعة وتشكل حوالي ٥٧٪ من إجمالي المساحة

١٣٥١٩٣ هـ.آ غير قابلة للزراعة وتشكل حوالي ٢٢,٢٪ من إجمالي المساحة

٤٦٨٣٤ هـ.آ مروج ومراعي وتشكل حوالي ٧,٨٪ من إجمالي المساحة

٧٨٦٠٨ هـ.آ أحراج وغابات وتشكل حوالي ١٣٪ من إجمالي المساحة

٦٠٩٧١٠ هـ.آ المجموع

إن المساحة المستثمرة/٣٤٧٠٧٨/ هـ.آ من أصل الأراضي القابلة للزراعة وهناك /١٩٩٧/ هـ.آ غير مستثمرة أما المساحة المزروعة فهي /٣٣٩٩٨٥/ هـ.آ والمتروكة سباتاً للراحة /٧٠٩٣/هـ.آ. وتتوزع الأراضي المزروعة بين سليخ ومشجر حيث أن مساحة السليخ /٢٠٤٠٨٤/ هـ.آ أي حوالي ٦٠٪ منها والمشجر /١٣٥٩٠١/ هـ.آ أي حوالي ٤٠٪. وتبلغ المساحة المروية /٥٢٠٣٩/ هـ.آ وتشكل ١٥٪ من المساحة المزروعة.

تُزرع في المحافظة العديد من الأشجار أهمها (الزيتون - الفستق الحلبي - الكرز - الكرمة - المشمش - التفاح - الحمضيات - اللوزيات - التين - ...الخ) إلا أن أهمها شجرة الزيتون حيث يبلغ عدد أشجارها حوالي /١٢,٧/ مليون شجرة منها ما يقارب /١٠,٥/ مليون شجرة مثمرة.

٦ـ الواقع الصناعي:

أ - منشآت القطاع العام الصناعي:

يوجد في المحافظة عدة معامل أهمها:

- معمل السكر بجسر الشغور: طاقته الإنتاجية /١٢٠/ ألف طن شوندر سكري

ينتج عنهما حوالي /١٠/ آلاف طن سكر أبيض وتكرير /٥٢/ ألف طن سكر خام ينتج عنها /٤٨/ ألف طن سكر أبيض وقد تم إعداد دراسة تنفيذية لتطوير المعمل وزيادة طاقته الإنتاجية

- معملان للغزل مجموع طاقتهما النظرية حوالي /٢٥/ ألف طن غزل قطني

- محلج طاقته السنوية حوالي /٢٨/ ألف طن

- وحدة كونسروة تضم أربعة خطوط إنتاج وخط لإنتاج العلب وهناك خطة لتطوير الوحدة وزيادة عدد الخطوط فيها

- مطحنة بمدينة ادلب طاقتها الطحنية النظرية /١١٥/ طن يومياً

- يوجد مطحنة بسنجار قيد التجهيز طاقتها الطحنية /٥٠٠/ طن يومياً مع طاقة تخزينية /١٠٠/ ألف طن

- يوجد /١٤/ مخبز آلي مجموع إنتاجها السنوي حوالي /٩٣,٥/ ألف طن من الخبز

ب- المشاريع المشمولة بقانون الاستثمار رقم /١٠/:

يبلغ عدد المنشآت المرخصة على قانون الاستثمار /١٠/ منشآة لصناعة (الزيوت الغذائية - الأقمشة القطنية والتركيبية - بودرة صحية p.v.c - محركات كهربائية ومضخات نابذة - فرز وتوضيب وتخزين الخضار والفواكه).

٨- أهم المصادر المائية الموجودة في المحافظة:

آ- الأمطار: يبلغ متوسط الهطول المطري حوالي /٥٠٠/ مم سنوياً

ب- الأنهار: نهر العاصي يمر بطول حوالي /٦٢/ كم بالجزء الغربي من المحافظة ويذهب قسم كبير من مياهه إلى لواء الاسكندرون.

جـ- الينابيع: ومعظمها مستخدم للشرب مثل: عين الزرقا - نبع الدباغة - السبع عيون - اللج - حارم - جورين - العدوسية - عين عارة- الطيبوت.

د- السدود:

السدود التخزينية: (سد البالعة: ويقدر تخزينه الفعلي بحوالي /١٣/ مليون م٣) (سد الدويسات تخزينه الفعلي /٣/مليون م٣).

السدود الترشيحية: سد كفروحين: التخزين الفعلي حوالي /٢,٢٥/ مليون م٣، سد العقرق التخزين الفعلي حوالي /٠,٥/ مليون م٣، سد معرة النعمان التخزين الفعلي حوالي /٠,٢٢٤/ مليون م٣، سد الهبيط التخزين الفعلي أقل من /٠,٥/ مليون م٣، سد خان شيخون التخزين الفعلي حوالي /٠,٢٧/ مليون م٣.

يتم تنفيذ سد الوادي الأبيض تخزينه حوالي /٨٧/ مليون م٣.

السدود التي هي قيد الدراسة: خزان البالعة رقم /٢/ التخزين حوالي /٤٥/ مليون م٣،

سد كفر هند التخزين حوالي /١٢/ مليون م٣، سد الفاروقية استثمار ينابيع حارم هناك دراسة لأربع مواقع من أجل تخزين /٧/ مليون م٣، خزان بنش يتم إجراء تحريات لإنشاء سد لتجميع مياه المعالجة.

المصادر المائية الجوفية: إن عدد الآبار المرخصة /١٠٢٣٣/ بئر تستخدم لري حوالي /٤٥٩٠٦/ هـ.آ و/٣٣٠٩/ بئر غير مرخص تروي حوالي /٤٢٠٠/هـ.آ وهناك /٤٢٥/ بئر لمياه الشرب وهناك /٧٣/ بئر تستخدم من قبل مؤسسات وشركات القطاع العام.

الأساطير التاريخية

في لوحات الفسيفساء المعروضة في متحف المعرة

غازي علولو *

١- نشوء فن الفسيفساء وتطوره:

الفسيفساء فن من فنون الزخرفة التصويرية لوحاته قوامها كعوب حجرية ملونة أو رخامية أو قرميدية لا تتجاوز أبعادها المليمترات (٣ - ١٠ مم)، وذلك للتعبير بدقة عن الملامح الحقيقية لموضوعاتها.

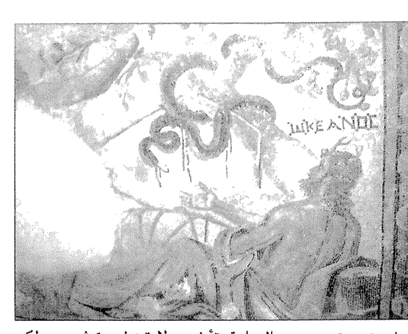
ويبدو أن الفسيفساء قد انبثقت من فن الترصيع الذي كان سائداً في الألف الثالثة قبل الميلاد في منطقة الشرق القديم، وقد انتشر هذا الفن عند قدماء المصريين والبابليين والآشوريين، فقد كانوا يزينون أبنيتهم وقصورهم بالطوب الخزفي الملون، الذي تظهر عليه أشكال حيوانية ونباتية كما في بوابة عشتار وبابل، ثم تطور هذا الفن ليصل إلى أوجه في الفترة الإغريقية، حيث كشفت الحفريات عن أقدم لوحة رصفت بالكعوب الحجرية الملونة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد وجدت في مدينة أولينتوس اليونانية، وكانت موضوعات هذه الفترة مستمدة من الأساطير أو من الطبيعة والأشكال الهندسية التزينية، ثم ظهرت موضوعات أخرى في الفترة الرومانية كمشاهد الصيد والحياة اليومية والألعاب الرياضية وقد بلغ فن الفسيفساء في سورية شأناً كبيراً في الفترة ما بين القرن الثاني والسابع الميلادي واتصف بدرجة عالية من الدقة والمهارة الفائقة سواء في تصوير الأجسام أو في الانسجام والتناغم في الألوان، حيث نجح الفنان بالتوفيق بين جمال التصوير والإبداع الهندسي، والتمثيل النباتي والحيواني، ومن الموضوعات التي جسدها الفنان في بداية هذه الحقبة الموضوعات الأسطورية ومشاهد الصيد والبطولة، وتم توثيق معظم اللوحات الفسيفسائية خلال هذه المرحلة بالكتابات التاريخية والتذكارية، وباللغات اليونانية واللاتينية والسريانية.

٢- فسيفساء المدن المنسية:

وقد ترافق انتشار الموزاييك مع الازدهار الاقتصادي والعمراني الذي

* رئيس دائرة آثار معرة النعمان.

شهدته المدن المنسية عبر منطقة الكتلة الكلسية الممتدة من أفاميا جنوباً وحتى قلعة سمعان شمالاً التي يزيد عددها عن ٧٥٠قرية رصفت فيها أرضيات الكنائس والأديرة والفيلات والدارات السكنية والحمامات والمعاصر والمقاهي بالفسيفساء، ولم يقتصر الرصف بالفسيفساء على الأرضيات، بل تعداها

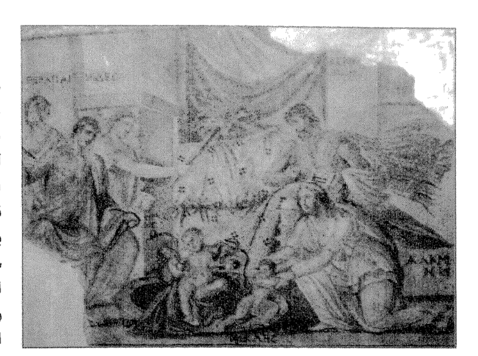


إلى الواجهات والسقوف، ولعوامل متعددة هجرت هذه المدن وبقيت أطلالها وأرضياتها حيث تم نقل بعضها إلى متحف المعرة وسنستعرض اللوحات ذات الموضوعات المثيولوجية وذلك حسب تسلسلها التاريخي:

هيراكليس أو(هر قل):

وهي من روائع التحف الأثرية التي يفخر بها متحف المعرة، تتألف اللوحة من عدة مشاهد، تتحدث عن عودة آل هيراكليس في صبغة أسطورية لإضفاء المزيد من العظمة والإجلال على التاريخ الإغريقي ولما لها من أهمية في الأدب والموروث الشعبي الإغريقي.

ويمكن تلخيص هذه الأسطورة حسب التسلسل الموضوعي والتاريخي: بأن الإله زيوس أُغْرِم بألكميني زوج إمفتريون أحد أشراف مدينة طيبة، فأنجبت ولداً (المشهد الأول) وعندما علمت هيرا زوج زيوس الشرعية، التي يزعجها خبر كهذا، صبت جام غضبها على محبوبة زيوس وحملها (المشهد الثاني)، فقامت في البداية بتأخير ولادته لعدة شهور، لكن شاءت إرادة الآلهة بأن يولد هذا الطفل، ولكي تتخلص منه هيرا وضعت الأفاعي والثعابين في المهد لقتله، لكن الطفل استطاع خنق الثعابين بكلتا يديه واكتسب منذ اللحظة اسم هيراكليس (أي الذي اكتسب المجد والشهرة من هيرا) ويظهر إلى جانب هيراكليس والدته التي تهب لإنقاذ ابنها ايفكليس والذي يحمل الصفة البشرية، ووالده قد أشهر سلاحه، ومجموعة من الخدم الذين يحملون المشاعل لإضاءة هذا المشهد البطولي. وتستطرد الأسطورة فتقول: أن هيراكليس تلقى أجود التعليم في أنواع الفنون والحكمة والرياضيات المعروفة، إلا أنه بينما كان يتلقى درساً في الموسيقا إذ حصب أستاذه فسقط مغشياً عليه، عندئذ أرسله إمفتريون ليرعى الماشية عقوبة فعلته، وفي المراعي بدأ مغامراته المدهشة وخصوماته مع هيرا التي كانت تخلق له المصاعب فقتل الحيوانات المفترسة واقتنص حيوانات عجيبة كالخيول آكلة لحوم البشر، وأنزل الطيور من أعالي



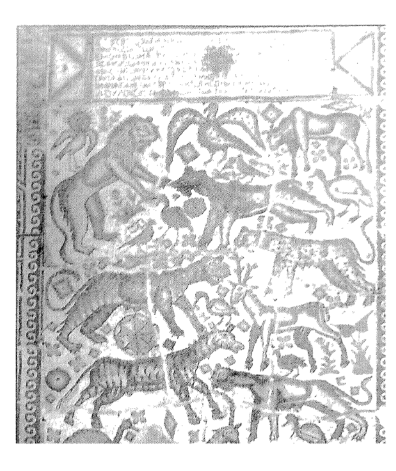
وتمثل هذه اللوحة نشوء مدينة روما الأسطوري، عندما حكم مدينة ألبا المستطيلة باعتبارها أهم مدينة في سهل اللاتيوم الملك نوميتور الذي رزق بابن وابنة، غير أن شقيقه آميليوس اغتصب العرش منه، وقتل ابن أخيه وقدم ابنته قرباناً للآلهة، مما يعني أنها ستبقى عذراء لمدة ثلاثين سنة، فلا تخلف نسلاً ينتقم منه لفعلته، لكن الإله مارس إله الحرب أغرم بالفتاة، واتصل بها سراً فحملت بطفلين ذكرين هما ريموس ورمولوس، وما إن علم الملك المغتصب حتى ثار غضبه على الغلامين وأمر بإلقائهما في نهر التيبر، وتستطرد الأسطورة فتقول إن عناية الآلهة وتدخلها أدى إلى قيام المعجزة حيث حطَّا على شاطئ نهر التيبر عند سفح هضبة البالاتيوم وتحت ظلال شجرة تين أتت ذئبة وحنت على الطفلين فأرضعتهما، بينما تكفل أحد العقبان بحمايتهما إلى أن عثر عليهما راعي قطعان الملك فحملهما إلى زوجته التي تولت تربيتهما حتى شبا عن الطوق وأطلعا على مجريات الأحداث وتدبرا الأمر واتصلا بأعوان الملك الشرعي، وقاما بثورة، فقتلا المغتصب واستردا عرش جدهما، ورجع نوميتور ملكاً من جديد، ومكافأة لهما فقد وهبهما جدهما الملك منطقة التلال السبعة على نهر التيبر حيث كان مهدهما، ووقع اختيار

السماء، وأعاد بعض الأشياء المقدسة المسروقة إلى أصحابها كما أقام صخرتين متقابلتين على مدخل البحر المتوسط (عمودي هرقل) حسبما تذكر المصادر الميثولوجية وحمل العالم في غياب الإله أطلس وشارك الآلهة في صراعها ضد المردة وضد الطرواديين في حروب طروادة. والمشاهد المتبقية تظهر هيراكليس وقد أصبح رجلاً كهلاً وقف إلى جانبه زوجه انستازيا (خلود) ويباركه الإله زيوس وفي المشهد الأخير يبدو الإله أوقيانوس إله المحيطات بقرنيه وقد حاصره ثعبان كبير وإلى جانبه يبدو هيراكليس وقد خلصه من الثعبان ويحمل بيده غصن الزيتون.

أسطورة: ريموس ورمولوس:

عثر على هذه اللوحة في قرية فركيا على بعد ١٥كم شمال غرب مدينة المعرة، وهي مؤرخة بسنة ٥١٠م وكانت ترصف إحدى الغرف الجانبية لكنيسة في الموقع نفسه.

الآلهة على ريمولوس لرسم مخطط المدينة، وأخذ محراثا وبدأ يخط أخدودا حول مدينته، ورفع المحراث عند الأبواب بعناية، وشرع العمال والبناءون ببناء السور المقدس، واستشاط الأخ غضباً لأن الآلهة اختارت شقيقه فقفز فوق أسوار المدينة، فقتله شقيقه وارتفعت أسوار المدينة على الدماء التي ستسفك على مدى القرون اللاحقة على يد الرومان لإخضاع الشعوب المجاورة وكان ذلك سنة ٧٥٣ق.م.



فسيفساء الهوات:

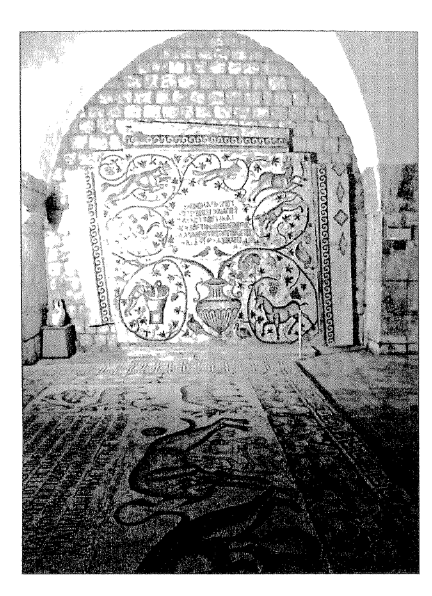
ويرجع تاريخها إلى عام ٥٦٧ م، حيث كانت ترصف أرضية كنيسة تتميز بمشاهدها المثيرة، فقد جمعت (بين الحيوانات المفترسة كالسباع والفهود والحيوانات الأليفة كالثيران والجواميس والماعز والفيلة والدببة والطيور كالنعام والحجل والحمام والبط والنسور) في مشهد واحد، وما يميز هذه اللوحة هو طائر الفينكس الأسطوري وقد أفرد جناحيه وأحاط رأسه بقرص الشمس، وهذا الطائر معروف منذ القدم وهو في الأصل طائر مصري، تصوره اليونان والرومان على شكل طاووس أونسر، ثم أخذه عنهم البيزنطيون، وقد ظهر هذا الطائر في كثير من اللوحات الفسيفسائية، وقد نسجت حوله الأساطير والقصص الغريبة، ومنها أن هذا الطائر يبعث كل خمسمائة عام بعد أن يحرق نفسه في عشه، ومن ذرات رماده يخرج فراخه، وقد أصبح هذا الطائر رمزاً للبعث في فكر الحضارات القديمة، ثم أصبح رمزاً لبعث السيد المسيح في الفن المسيحي، كما تزخر اللوحة بصور طيور الطاووس والحمام التي ترمز إلى روح القدس.

٣ـ علاقة موضوعات اللوحات باللوحات بالتراث المحلي:

وتمثل هذه اللوحات ذات الموضوعات الأسطورية تجسيداً لفكر وتراث الحضارات القديمة وبنظرة متفحصة ندرك بأنها من نتاج وأدبيات الشرق الأدنى القديم، فأسطورة هيراكليس هي أسطورة مصرية قديمة انتقلت إلى شعوب وحضارات البحر المتوسط، ومن ثم جسدت بشخوص محلية على النحو الذي يبدو في هذه اللوحة، أما أسطورة ريموس ورمولوس فهي في جزئياتها مستمدة من

تراثنا الديني والأدبي فهي تتطابق مع قصة هابيل وقابيل اللذان قدما قرباناً إلى الله سبحانه وتعالى فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر كما جاء في سورة المائدة. ((واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين)).

كما أن رضاعة الأخوين من ذئبة ذات ثلاثة أثداء يذكر بالرمز الديني المسيحي، وأما قصة وضعهما في صندوق خشبي فهي مستمدة أيضاً من قصة النبي موسى عليه السلام فقال تعالى في سورة القصص ((وَأوحَيْنَا إلى أم موسى أن أرضِعيهِ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولاَ تخافي ولا تحزني إنا رآدُوه إليك وجاعلوه من المرسلين)). كما أن التنوع الحيواني في لوحة الهوات ورصفها جانباً يمثل في رأي الدارسين قصة الطوفان في زمن نوح عليه السلام إذ قال تعالى في سورة هود ((حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين



اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن ءامن ومآ ءامن معه إلا قليل)) ، وهكذا فإن مواضيع اللوحات وتنوعها بين الأدبي والأسطوري والواقعي يضفي عليها قيمة جمالية وتاريخية متميزة ويجعلها من مصادر التاريخ الإنساني.

مصادر ومراجع البحث:

١- القرآن الكريم

٢- دراسات في تاريخ الإغريق - مفيد رائف العابد دمشق ١٩٧٩م

٣- دراسات في تاريخ الرومان - محمد محفل - دمشق ١٩٩٩م.

٤- عبد الرزاق زقزوق - صور مقدسة على الفسيفساء المكتشفة في محافظة حماة

٥- الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد الأربعون ١٩٩٠.

٦- كامل شحادة - الفسيفساء في متحف المعرة ١٩٩١م.

٧- التقارير المعدة أثناء اكتشاف هذه اللوحات في متحف المعرة..

آثار عربية إسلامية

في منطقة ريحا

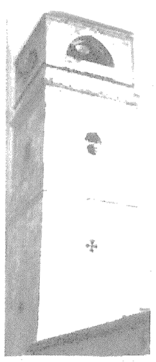
فايز قوصرة*

لقد حظي الواقع الأثري الأغنى بالأوابد في محافظة ادلب، باهتمام الباحثين الأجانب من خلال التنقيب الأثري مؤخراً لعهود ما قبل الإسلام، أما الآثار الإسلامية فلم تأخذ حقها من البحث، ونحن في محاولتنا نسلط الضوء على بعضها في منطقة ريحا، كي تكون زاداً لكل باحث في تاريخ المنطقة، إذ أصبح علم الآثار المادة الأساسي للتأريخ، إلى جانب الحوليّات المكتوبة، فتاريخنا بين أيدينا من خلال الأوابد والنقوش والكتابات الأثرية.

أولاً- ريحا:

مدينة تقع إلى جنوب إدلب بـ ١٣كم في سفح جبل الأربعين وهي مركز منطقة باسمها. ذكر جلبي حين زارها سنة ١٠٨٢ هـ (فيها تسعة مساجد وجامعان)

■ **الجامع الكبير:** من خلال دراستنا له تبين أنه في أصله كنيسة تحولت إلى مسجد جامع في العهد المملوكي.. له مدخلان شمالي وشرقي، وفي بابه الشرقي زخرفة جميلة بقوسه المنحنية تواجهك لوحتان في مدخله: الأولى على اليمين والأخرى على الشمال، لم نتمكن من قراءتهما لطلائهما بالكلس ويمكن القول أن بناء المدخل الشمالي للجامع قد تم سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م في عهد الملك الظاهر بيبرس، كما تشير الكتابة المنقورة على نجفة الباب المؤلفة من ثلاثة أسطر:



ريحا: مئذنة الجامع الكبير (العهد المملوكي)

(١- بسملة جدد هذا المكان المبارك في أيام مولانا السلطان - ٢- الملك الظاهر [ركن] الدنيا والدين خلّد الله ملكه مما

---

* باحث في تاريخ محافظة ادلب وآثارها.

تبرع بـه العبـد -٣- الفقـير إلى الله علـي بـن يـاقوت الشـيخ بـن شـرف غفـر الله لـه ولوالديـه ولجميـع المسـلمين في سـنة سـبع وستين وستمائة). وفوق الكتابة رسم قنديل (رنك) من الشعارات المملوكية المستخدمة في هذا العهد[1].

وأمـا باحتـه الجميلـة فمحاطـة بالأروقة، ذات الأعمدة المغطاة ببروز ناتئ لتشـكل الزخـارف، كمـا أن هنـاك كتابـة كوفية تربيعية نقرت على حجر مربع الشكل -وهـي مملوكيـة- عليهـا الأسمـاء التاليـة: في الوسـط اسـم النبـي محمـد ﷺ وفي الأسـفل أبي بكر ثم عمر وعثمان وعلي وهناك لوحة حجرية أخرى كتبت بـالخط نفسـه ((الله، لا إلـه إلا الله، محمـد رسـول الله)) وكـلا الكتـابتين نقرتـا بشـكل نـافر وأمـا مئذنتـه المربعـة المزينـة بـالنقوش الحجريـة الجميلـة، فقـد جـددت عمارتهـا أكـثر مـن مرة، حسب ما تمت ملاحظته واستخدمت فيهـا الأحجـار القديمـة حيـث كـان الجـامع كنيسـة فحولـت إلى جـامع، ونلاحـظ في الطبقة الثانية من المئذنة أحجارا مزخرفة عليهـا شـكل الصليـب وهنـاك نجفـة أخـرى فوقها لوحة نقر عليها اسم يشير إلى عمـر المئذنة كتب بثلاثة أسطر هي منقطة تمكنا من قراءة الكلمات التالية

(١- عمرت هذه المئذنة في أيام مولانا السلطان ٢- الملك الناصر بن الملك العزيز خلد الله ملكه.

٢-في عـهد "محمـد مخلظـار كشـتبار" والكتابة كما يبدو غير مرتبة، ولكنها تشير إلى أن بنـاء المدخـل الشـرقي تم في عـهد الملـك العـادل زيـن الديـن كتبغـا، أحـد سـلاطين المماليك البحرية في مصر والشام (٦٣٩ - ٧٠٢هـ) وهـو دفـين دمشـق تـولى مملكة حماة وأعمالها سنة ٦٩٩هـ واسـتمر بها إلى أن توفي. ويمكن القول إن ريحـا قـد كانت تابعة لمملكة حماة سنة ٧٠٠ هـ، وأن المدخل الشـرقي قـد تم تشـييده في هـذه السـنة، في عـهد الملـك كتبغـا الـذي كـان شـجاعا متدينـا فسـعى إلى تحسـين هـذه المنشـأة الدينيـة في عـهده وهـو التجديـد الثاني. والمدخل الشـرقي للجـامع يشـبه في بعـض زخارفـه بوابـة المدرسـة الظاهريـة بدمشـق بعـض الشـيء، ومدخـل جـامع الطواشـي بحلـب، لكـن نقـوش قنطـرة الواجهـة تشـبه نقـوش الكـورة الجداريـة لجـامع التـيروزي في دمشـق، وجميعـها مـن العـهد المملوكـي. وأمـا اللوحـة الثانيـة في الجـدار الشـمالي للمدخـل الشـرقي فـهي مؤلفة من خمسة أسطر: ((١- شيده العالم شـفاء الكمـال الظـاهر المللـي؟ ٢- الارشـد الملـك المخلـد لله المـلاذ فبطـل الملعـون. ٣- مالك هذا الوقف المعلا محمد الغافقي وذلك ٤- بسعي المقام الأشرف الحاجي لنا الشـفا صـاحب دار النـور ٥- في سـبع وأربـع (وسبعمائة) بسمه ظهر المنشاته..؟))

ويبـدو أن هـذه الكتابـة تعـود إلى زمـن بنـاء المئذنـة وإلى عـهد السـلطان المظفـر زيـن الديـن حـاجي الأول وكمـا ورد آنفـا. وأخيرا يمكن القول إن هذا الجامع قد جدد أكثر من مـرة في العـهد المملوكـي كمـا ورد في هذه الكتابات، وكذلك الكتابة الإسلامية المملوكيـة علـى المنـبر الخشـبي (لا إلـه إلا الله هو الحي الباقي) وأخرى حديثة.

١- قوصرة: الرحالة ٢٥٦/٢ بتعديل طفيف لكتابات العهد المملوكي في القراءة الثانية.

ثانيا- نحليا:

قرية واقعة إلى الشمال الغربي من ريحا بـ ٣كم. لم تدرس أثريا بعد، رغم قدمها، وورود اسمها في الحوليات التاريخية البيزنطية والإسلامية، وقد قمنا بدراستها علنا نجد فيها - بين الأبنية الحديثة - بعض أوابدها الإسلامية وأهمها:

١- **جامع نحليا:** من الجوامع القديمة، إذ جدد أكثر من مرة ومن خلال نظرة فاحصة إلى مبناه يبدو على الأرجح أنه كان كنيسة، نتيجة لبقايا الأحجار البيزنطية، وقواعد الأعمدة الرومانية الملاصقة له. كما وجدنا فيه لوحة حجرية صغيرة عليها كتابة تربيعية مملوكية وزخرفة إسلامية منقوشة على حجر شبيهة بالنقش الموجود في بقايا جامع بكفالون إلى الشمال من نحليا. إن هذه التشابكات في البناء تدل على أنه جدد أكثر من مرة، وبإمكاننا القول أنه في الأصل كنيسة وقد تحول إلى مسجد في وقت مبكر من العهد الإسلامي، ثم جدد في العهد المملوكي كما هو منقور على نجفة مدخله الشمالي في سطرين: ((١- أوقف العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه هذا المكان المبارك الحاج على بن ٢- الحاج أحمد الإمام رحمه الله تعالى ورحم من ترحم عليه وعلى جميع المسلمين في تاريخ ست وسبعمائة)) ٧٠٦هـ. له مدخل شرقي -وهو الأصل- مغلق الآن (١٩٨٧م) وفي أعلاه تقويسة ذات افريز جميل وتحته بالداخل لوحة نقر عليها كتابة عربية غير منقطة بأربعة أسطر، تمكنا من قراءة ما يلي:

((١- لما كان بتاريخ العشر الآخر من شهر شعبان سنة سبعه وسبعين وثمانمئة أبطل



نحليًا: الجامع القديم ٧٠٦ هـ

٢- الزينى عمر ثمّ الشرفي ثمّ الناصرى أولاد المقر المرحوم الناصرى مولانا من نحلين خدمة العنا..؟..

٣- ودراهم الخمس ومباشرة..؟ والبكيهك؟ والدفع..؟.. والتبن (أو التين) وورق الوز..؟.. وطرح المغل

٤- وقدر لكل مكوك قمح وشنفيلا سما كل (؟) في الحمل والعسل على خلايا وما بدّله بعد ما سمعه....)). هذا النقش مرسوم من العهد المملوكي مؤرخ سنة ٨٧٧هـ به ابطالات لضرائب ومكوس على التبن وغيره، وطرح (احتكار سلعة معينة)، وهو السلوك الاقتصادي للطبقة الحاكمة في العهد المملوكي. أما الشنفيل فهي وحدة قياس وزن في العهد العثماني باسم الشنبل. وأما اسم نحلين فهو الأقدم وكما كتبه



نحليا: قبر المحدّث حمدان ٦٣٠هـ

ياقوت (ت٦٢٦هـ) إلى أن ((نحلين قرية من قرى حلب ينسب إليها أبو محمد عامر بن سيار النحليني، حدث عن عبد الأعلى بن أبي المساور وعطاف بن خالد، روى عنه محمد بن حميد الرازي ونفرٌ سواه)).

وكذلك البغدادي ذكرها باسم نحلين، وأكدته الوثائق العثمانية الرسمية إذ أن هناك وثيقة في سنة ١١٥٨هـ تذكر قرية نحلين التي ضم وقفها إلى ريحا، هي أصلاً من أموال الحرمين الشريفين.

٢- **المقبرة الإسلامية:** في الشمال الشرقي في موقع مرتفع، مختلطة مع المقبرة الحديثة، فيها عدة آبار قديمة، وقبور متميزة، أشدها تميزاً بنقوشه الجميلة هذا القبر، نقر على لوحته ((بسم الله الر[قرص فيه نجمة] الرحيم)) وترمز النجمة هنا إلى السماء إلى العالي وإلى تتمة كلمة الرحمن.

وفي البارا نشاهد رسم النجمة كذلك على شاهدة قبر مؤرخة في سنة ٥٢٤هـ وغيرها كثير. وأما الشاهدة الشرقية فقد نقر عليها كتابة كوفية بسيطة ((حمدان المحدث /توفي ابو/ نحلين ابن أبو/..؟.. لا المحدث / رحمه الله في سنة ستمائة وثلاثين)) وتشير هذه الكتابة إلى أحد المحدثين في العهد الأيوبي، وهي تؤكد بلا شك رواية ياقوت عن المحدثين آي رواة أحاديث الرسول محمد ﷺ في هذه القرية، التي تمتعت بمركز ديني مدرسي هام في العهد الأيوبي، وليس هذا بالغريب طالما هي قريبة من ريحا التي كانت كذلك مركزاً دينياً كذلك.

ثالثاً- المغارة:

قرية حديثة إلى الشمال الشرقي من إحسم بـ ٦ كم والقرية الأثرية مجاورة بالاسم نفسه، توجد فيها كتابة عربية متميزة عن غيرها، في حجرة واسعة منقورة في الصخر، وفي رواق بناء كثيف تحت الأرض، على الجدار المواجه للمدخل كتابة منقوشة بمقياس ٢١٥×٦٨سم مضمونها:

((بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله. ولاحيدٌ من موفاه. بالله العلى المصير لله الأمر من قبل ومن بعد. وكتب هذا الذكر. إن الذكرى تنفع المؤمنين غفر الله لمن كتبه ولوالديه ووالدي والديه ولجميع المؤمنين وصلاة الله على محمد النبي وآله الطاهرين. مسكين العماد عبيد الجياد[1].

١- AAES-4-P213-14 يعود الفضل بنقل هذه الكتابة وغيرها للباحث (لتمان).. ولكنه قرأ السطر الثالث (ولا حد من موفاه)، بينما قرأناه (ولا حيد من موفاه) أي لا أحد إلا موفاه. وكذلك شك بكلمة المصير بل هي صحيحة، ونحن لا نشك بذلك، لعلاقتها بالمعنى، وهي تقارب مناسبة الوفاة بقولنا حين الوفاة (إنا لله وإنا إليه راجعون). وكذلك قرأ السطر الخامس (ابن آل.... لنفع المؤمنين). ونحن قرأناه (أن الذكرى تنفع المؤمنين). وأخيراً أعاد هذه الكتابة إلى قبل نهاية القرن الخامس الهجري، وإلى الفاطميين لأن الإسماعيلية انتشروا في هذه المنطقة في هذا القرن، واستناداً إلى ((آله الطاهرين)) في هذه الكتابة، واعتبرها شيعية، مع أنها غير ذلك. ونرجح أنها تسبق ذلك وتعود إلى القرن الثاني الهجري، لمشابهتها كتابة البارا المنشورة لاحقاً

ويبدو أن اسم الشخص في الكتابة الأخيرة نقش فيما بعد، بيد نقاش آخر، لأنها منقطة بينما الأولى غير منقطة. واسم المسكين وارد في تراثنا كالشيخ مسكين التي تعني الفقير إليه تعالى. وكلمة العماد وردت بالقرآن ((رفع العماد)) وهذه الكتابة الكوفية تعود إلى القرن الثاني أو الثالث الهجري.

بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا والصلاة
وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
ولا حول ولا قوة الا
بالله العلي العظيم اللهم اغفر لمن قرا هذا الكتاب
والله يغفر للمؤمنين عفر الله من كتبه ولوالديه
ولوالدي والديه ولجميع المؤمنين وصلى الله على محمد النبي واله اجمعين

مسكين العماد
عبد الجياد

المغارة: كتابة عربية قديمة ق٢ هـ

رابعاً- دللوزا/ درلوزا:

موقع أثري إلى الشمال الشرقي من البارا بـ ٤ كم في جبل الزاوية وهي تابعة لإحسم جنوب شرق بـ ٣ كم.

١- اكتشف فيها كتابة عربية قديمة: اعتبرها (لتمان) مثال على الكتابة العربية المبكرة والموصّلة على الحجر، واعتبرها أقدم تسجيل نقشي دال على سكن العرب في جبال أفاميا[1].

وأما (برشم) فاقترح تاريخها كما قرأها ٣٠٢ هـ أكثر احتمالاً، بينما (لتمان) قرأها هكذا ((الحاج أبو التنا (؟) في سنة ثلا (ث) ـه وثلثين (و) ستماثة؟)) شاكاً بالاسم والتاريخ. وجدها على جدار بيت قديم بقرب بناء يدعى دار الحبس. ونحن نرجح تاريخها ٣٠٢ هـ والاسم الحاج أبو التناي أو التناري نسبة إلى قرية تنّارية في جبل الوسطاني! وكتابتها هكذا تؤيد تاريخها الأقدم!

٢- على الجدار الجنوبي لإحدى الدارات القديمة في الشمال الغربي من البلدة مواجهة للباحة على مدخل الباب الغربي ((بسم الله مر علـ(ى) هذا البيت عبد الله سنة ستين وخمسماثة)) نلاحظ الكتابة غير مرتبة على سطر واحد، ويمكن توقع تاريخها أيضاً ٥٠٦ هـ لأن الكلمة الأخيرة قد تقرأ سنة أو ستة.

٣- كسيرة حجرية منفردة نقر عليها ((الله أملى))

٤- شاهدة قبر في المقبرة الإسلامية في جنوب البلدة، تشتمل على سورة، والأخرى ((١- كل نفس ذا ٢- يقة الموت توفي ٣- رشيق ابن يريم ٤- سنة عشرة وستماثة)) وقياسها ٧٥ سم فوق الأرض وعرضها ٥٦ سم ونلاحظ الاسم يريم إحياء لاسم عربي جنوبي هو اسم ينتمي لقبيلة بني كلب. وكذلك هذا الاسم قديم جداً، إذ كان اسم أحد ملوك حلب (يريم ليم) في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وفي دارقيتا في جبل باريشا يوجد أيضاً اسم يريم بن وهوب.

٥- نقش على خلف ساكفة شاهدة في المقبرة عليها سورة (آية) ((عمل محمود بن [ا]لاعرب)) وهي غير منقطة.

١- يسمى القسم الجنوبي من جبل الزاوية باسم آخر جبال أفاميا وجبل شحشبو

دللوزا: كتابة عربية قديمة ٣٠٣هـ

دللوزا: كتابة أبو حاتم

دللوزا: كتابة عربية ٥٦٠هـ

دللوزا: الله أملي

دللوزا: اسم صانع الشاهدة محمود بن الأعرب

دللوزا: الإمام إبراهيم

٦- كتابة أخرى في بيت فيه أعمدة كورنثية في غرب البلدة كتابة عربية قديمة ((الإمام إبراهيم))أو ((أنا إمام ابن شاعر)).

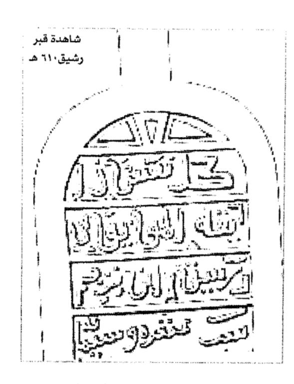
٧- على حجر في جدار بيت في الزاوية الشمالية الشرقية كتابة عربية قديمة (حضر أبو حاتم) وهناك العديد من الكتابات الحجرية غير المؤرخة. وفي دللوزة مسجد صغير محرابه واضح، عرض بطلر صورة عنه في كتابه.

البارا: قرية كبيرة تقع إلى الجنوب من إدلب بـ٣٣كم تابعة لناحية إحسم في منطقة ريحا ...لكن الآثار الإسلامية فيها هي في الموقع الأثري للبلدة القديمة ((كفر البارا)) تم فتحها من قبل العرب المسلمين في سنة ١٧هـ ذكرها ياقوت الحموي في معجمه (ت٦٧٦هـ) بقوله ((البارة: بليدة وكورة من نواحي حلب، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة)) وفي الحوليات التاريخية أن (ريموند) قد استولى عليها سنة ٤٩٢هـ بعد أن حاصرها صنجيل الإفرنجي، ونتيجة هذا الحصار، قل الماء فيها، فطلب أهلها الأمان، ولكنه غدر بهم، وكانوا جميعاً من المسلمين، الذين تعرض قسم منهم للقتل وتعرض قسم إلى بيعهم رقيقاً في إنطاكية، وغصت البلد بالفرنجة وتحول جامعها الكبير إلى كنيسة. ولكن الأحوال لم تهدأ بين الفرنجة والعرب في هذه المنطقة، نظراً لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بين إنطاكية وأفامية وحلب، فاستردها ملك حلب رضوان سنة ٤٩٦هـ، ثم نزل عنها ايلغازي بن أرتق للفرنجة، بحكم معاهدة عقدت بينهما سنة ٥١٤هـ ولم تمض سنوات حتى استردها (بلك بن بهرام) أمير حلب سنة ٥١٧هـ، ولكن لم يمض العام حتى عاود الفرنجة احتلالها مرة أخرى، وظلت بأيديهم إلى أن استردها منهم البطل نور الدين زنكي سنة ٥٤٦هـ.. ونتيجة أهوال هذه الحروب والكوارث ضعفت المدينة، ومع الزمن غادرها سكانها، وخاصة بعد الزلزال، الذي خرب معظم معالمها صيف عام ١١٥٧م[١].

١- قوصرة: الرحالة ٧٤/٢ وما بعد

ننتقل إلى الجانب الأثري فيها، إذ من الغريب إن الباحثين قد أثار إعجابهم هذا العمران في هذا الخراب وإن كان معظمه يرقى إلى ما قبل الإسلام. لكن هذا الموقع يعتبر أحد الشواهد المميزة على عيش المسلمين فيه، والدليل على ذلك الكتابات والنقوش الإسلامية فيها، إضافة إلى بعض الأوابد الظاهرة، غير الباطنة التي لم يكتشف عنها بعد وقد أكد هذا (لتمان)، في دراسته لبعض كتاباتها العربية بقوله: ((إن وجود هذه النقوش في كفر البارا لها أهميتها، فيما يتعلق بتاريخ هذا الموقع في العهد الإسلامي، حيث تعود هذه النقوش للعهد الإسلامي بسبب الأشكال العربية كـ علي وإبراهيم وربما آمين. بلدة البارا استمرت بالازدهار بعد الفتح العربي مدة خمسة قرون على الأقل.)). ومن الآثار الإسلامية فيها:

١-حصن أبي سفيان: يدعى عند الأهالي القلعة وأيضاً البرج، وإن كان لا يدل مخططه وشكله على أنه قلعة كمثل القلاع الأخرى، ولكنه يتألف من سور مزدوج، ينهض في حافته برج ضخم لا يزال قائماً، بواجهته التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً. وقد زار الرحالة والعالم الأثري الفرنسي (فان برشم) بلدة البارا الأثرية عام ١٨٩٥م ودرس حصن أبي سفيان.. حدثنا عنه بقوله ((لعل البناء الوحيد من القرون الوسطى هو(القلعة) القائمة على رابية شمال الكفر.. فالبناء واسع ومعمر بأحجار جميله ومصقوله بدقة لكن أكثر من نصف البناء خَرِبٌ، والقسم الباقي بشكل جيد وهو (برج الدفاع). وإن مخطط



شاهدة قبر رشيق٦١٠ هـ

وتفاصيل البناء تشير إلى إنجاز عربي، وليس من الممكن القول أنه من عمل الصليبين، لأنهم لم يبقوا طويلاً في البارا ولكننا نعتقد أن هذا العمل قد بني قبل الصليبين، لأسباب نوجزها بما يلي:

- عندما احتل الفرنجة البارا عام ١٠٩٨م كانت هذه المدينة محصنة، وبما أنها مسورة، وبموجب الملاحظة التي أبداها مؤرخ لاتيني[1] لا تنطبق إلا على الحصن:

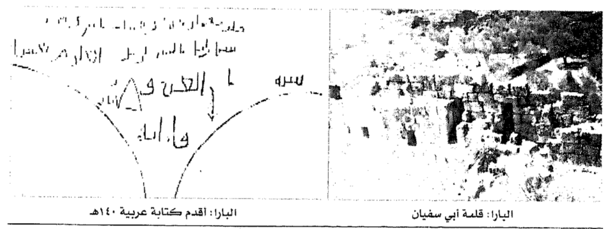
- يعتقد بأن البارا كانت لها أهميتها في القرن الحادي عشر، حيث هضاب سورية الشمالية، قد انتشرت فيها تجمعات إسلامية - شيعية وبالفعل الكتابات العربية المعروفة والموجودة حتى الآن في البارا والخرائب المجاورة في معظمها تعود إلى هذا العصر - يعني القرن الحادي عشر - ويلاحظ فيها الأثر الشيعي، وعلاوة على ذلك عدم ذكر المؤرخين عن البارا بعد سنة

١- Berchem- V.p. ١٩٨-١٩٩ وقد أكد برشم هذا الرأي في مجلة Journal Asiatique. II - 1895.p.497 بقوله ((إن خراب حصن البارا، وما بقي فيه من آثار بلدة العصور الوسطى. يبدو في أصوله عربي.

١١٢٣م يشير إلى إنها انحطت في القرن الثاني عشر، كما أن دقة البناء في القلعة وبساطته، لا تقارن بالقلاع العربية الجميلة في القرنين الثاني والثالث عشر، مما يثبت هذا الرأي ولذلك فهي تستحق الترميم ورفع بقايا هذا البناء، ليس لقيمتها الجوهرية، بل لكونها آثراً من آثار الفن المعماري العربي العسكري السابق للحروب الصليبية، ولكون مثل هذه الأعمال نادرة[١])) وإننا نوافق الرحالة (برشم) الرأي في أن الحصن بني قبل الحروب الصليبية وأنه عربي البناء، ولكننا نخالفه الرأي بتحديد فترة بنائه، خاصة وأنه ذكر إنه بسيط، ولا يقارن بالقلاع العربية الجميلة في القرنين الثاني والثالث عشر.... وإنه عمل نادر ليس له مثيل، إن هذا الحصن بحاجة إلى دراسة مفصلة بعد رفع الأنقاض عنه، وقد تم ذلك إذ رممت المديرية العامة للآثار الزاويتين الجنوبية والشرقية.

٢- أقدم كتابة في المنطقة: باتجاه الشمال وليس بعيداً عن القلعة، تقع كتابة في أحد القبور القديمة المنقورة في الصخر. على الجانب الجنوبي لضريح واجهته نحو الغرب، على يمين أحد مداخله. ومن خلال الإطلاع تبين أنها مكتوبة بيدين مختلفتين، وربما في زمنين مختلفين. الأدنى مؤلفة من سطرين، وهي الأقدم. وبالإمكان قراءة ((سنة أربعين ومائة[٢])) وهي أقدم كتابة عربية كوفية يعثر عليها في المنطقة، وفوقها سطران آخران يمكن قراءة السطر الأول ((خلد بعمارة لدار حساب ماهر كعب)) وفي السطر الثاني نقرأ ((....؟...السيد الرسل العادم نعسا(ن))). ولعله قبر أحد الشهداء من رسل الصحاب الكرام، كما يروى السكان توتراً، باستشهاد الكثير من الصحابة في هذا الحي وأما الكتابات العربية الأخرى في هذا الحي فهي مكتوبة على الفراغات بين الحفر المقبرية، وبالخط الكوفي كالمجموعة الثانية -الأدنى- ويحتمل أنها تعود إلى ذات العهد، أي القرن الثاني الهجري.

٣- شاهدة قبر: وجدها لتمان ١٩٠٠م بين الضرائح والقلعة مضمونها ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد بن عيسى



البارا: قلعة أبي سفيان

البارا: أقدم كتابة عربية ١٤٠هـ

١- AAES- ٤ - P.193-195 وهو لم يتمكن من قراءة الكتابة غير (خلد بعمارة) وتخميناً (ياسين) ونحن قرأنا الأول ونخالفه بكلمة ياسين

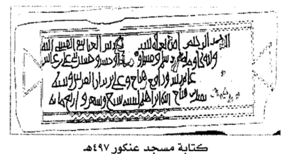
٢- ذكرت سالنامة ولاية حلب لسنة ١٣٢١ هـ ص ٨٨ وجود (صحابة وأهل بيت كرام عبد الرحمن بن أبو بكر (رضي الله عنه) إدلب قضا سنده) ويقع مزاره في البارة قرب شجرة قديمة في مدخل البلدة الحديثة، آزيلت معالمه. أما عبد الرحمن فقد توفي بمكة المكرمة.

رضي الله عنه مات يوم (الأحد) في (السابع) عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة))

٤- في الجزء الجنوبي: للبلدة مواجهة للشارع، وعلى جدار قديم كان في أصله معصرة خمر، توجد كتابة عربية منقورة بجانب كتابة لاتينية، على بعد بضعة أمتار شرقاً:

((١- بسم الله الرحمن الرحيم ٢-الملك لله وحده ٣-وكتب سلطان بن محمد [أو مؤيد - بركة] ٤- من سنة (إحدى) وستين وأربعمائة))[1]، وبجانبها كتابة أخرى ((محمد وعلى كلاهما أملى)) واعتبر (لتمان وبرشم) أن هذه الكتابة الأخيرة دلالة على استغاثة شائعة في العهد الفاطمي، أو مكتوبة من قبل أحد دعاة المذهب الإسماعيلي. ونحن نوافقهما الرأي لأن هذا المذهب انتشر في جبل الزاوية وسفحه الشمالي ومن جنوب إدلب إلى سرمين.

البارا - كتابة عربية٤٦١هـ



كتابة مسجد عنكور٤٩٧هـ

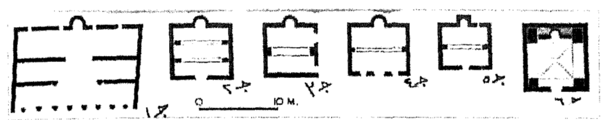
٥- وفي شمال الخراب: ليس بعيدا عن القلعة، في مدفن صخري يوجد عدة كتابات كوفية، منقورة بين فراغات المسننات، أي يوجد ثلاث مجموعات كتابية نسخها لتمان تاريخها سنة ٤١٠هـ.

٦- كتابة في مسجد: في محلة تدعى (خرابات عنكور)جنوب غرب حصن (قلعة) أبي سفيان، ورسم منشور للوحة كتابية في الجدار الشرقي من المسجد، مؤلفة من أربعة أسطر داخلية، بالكوفية البسيطة ((١-الحمد للرحمن أمر بعمله لله تدبير العالم العبد لله ٢- ولله الخادم له وسلم ومسلمو... وحسن وحسين بني علي بن عباس. ٣- عامر لله ورافع [ابن]هياج وعلي بن بدار العرش ولله ٤- يمتد إلى فتاح الله إبراهيم لسنة سبع وتسعين وأربعمئة)) وتشير كتابة المسجد إلى تاريخ بنائه ٤٩٧هـ/١١٠٣-١١٠٤م وهو التاريخ الذي يشير، إلى زمن استرداد ملك حلب (رضوان) للبارا من الفرنجة....كما أن هذه الكتابة تشير إلى وجود المذهب الشيعي في البارا، خاصة أن رضوان كان من أتباع المذهب الشيعي وهذه الكتابة تشبه كتابة جامع حاس الواقعة إلى الجنوب بـ ٨كم ويمكننا القول إن هذا الجامع يقع بين أحد الأحياء القديمة للمسلمين، هذا الحي الذي يضم مجموعة من المساجد الصغيرة.

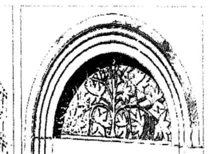
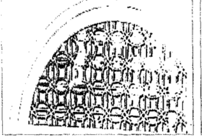
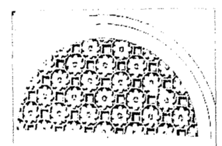
٧- المساجد الأثرية القديمة في البارا: هي ست مساجد (جوامع) قام بدراستها الباحث الأثري ج. تشالنكو[2]، وقام برسمها، وتقع ضمن حي خاص بالمسلمين، إذ كان أهل البارا القديمة من مذاهب عدة تتعايش بإخاء (مسلمون

١- PAES ، IVP 80

٢- VASN.V2.PL- CL ، V3.P115



البارا: مخطط المساجد الستة - عن تشالنكو

البارا: نقوش المسجد الأول - عن فوغويه ١٨٦٨م

ومسيحيون ويهود) وتاريخها يعود لعهد الجامع الكبير، الواقع بمركز البلدة القديمة والمؤشر عليه.

وتمتاز هذه المساجد بوجود منابر خاصة لإلقاء الخطب وتتوزع في مفارق الطرق. وفي المسجد الذي يحمل الرقم واحد في الجناح الثاني إلى اليسار نقش لغصن عنب مورق، ضمن قوس مدرج كسا كفة مدخل وكذلك أخرى لوريقات بثماني مسننات مضلعات بينها: الأولى ترمز برأينا لواقع المنطقة الاقتصادي، والثانية لمذهب الإسماعيلية، والثالثة للسماوات.

٨- شاهدة قبر مزخرفة تقع إلى الغرب من جامع عنكور، قد تكون سالمة حتى الآن؟ وإن ذهب قسم منها في السطر الأخير ... وهي كتابة كوفية مضمونها ((كل نفس ذائقة الموت بسم الله الرحمن الرحيم - توفي ذوابة بن الحسن رحمه الله سنة أر[بع] وعشرين وخمسمائة)) وتعتبر زخرفة هذه الشاهدة من الزخارف المحلية، والشائعة بالمنطقة. ويعود تاريخها إلى ما بعد استرداد البارا من قبل (بُلك بن بهرام) أمير حلب سنة ٥١٧هـ، بعد أن ظلت بيده زمناً قصيراً، ليأخذها الفرنجة. وتدل على بقاء المسلمين بالبارا رغم احتلالها من قبل الإفرنج، إلى أن استردها نور الدين زنكي عام ١١٤٨كما ذكرنا بمطلع البحث.

٩- كتابة قصيرة: موجودة فوق أحد الأبنية بثلاثة أسطر، وبالكوفية البسيطة، نقرت الأحرف فوق صليب، يشير وجوده إلى زمن كتابتها، بعد استرداد العرب للبارا من الفرنجة أي بعد الحروب الصليبية ((بسم الله [الرحمن الرحيم][وكسبه] أحمد))، ويقصد باسم أحمد هنا الرسول محمدﷺ على ما نرجح.



البارا شاهدة قبر مزخرفة ٥٢٤ هـ

خامساً- سرجلا:

بلدة أثرية هامة تقع إلى الشرق من البارا بـ ٤.٥ كم بقرب موقع النواويس الحجرية في الجانب الشمالي لبيت قديم له ثلاثة مداخل ومطل على باحة، حيث توجد كتابة على ساكفة الباب الأوسط في الجدار الجنوبي للبيت ((١- بسم الله ٢- نادى بن محمد)) وفيها مسجد ملاصق للكنيسة مساحته (٤ × ٥ م) ما زالت بقاياه قائمة، وعلى حامل نجفة الباب الغربي للمسجد كتابة (الله ومحمد)[٢].

ويعتبر هذا المسجد أحد المساجد القديمة في المحافظة، وقد يرقى تاريخه إلى القرن الأول الهجري؟! إذ اكتشفت فيه منذ عقدين ونصف فسيفساء عليها كتابة ورسم طاووسين ومزهريتين وبعد مدة سرقت؟! وقد ترقى إلى القرن الأول الهجري لأن خبراء المنطقة ما زالوا يمارسون فنهم المعماري والتزييني.

الخاتمة:

نخلص إلى القول إنّ الآثار العربية الإسلامية في جبل الزاوية ذات كثافة أكثر من المواقع الأخرى، بسبب توطن المسلمين بعد الفتح، خاصّة في القرنين الثالث والرابع الهجري، وازدهار المنطقة عمرانياً في العهدين الأيوبي والمملوكي، كما أنها كانت موئلاً لعلماء الحديث في القرن السادس الهجري، سواء في نحليّا أو ريحا.

ازدانت الأوابد الإسلامية بالزخارف والنقوش، خاصة شواهد القبور، ففيها تجلّت العبقريّة المبدعة والمجدّدة في الرسوم والخطوط.

وأخيرا دلّت الأوابد على التعايش الديني بين النُحل والمذاهب، إذ نجد الجامع يجاور الكنيسة، كما في البارا، وسرجلا، أو المساجد المتجاورة في البارا وغيرها، تأكيداً لروح التسامح الديني، في ظلّ حضارة عربيّة إسلاميّة زاهرة.❀

المصادر والمراجع

أ- العربية:

١- الحموي - ياقوت: معجم البلدان دمشق ١٩٨٣.

٢- ابن الشحنه: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب القاهرة ١٩٠٩.

٣- الطباخ - محمد راغب: سير إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ٧ أجزاء ١٣٤٢- ١٣٤٥ هـ.

٤- سالنامة ولاية حلب لعدة سنوات باللغة العثمانية.

٥- قوصرة - فايز: الرحالة في محافظة إدلب الأول ١٩٨٥ حلب والثاني ١٩٨٨. وكتابنا الأخير التاريخ الأثري للأوابد العربية الإسلامية في محافظة ادلب. طبع دمشق وزارة الثقافة ٢٠٠٧

٦- مجلة الحوليات الاثرية السورية مجلد ٦/ ١٩٥٦

٧- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٤ مجلدات - دمشق ١٩٨٣م - ط٣

ب- الأجنبية:

1- ThePrinceton University ، Archaeological Expedition to Syria in 1904 ٥ - and 1909. Division IV Semitic Inscription By Enno Littman.Leyeden 1949. And D.II by Butler

2- .Berchem - Van : Voyage en Syrie - Caire 1914

3- Vogué-M: Syrie centrale 2 vol-Paris 1865-1877

4- Chalenko - Goerge : Village Antique de la Syrie du Nord 3 val Paris 1953-58.

5- J .Sourdel - Thomine : Arabica 1- 1954

6- Gelebi -Euliya :Seyahat Niuvas - Istanbul 1928-30 باللغة العثمانية

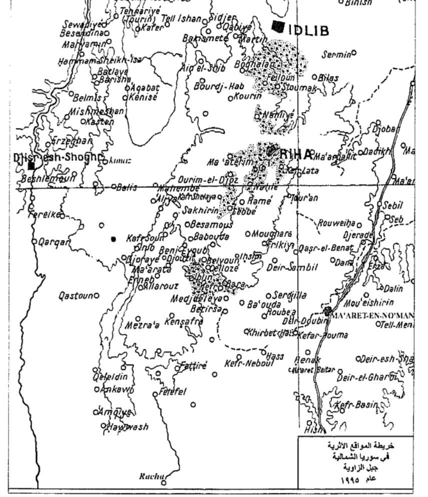
7- Syria-Revue: Art Orientale Et D. Archelogie-Paris1980.

بعض المواقع الأثرية

في جبل الزاوية

الأب باسكال كاستيلانا*

ترجمة: سمير حجار*



علاروز

ليس هناك موقع في سوريا الشمالية سبب مشاكل عديدة للدارسين من الناحية الطبوغرافية وناحية معرفة الاسم الجغرافي مثل موقع علاّروز. لقد تصدّى كل من الباحثين دوسو وغروسيه وكاهين واليسييف لإثبات فرضية أن علاّروز هي ذات الأسم روزا أو روجيا (Rusa - Rugia). وبرغم غنى الموقع عملياً فلا يوجد شيء محسوس. ولا نعتقد أن أحداً قد كشف عن الموقع ولا حتى البعثة الأثرية الأمريكية في بداية القرن الماضي عام ١٩٠٤. وقد اكتفت البعثة

---

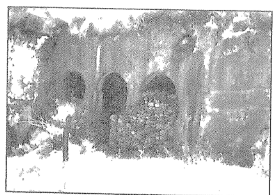
* باسكال كاستيلانا: باحث في قرى الهضبة الكلسية.

* مهندس ودليل سياحي

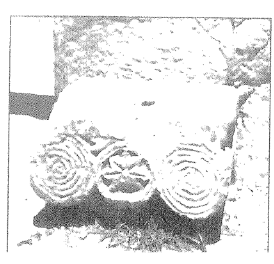
الأمريكية بذكر نتيجة الكشف الذي قام به ليتمان بالتنويه عن الموقع بوصفه كالتالي: «قرية في الجزء الغربي من جبل ريحا تحوي بعض المباني الأثرية[1]. كما ذكروا الآثار الموجودة على التل الشرقي للقرية بقولهم: «هنالك مبانٍ أثرية خربة وهي عملياً جزء من علاّروز في الجزء الغربي من جبل ريحا[2]» وهم يشيرون إليها باسم «القصر» كما كان السكان في المنطقة يسمونها، ولا زال سكان علاّروز يسمونها كذلك.

وكما اعتاد جميع الفلاحين في الريف السوري على تسمية كل موقع أثري معزول باسم ذي أهمية. لا نعرف لماذا سمّى الباحث تشالنكو هذه الآثار بحصون القرون الوسطى[3] في الوقت الذي لا تعود فيه هذه المباني إلى حصن ولم تستخدم لغرض الدفاع أو المراقبة العسكرية، إنها بكل بساطة أطلال لدير سرياني.

لقد زرنا علاّروز عدّة مرّات ولكننا لضيق الوقت لم نذهب أبداً إلى خرابات القصر، إلى أن سنحت لنا الفرصة في شهر كانون الأول عام ٢٠٠١، وكانت الغاية كتابة موضوع عن أجران المعمودية والذي سيصدر قريباً في الكتاب السنوي Liber Annus وكنا حتى ذلك الوقت ندعوها



الصورة (٢): مدخل أحد المدافن



الصورة (١): تاج عمود إيوني

«حصن» من القرون الوسطى. لقد وثقنا بما كتبه الباحثون السابقون عن جبل الزاوية. ونحن نعتذر إلى القرّاء ونصحح الخطأ في هذا البحث.

كان في علاّروز في الفترة البيزنطية كنيسة ودير وقد أشرنا إليهما الآن. ويمكننا أن نرى في الضاحية السكنية الحديثة، حيث يتفرع الدرب الذي يؤدي إلى خرائب الدير، بعض الأبواب القديمة القائمة أو الواقعة أسفل الجدران، كذلك عتبات ونجفات أبواب من الفترة الرومانية والتي يبدو أنها تخصّ أحد المباني العامة. كما نرى أيضاً تيجاناً (الصورة رقم ١)، تم وضعُها لأهداف تجميلية في زوايا الدور السكنية.

أما ما يتعلّق بالمدافن فقد دلّنا السكان على أحدها، وهو لا يحمل أية علامات خاصة. فهو له مدخل بثلاثة أقواس (الصورة رقم ٢)، يقع في نفس المستوى الحالي للبيوت في المنطقة الشرقية حيث نجد مستوى الأرض ينخفض بشكل كبير.

ولم نزر مدافن القرون الوسطى التي تحدّث عنها تشالنكو في المجلد الثالث من

كتابه صفحة ١١٣.

الكنيسة:

في زيارتنا الأخيرة لقرية علاّروز في ٥ كانون الأول عام ٢٠٠٢ سألنا بعض الأصدقاء عن مكان وجود جرن المعمودية المعروف لدى جميع السكان، فأجابتنا فوراً إحدى النساء الطاعنات بالسن أنها توجد في المكان المسمّى حتى الآن «الكنيسة».

من هذا نرى أن التقليد الشعبي حافظ حتى اليوم على ذكر وجود كنيسة في علاّروز.

ماذا تبقّى من هذه الكنيسة؟

ما تبقّى من الكنيسة قليل جداً: جرن معمودية وبعض الكتل الحجرية المربعة من العهد البيزنطي. وتحوي إحدى هذه الأحجار وهي جزء من باب على خطوط تزيينية مائلة تعود إلى القرن الخامس الميلادي. هذه الحجارة متوضعة بشكل مرتّب في باحة الدار والتي تحدّ من الجهة الغربية الأرض حيث يوجد جرن المعمودية. وحيث أن الخطوط التزيينية المائلة كانت ميزة لأبواب المباني المقدّسة التي تعود إلى القرنين الخامس والسادس في سوريا الشمالية وحيث ان الكتل الحجرية موجودة في موقع الكنيسة القديمة يمكننا أن نرجع هذه الحجارة أيضاً إلى مرحلة هذه الخطوط التزيينية المائلة أي إلى القرن الخامس.

جرن المعمودية على شكل الصليب:

لا زال جرن المعمودية (الصورة رقم٣) في وضعيته ذاتها وبمكانه الأصلي وهو عدا عن كونه نادراً في شكله فهو فريد من نوعه.



الصورة (٣): جرن المعمودية على شكل صليب في مكانه الأصلي

ربما بالمستقبل إن سنحت الفرصة وأمكن إجراء دراسة متعمقة في هذا المجال فمن الممكن الوصول إلى معلومات مهمة عن أجران المعمودية.

وقد لا يكون موقع جرن معمودية علاّروز مشابهاً لأجران المعمودية المعروفة في سوريا الشمالية أي مبنية في الجهة الشرقية القصوى للرواق ذي الأعمدة كما هو الحال في كرك بيزة ودارقيتا (البازليك الجنوبية) أو في الزاوية الجنوبية الغربية للكنيسة كما في خربة شرقية ودارقيتا (البازليك الشمالية)، بل هو إلى جانب الكنيسة كما هو الحال في دير صليب إلى الشرق من بلدة مصياف. فالجرن من الداخل يحوي أربع درجات، درجة في كل ذراع من الصليب. إن النزول إلى جرن معمودية دير صليب هو سهل لأنه أعلى بقليل من الأرضية بينما في علاّروز فهو مرتفع عن الأرضية القديمة ومن الصعب نسبياً النزول إليه.

الجرن هو من الحجر الكلسي الأبيض إكتسى مع الوقت طبقة بنيّة، يستند إلى قاعدة أبعادها (١,٧٠ × ١,٥٢م). ولا يزال يحتفظ بصليب نافر على واجهة الذراع

الشرقية ويوجد أعلى الصليب اكليل حفر عليه وجه شخص، وعلى واجهة الذراع الشمالية يوجد صليب بسيط بارز أيضاً، ونجد على واجهة الذراع الجنوبي إناء تخرج منه نبتة، بينما واجهة الذراع الغربي مكشوط بشكل كامل ولا تظهر عليها أي رسوم. وبما أنه لا يوجد أي إشارات نوعية أو كتابة فيمكننا أن نؤرخه إلى القرن الخامس بحسب الخط التزييني المائل لباب الكنيسة المفترض.

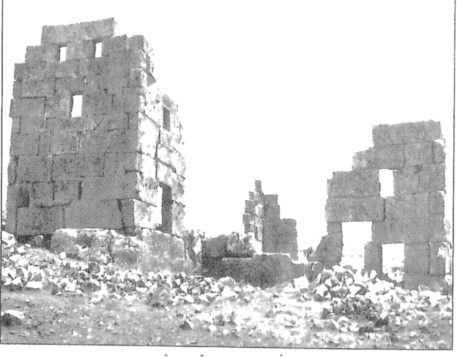
الدير: (الصورة رقم ٤)

إن الدير هو سرياني قديم مبني على تلّة صخرية وعلى مسافة لا تتجاوز الكيلومتر الواحد إلى الشرق من القرية. يظهر منه في الجزء الجنوبي أماكن إقامة الرهبان (في المخطط رقم١) وفي الجهة الشمالية له وظيفة مهنية لأعمال الحرف اليدوية (رقم٢). أما الجزء الأوسط فهو تحت الأرض محفور بالكامل في الصخر ويبدو أنه كنيسة جنائزية (رقم٣) وهي مليئة بالبحص والكتل الحجرية المربعة، وتحوي إحدى تلك الحجارة على خطوط زينة مائلة من التي تعود إلى القرن الخامس. ويبرز بين كومة البحص جذع عمود نرجّح أنه كان يسند مع أعمدة أخرى بلاطات حجرية لأرضية الطبقة العلوية. ويمكن رؤية ثلاثة قبور بشكل أقواس مزيّنة بخطوط على الجدران الشرقية، ويحمل القبر في الجهة الجنوبية الشرقية في وسط قوسه صليباً مالطياً مغلّفاً بشكل دائري بينما يبدو القبر في الجهة الجنوبية الغربية خرباً.

كانت المياه مؤمنّة للرهبان عن طريق صهريج محفور بالصخر إلى جانب مبنى الحرف اليدوية في الجهة الشمالية وهنالك مستودعان (رقم٤).

نجد قناة محفورة بالصخر جديرة بالاهتمام فهي بعرض ١٤سم وبعمق ٣٠-٤٠ سم كانت مياه الأمطار تمر بها وتنصب في جرن مربّع بأبعاد (٤٠×٤٠ سم) حيث يترسب فيها الخبث والطمي قبل نزولها إلى الصهريج.

يمكننا هنا أن نتساءل: أين كان الرهبان يصلّون؟ كنا نظن للوهلة الأولى أن المصلّى كان مبنياً في الكنيسة الجنائزية كما هو



الصورة (٤): المجمّع الرهباني الذي يُطلق عليه اسم "القصر"

الحال في دير قصر البنات بجوار دانا الجنوبية. بينما في زيارتنا الثانية تعرّفنا على البناء الموجود في الجهة القصوى من الكنيسة الجنائزية والتي بقي منها الواجهة الغربية بكامل عرضها، وجزء من الواجهة الشمالية. ولا زالت الواجهة الغربية تحتفظ بقاعدة العمود المزخرف بخطوط والتي لا تتواجد إلاّ في المباني الدينية: المسيحية والوثنية، ويمكن ملاحظة ذلك في الواجهة الغربية في كنيسة قصر إبليسو في الجهة الشمالية القصوى لجبل باريشا وفي بعض المعابد الوثنية(٤). ويمكننا أيضاً أن نلاحظ حجرين مزينين يخصّان نجفة الباب (رقم٥) بين الحجارة المرمية إلى جانب واجهة مصلّى الدير.

يُكمّل مجمع الدير معصرة صغيرة تقع على بعد حوالي ١٠ أمتار إلى الشمال الغربي من مبنى الحرف التقليدية، وأبعادها هي (١,٥ × ١,٧م) وهي معدّة لهرس العنب (رقم ٦)، وتشبه المعصرتين الموجودتين في كفير دارة عزة، إحداهما على بعد بضعة أمتار من الواجهة الجنوبية للبازليك والأخرى إلى الغرب من الدير(٥).

1-Locali residenziali . 2-Locali artigianali
3-Cappella funeraria . 4 -Cisterne e serbatoi.
5- O|atorio monastico . 6- Pressoio .

١- غرف الإقامة ٢- غرف الصناعات الحرفية ٣- كنيسة جنائزية.
٤- خزانات وصهاريج ٥- مصلّى الدير ٦- معصرة .
الأروز: الدير السرياني الذي يدعوه السكان "القصر"

إن موقع دير علاّروز هام، فهو معزول على تل يُشرف على الأرض المنخفضة إلى جهتي الجنوب والشرق. ونجد أن حجارة المبنى على شكل متوازي مستطيلات ومتداخلة فيما بينها بصورة جيدة، ونجد حجارة الطرفين الجانبيين للبناء بتداخلها على التوالي بشكل محدب ومقعر مما يعطي للسوقات المفردة مقاومة كما تعطي ثباتاً ومتانة للبناء بالكامل. ولم نلحظ أي رموز غير صليب محفور على نجفة النافذة التي تتواجد إلى جهة الجنوب وجهة المدفن المقوّس للكنيسة الجنائزية. ونجد أن المهندس المعمار استفاد من سوقة الجدار الداخلي للطابق العلوي إلى جانب الزاوية الجنوبية الغربية للقسم السكني بأن جهّز على الجدار الجنوبي قناة للمغاسل وأنابيب للصرف الصحي. هذه التجهيزات الصحية تعطينا صورة عن اهتمام الرهبان السريان بالناحية الصحية.

الدوير:

هي تسمية للمجمع السكني الذي يقع على التل في الجهة الشمالية الشرقية للقصر والذي يبعد عنه حوالي كيلو متر واحد. وهو مبني على سفح التل المنحدر بشكل تدريجي نحو الجنوب يدعوه الناس الدوير (أي الدير الصغير) وهو محاط بجدار شبه مربع طول كل جانب منه حوالي مئة متر ومبني بحجارة مضلعة غير مصقولة بسماكة ١,٢٥م. ويوجد داخل هذه الجدران مبنيان صغيران يفصل بينهما مساحة إنهار جزء منها للأسفل كاشفاً عن وجود ممرات تحت الأرض لم نستطع معرفة معالمها. ومن الخطوط الزخرفية التي تظهر في المبنى الصغير الغربي يمكن أن نرجعه إلى القرن الرابع.

راشا

كان الأباطرة الرومان يُعيدون ترسيم ولاية سوريا التي احتلها بومبيوس عام ٦٤ قبل الميلاد لإحكام السيطرة على الولاية. فبعد أن تخلّص الإمبراطور سبتيموس سيفيروس من منافسيه أوجد عام ١٩٦ للميلاد ولاية لبنان الفينيقية والولاية البحرية الفينيقية. وفيما بعد إقتطع الأمبراطور أركاديوس حالاً بعد موت أبيه تيودوسيوس عام ٣٩٥م ولاية جديدة من ولاية سورية الأولى التي عاصمتها أنطاكية هي سوريا الثانية وعاصمتها أفاميا. وهكذا أصبحت المدينة الصغيرة راشا تحت إدارة أفاميا في سوريا الثانية.

يدعو سكان المنطقة الموقع راشا القبلية لتمييزها عن الموقع المشابه وهو راشا الشمالية التي تبعد ٣ كم إلى الشمال، حيث توجد مجموعة مساكن حديثة البناء.



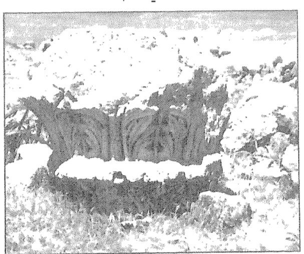
الصورة (٥): قطع أعمدة في الكنيسة

بالإضافة إلى ما يوجد فيها من بعض جدران الكنيسة مع ثلاثة أساسات مربعة وجذوع الأعمدة (الصورة رقم ٥)، وتاج كورنثي (الصورة رقم ٦)، فهي تقدّم للدارسين جزءاً من مبنى ملاصق للكنيسة ومدافن.

ونضيف إلى ذلك وجود نجفة لوحظت من قبل الباحث كانيفيه Canivet في السبعينات من القرن الماضي كمستند مادي أعيد استخدامها في بناء حديث لم نتمكن من رؤيتها بعد.

استعاد الموقع حيويته حوالي عام ١٩٦٠ بعد قرون من الإهمال عندما سكنته بعض عائلات من البدو الذين بنوا بيوتهم على مسافة قريبة من الكنيسة، وقد اغتنموا فرصة عدم وجود سجلات ومخططات عقارية فقاموا بامتلاك أراضي المنطقة وزرعوها بالكرمة والتين واللوز والزيتون.

لم يهتم الدارسون بآثار راشا لعدم توفر وسائل مواصلات وبعدها عن المراكز الكبيرة باستثناء الباحث كانيفيه. الذي زارها أثناء جولاته التي قام بها في منطقة



الصورة (٦): تاج عمود كورنثي من الكنيسة

حوّارته القريبة الواقعة على بعد حوالي ١٠ كم إلى الجنوب. وفي إحدى مقالاته التي ظهرت عام ١٩٨٣ يتحدّث عن وجود كنيسة في راشا القبلية تعود إلى القرن السادس دون أن يعطي أي تفسير يتعلق بتاريخ بنائها[٦].

الكنيسة:

زرنا الكنيسة ثلاث مرات في حزيران عام ٢٠٠١ و٢٠٠٢ و١٩ أيار عام ٢٠٠٣ وهي بطول ١٧,٥٥م مع الممر ذي الأعمدة في الجهة الغربية وعرض ١٣م. يقودنا الكورنيش المحفوظ بشكل جيّد للواجهة الشمالية إلى أن نرجع الكنيسة إلى القرن الخامس، ونستند بذلك إلى الخطوط الزخرفية لدعائم قوس النصر في الجزء الذي لا زال محافظاً عليه عند باب غرفة الذخائر(A)، وفي الباب الشمالي للكنيسة والباب الجنوبي للنارتكس (B)، وهذه الخطوط الزخرفية محفوظة جزئياً أيضاً عند عتبة الباب المواجه لغرفة الذخائر. إن كنيسة راشا تثير إعجاب الزائر بسبب الاستثناءات التالية: بناء مربّع الشكل، وجود غرفة ذخائر الشهداء، ووجود أعمدة وأقواس بين الواجهتين الشمالية والجنوبية وثلاثة أبواب في الواجهة الغربية.

ونلفت نظر القارئ أننا لم نرَ في سوريا الشمالية حتى الآن غرفة ذخائر للشهداء في أي كنيسة ذات بهو وحيد، فقد كانت الذخائر المقدسة تُحفظ قرب الجانب الجنوبي للهيكل في ذلك النمط من الكنائس. وما يثير اهتمام المهندس المعماري بشكل خاص نوع الحجر الكلسي الكتيم مع طبقة من الملاط في أجزاء المرحلة الأولى من البناء والحجر الكلسي

المسامي مع طبقة تكسية صفراء في أجزاء المرحلة الثانية.

كيف يمكننا شرح هذه الاستثناءات؟ يمكن شرحها بإعادة البناء المقدس إلى مرحلتي بناء. في المرحلة الأولى كانت الكنيسة صغيرة ذات شكل مربع والواجهتان الشمالية والجنوبية هما على مسافة متساوية من محورها الطولي وبدون وجود حنية كما هو الحال في كنيسة كرك بيزة وأشروق ومعرمايا، كذلك وجود بابين فقط في الواجهة الجنوبية. أما في المرحلة الثانية فقد تم بناء غرفة ذخائر الشهداء (A) والحنية والنارتكس (B) والأبواب الثلاثة في الواجهة الغربية وباب الواجهة الشمالية والتي لا تزال محفوظة جيّداً. وحيث أن القوانين الليتورجية لا تسمح بأن تكون غرفة ذخائر الشهداء خارج الكنيسة، فقد تم إزاحة الواجهة الجنوبية مسافة ٢,٤٢م إلى جهة الجنوب وتم بناء غرفة الذخائر إلى جنوب الحنية. فنتج عن ذلك ازدياد مساحة الكنيسة. ولتدعيم سقف الكنيسة تم بناء أقواس مدعمة بأعمدة.

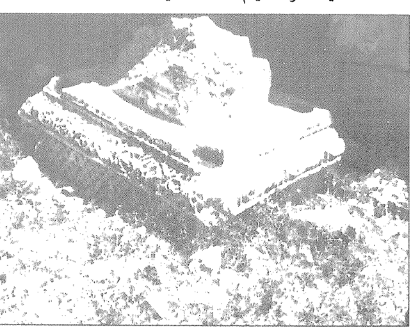
ما هي الفترات التي تم فيها بناء المرحلة الأولى والثانية؟ نعيد المرحلة الأولى إلى السنوات العشرة الأولى من بداية القرن الخامس، أما المرحلة الثانية فنعيدها إلى ٢٠ أو ٣٠ سنة بعد ذلك. أي عندما تلقى مجتمع راشا هدية ثمينة هي ذخائر أحد أو عدد من الشهداء المعروفين في المنطقة فاغتنموا الفرصة ليجعلوا تلك الكنيسة مركز حج.

بالنسبة للمرحلة الثانية هذه نرجعها إلى ما قبل منتصف القرن الخامس بالعودة إلى باب غرفة ذخائر الشهداء لأنه بعد هذا التاريخ تم استبدال أبواب غرف ذخائر الشهداء في الكنائس بمدخل ذي قوس أعرض. لقد قلنا سابقاً أن كنيسة راشا هي فريدة من نوعها في سوريا.

وهنالك كنيسة شبيهة بها في الأردن تقع[٧] على بعد ٣ كم إلى الجنوب من مركز مدينة عمان تدعى كنيسة القوايسمة. وهذه الكنيسة أيضاً تم توسيعها في الجانب الجنوبي وهي مزينة بأقواس مستندة على قواعد مربعة، وجد أربع منها في أماكنها الأصلية.

هل هو هيكل أم منبر ؟

نجد بقرب الزاوية الشمالية الشرقية للجدار الشمالي كتلة من المرمر (الصورة رقم ٧)، تتألف من قاعدة مستطيلة محفوظة جيداً وجذع عمود. ويبلغ طول القاعدة



الصورة (٧): قاعدة هيكل أو منبر

١.٠٥ م وعرضها ٠.٨ م محيطها مزيّن بأشكال الأزهار وتحمل زواياها أخاديد محفورة بشكل واضح لإنزال أعمدة رفيعة فيها.

وقد بدا لنا الجذع متلفاً بشكل كبير وبالكاد يعلو ٢٠ سم.

ما هي وظيفتها؟ من الزينة على القاعدة والأخاديد في الزوايا الأربعة تفترض كونها مظلة هيكل، ولكن أبعادها صغيرة جداً لهذا النوع من الاستعمال. وهكذا لم يبق لنا سوى افتراض أن تكون منصّة قراءة أو عرشاً للإنجيل شبيهاً بالموجود في دير الصليب قرب مصياف في المنطقة الأفامية وفي باعودة في جبل باريشا[٨].

هل يوجد مقاعد حجرية في راشا؟

يشير كانيفيه مرتين إلى وجود مقاعد حجرية حول الحنية في كنيسة راشا[٩]. وتدل هذه الكلمة على مقاعد من الحجر على امتداد الحنية حيث كان يجلس الاكليروس الذي يشارك الأسقف أو الرهبان بالاحتفال حيث يتحلقون حول رئيس الدير في احتفالات أيام الآحاد والأعياد. لقد لاحظنا وجود المقاعد الحجرية عند الجناح الشرقي للكنيسة المصلبة في قلعة سمعان وفي كاتدرائية الصليب المقدس في أفاميا وفي كنيسة الشهادة التي بناها الامبراطور أناسطاسيوس في الرصافة.

ولكن وجوده في راشا يبدو لنا مستحيلاً لأنه عادة في القرى، كما هو الحال في كل القرى في سوريا، كان عدد الإكليروس يقتصر على كاهن واحد يقوم بالوظائف الطقسية حتى هذه الأيام ويساعده مرتل واحد. فالكتل الحجرية القليلة التي نراها تخص سوقة الأحجار الأولى حول الحنية وهذه أخفض كثيراً من أن تكون مقاعد جلوس حجرية.

غرفة ذخائر الشهداء: (الصورة رقم ٨)

تبدو غرفة ذخائر الشهداء بثلاث فتحات واحدة أسفل كل من الجدارين الشمالي والجنوبي وواحدة كبيرة جداً على الجدار الشرقي.

ورغم البحث لم نجد أثراً لقطع من أجران ذخائر الشهداء. فربما كان هناك قطعتان مشمولتان في سوقات الجدارين الشمالي والجنوبي، كما هو الحال في أجران ذخائر الشهداء في كاتدرائيات بطير Betir في جبل الأعلى وخربة شيخ بركات في جبل حلقة وفي الكنائس الصغيرة في كفرلاب في جبل



الصورة (٨): غرفة ذخائر الشهداء

سمعــان وقصــر البنــات قــرب بنقوســا في جبــل باريشــا وتبلــغ أبعــاد غرفــة ذخــائر الشــهداء مــن الداخــل ٣,٥٥ × ٢,٤٥م.

الباحة:

كان للكنيسة باحة في الجهة الجنوبية بطول ٢٦,٤٥م بالاتجاه شرق-غرب و١٦,٨م بالاتجــاه شمــال-جنــوب. وهنــالك مبــنى في الزاويــة الشــمالية الشــرقية ربمــا اســتخدم فندقاً للحجاج الذين يأتون إلى راشا لتكريم ذخــائر الشــهداء. إن موقــع وشــكل المبــنى يشبه الفندق المبني إلى جانب غرفة ذخائر الشــهداء للبــازليك الجنوبيــة في فسّــوق في الجبل الوسطاني. وهنالك تاج كورنثي بحالة سيئة بالقرب من باب النارتكس.

كمــا يوجــد بقايــا مدفــن حجــري علــى بعــد ٨,٥ م مــن الواجهــة الجنوبيــة. كذلــك نجد على خرائب السور المحيط بقايا أربعة مداخل للباحة.

شكّ!

هل مــن الممكــن أن تكــون كنيســة راشــا هي من طراز البازليك التي تتألف من ثلاثة أبهاء بدلاً من أن تكون كنيسة (شابيل) ببهو وحيد؟ لا نميــل إلى هــذا الاحتمــال بــل علــى عكــس ذلــك سنشــرح مــا يــبرر عــدم كونهــا بــازليك، وهــو عــدم وجــود غرفــة خدمــة (ديــاكونيكون). ففــي ســوريا لا يوجــد أي كنيسة من طراز بازليك لا تحتوي على غرفة خدمــة، لذلــك نســتبعد وجــود كنيســة مــن نمط بازليك في راشا.

كذلك نرى أن الجدار الشمالي الغربي والشــرقي إلى جــانب الحنيــة لا يحويــان في تركيبهما لا من الداخل ولا مــن الخــارج أي انقطــاع يجعلنــا نعتقــد باحتمــال إلغــاء غرفــة الخدمــة، وحتــى في حــال وجودهــا فمــا هــي المصلحة من إلغائها؟

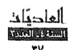
المدافن:

إن نــوع المدافــن الموجــودة في راشــا تــدل علــى مســتوى معيشــي عــالٍ للســكان فيــها، فــهنالك أشــخاص نشــطون فكّــروا بتأمين دفن لموتاهم يخلّد ذكرهم. فقد كان فيها أربعة مدافن: واحد في الشمال الغربي ويحــوي ثلاثــة قبــور مــن الطــراز المحفــور بــالصخر علــى شــكل قــوس ويبعــد ٢٠٠م عــن الكنيسة على سفح تل صغير.

والمدافن الثلاثة الأخرى تبعد ٢٠٠م إلى الجنــوب الغــربي. بــين المدافــن الثلاثــة الأخــيرة نجــد أحدهــا يحــوي دعــامتين في قــاعدة القــوس عنــد المدخــل وعليــه زخــارف هندسية. كما نجد أحد المدافن يحوي باباً لا زال في موقعــه (الصــورة رقــم ٩)، وهــو مزخرف بصلبان وورود ✠

الهوامش:

1- Robert Garrett . Topography and Itinerary . p.107.
2- Ibidem . p.116.
3- Villages Antiques, T.II, Pl.CLIV e CLV; T.III, p.113.
4- cf. Butler H.C., Ancient Architecture in Syria, in PAES . Div. II, Sec.B, Part 4 p.207; Mattern J.. Villes mortes . p.76; Pe'a I.-Castellana P.-Fernandez R .. Invent. J . B . p.186..
5- Castellana P " .. Ricerche archeologiche nella Siria del nord " SOC collectanea 35-36 (2002-2003), pp.105-110.
6- Cf.Canivet P., " Villages et sanctuaires chrétiens d' Apaméne: Huarte (IVe-Ves.)," in Annales Archéologiques Arabes Syriennes, XXXIII 1983, . 249-255
7- Piccirillo M .. The Mosaics of Jordan, p.266-267
8- Mattern J .. Villes mortes, de Haute Syrie . p.153 e Pl. LVIII; Tchalenko G., Blaccache E .. Eglise de Village de la Syrie du Nord . Planches : Pl.187:313,314. ; Album: p.68:190 . Tchalenko G .. Eglises Syriennes à Béma, Texte : p.129,292.
9- Canivet . Hūarte, p 124,.316.



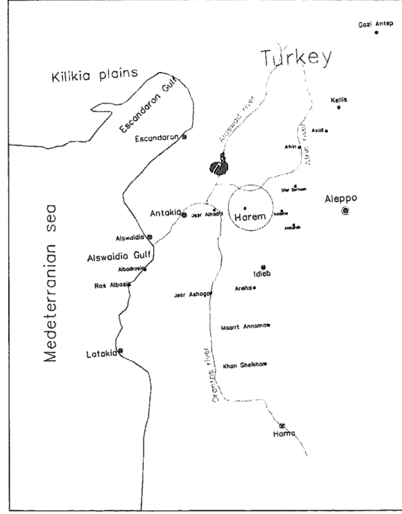
حارِم

دراسة تاريخية وأثرية

يوسف القنايطي*

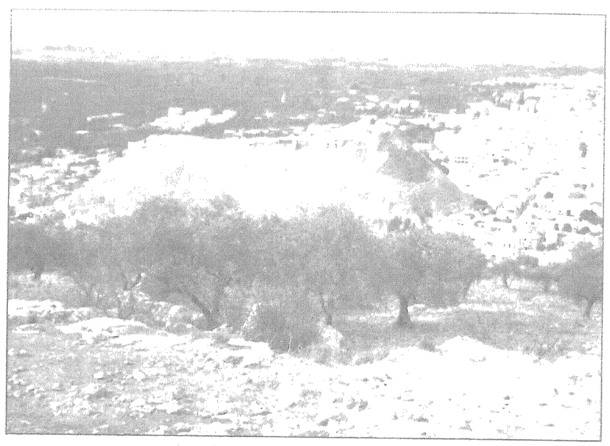
الموقع:

تعد محافظة إدلب من المحافظات الغنية بمواقعها الأثرية وأوابدها الأثرية المتميزة التي شهدت استيطاناً بشرياً مبكراً، بدءاً من عصور ماقبل التاريخ وانتهاءً بالعصور الإسلامية، وتتميز مدينة حارم بقلعتها الإسلامية التي تمركزت في موقع استراتيجي يشرف على سهول العمق الخصبة، ويتحكم بالطريق الواصلة بين أنطاكية وحلب، ويسيطر على المعبر الرئيسي الوحيد على نهر العاصي عند قرية جسر الحديد التي تبعد حوالي/٢٠كم/ إلى الشمال الغربي من حارم، التي تبعد بدورها عن أنطاكية /٤٢كم/، وبذلك تشرف على الطريق المتفرع عن



الشكل(١): خريطة توضح موقع حارم بالنسبة إلى حلب وحدود لواء اسكندرون

* مهندس معماري - مديرية آثار ومتاحف حلب.



الشكل(٢): منظر عام للقلعة والمنطقة المحيطة (سهل العمق) مع الأحياء الشرقية من المدينة

جسر الحديد باتجاه الجنوب إلى جسر الشغور ومناطق حوض العاصي، أما الطريق الجديد الذي يصل بين حلب وأنطاكية فيبعد حوالي/٥كم/ شمالا عنها وذلك بشكل مباشر عبر سهول العمق لكن حارم تبدو كنقطة علام عند حافة الممر بين هذين المركزين [١]. الشكل (١)

يتميز عمران المدينة في الوقت الحاضر بنسيج سكني تقليدي امتد على السفوح الغربية للهضبة الصخرية الواقعة شرق القلعة، والذي لازال محتفظا في كثير من أجزائه على الشوارع الضيقة والأزقة المبلطة بالحجر التي تخللها في بعض الأحيان سوباط[٢]، وقد غطيت أسقف بعض البيوت القديمة بالآجر الأحمر، وأكتست واجهاتها بألوان مزركشة بالأبيض والأزرق، لتظهر ضمن النسيج العمراني العام كلوحة من الموزاييك الذي تتناوب فيه الألوان مع خضرة الأشجار والنباتات، التي تملأ فناءات البيوت التي تطل على سهول خضراء على امتداد النظر يتخللها مجاري الأنهار والعيون والبحيرات الصغيرة لتجتمع كل هذه العناصر ضمن إيقاع فني رائع لمنظر خلوي رومنطيقي فريد قل نظيره، يجمع بين عبق التاريخ وأناقة العمران وسحر الطبيعة. الشكل (٢)

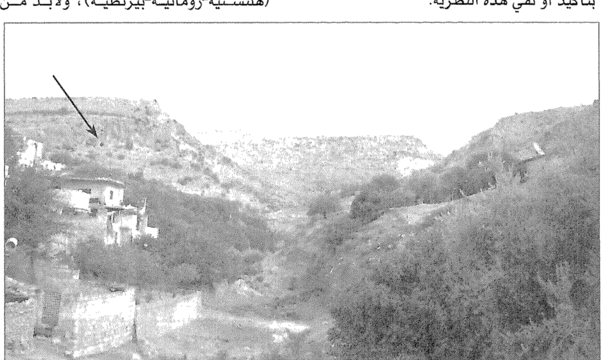
لقد مر بحارم وزارها العديد من الرحالة والمؤرخين، فقد قال عنها (ابن شداد): (تشتمل حارم على قرى وبساتين فيها عيون وطواحين، وتسمى دمشق الصغرى لكثرة ما فيها من فواكه).[٣]

دراسة تاريخية:

تعد منطقة حارم -بجبالها ووفرة مياهها وخصوبة أرضها- موقعا مثاليا للاستيطان البشري لكن الدراسات الأثرية مازالت قاصرة حتى اليوم في تحديد فترات الاستيطان منذ عصور ما قبل التاريخ إلى اليوم بشكل علمي ومنهجي دقيق، ويمكن أن نشير إلى وجود عدد من الكهوف والمغاور ضمن منطقة (الحبيس)[٤] الواقعة على بعد نظري حوالي/١كم/ إلى الجنوب الشرقي من القلعة، حيث تطل هذه الكهوف على واد تجري مياهه خلال موسمي الشتاء والربيع، وتتشابه هذه الكهوف مع كهوف منطقة يبرود التي احتضنت استيطان بشري من العصر الحجري القديم (Paleolithic)، ولذلك يمكن أن نخمن وجود استيطان قديم في منطقة الحبيس، لكن أعمال المسح الأثري والدراسات الميدانية هي الوحيدة الكفيلة بتأكيد أو نفي هذه النظرية.

وتعتبر منطقة حارم مقاطعة واقعة تحت نفوذ مملكة آلالاخ التي كشف عن موقعها في (تل العطشانة)[٥]، ولسوء الحظ فإن المعلومات الواردة عن المنطقة في فترات عصور البرونز والحديد قليلة جدا، إلا أن هناك بعض الدلائل البسيطة -التي أشارت إليها الكسر الفخارية وشظايا الأدوات الصوانية- إلى وجود استيطان بشري يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، كما أشارت بعض الكسر الفخارية في القلعة لفترات استيطانية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد أي فترات السيطرة الإخمينية على شمال بلاد الشام.[٦]

أما في العصور الكلاسيكية فهناك معطيات أثرية أفرزتها بعض المدافن المتفرقة والمنهوبة ضمن أراضي وبساتين وكروم واقعة شمال حارم عند المنطقة الحدودية، وتشير النظرة الأولية لهذه المدافن أنها تؤرخ إلى فترات زمنية متعاقبة (هلنستية-رومانية-بيزنطية)، ولابد من



الشكل(٣): منظر عام لمنطقة الحبيس (الكهوف) والمنطقة المحيطة بها



الشكل(٤): طورلاها – الواجهة الشرقية للكنيسة الجنوبية

الدير ودار للضيافة (Andron) ونزل صغير. الشكل (٥)

النورية: وهي مجمع كبير يحتوي على بقايا لكنيسة مستطيلة الشكل ذات حنية نصف دائرية(Apse)، بالإضافة إلى دار الضيافة (Andron) وعدد من الفيلات وورش تصنيع النبيذ التي ألحقت بها مستودعات ضخمة منحوتة بالصخر. الشكل(٦).

أما المواقع المسيحية في مدينة حارم نفسها، فهي منتشرة ضمن قطاعات ثلاث:

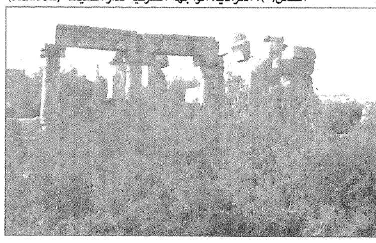
القطاع الأول: يقع شمال المدينة عند الشريط الحدودي، ولا زال يحتفظ بتسميته القديمة إلى اليوم (دير الرهبان)، ولا تزال بقايا معاصر الزيتون والنبيذ واضحة للعيان في أحد كروم الزيتون في هذه المنطقة، والتي أدرجت ضمن نطاق البحث الأثري والتاريخي من قبل البعثة الأثرية الوطنية في حارم.[٧]

التركيز على الحقبة البيزنطية (فترات القرنين ٥-٦م) كون المنطقة شهدت انتشار عدد كبير من الكنائس والأديرة التي تعود بغالبيتها للطوائف المسيحية السريانية والأرمنية التي سكنت في مناطق حارم بكثافة في تلك الحقبة، ولازالت آثار العديد من تلك المواقع قائمة حتى اليوم في الجبال المحيطة بحارم من الجهة الشرقية حيث نذكر بعضا منها:

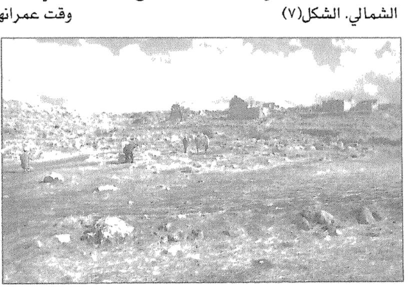
طورلاها: وهي تسمية سريانية تعني(جبل الإله)، تحوي بقايا لدير وكنيسة وعدد من الفيلات والمزارع تؤرخ إلى فترات القرنين (٥-٦م). الشكل (٤)

معرمايا: وهي أيضاً تسمية سريانية تعني (بلدة الينابيع)، يكتسب هذا الموقع أهمية كبيرة، ويشتمل على مجموعة من الخرائب لعدد من الكنائس والفيلات بالإضافة إلى مبنى

الشكل(٥): معرمايا، الواجهة الشرقية لدار الضيافة (Andron)



القطاع الثاني: وهو المنطقة الواقعة جنوب القلعة حيث كروم الزيتون المنتشرة على هضبة صخرية تحوي في أعلاها على بقايا لدير كبير وكنيسة ذات مخطط بازيليكي (Basilica) تم تغطية أرضيتها بلوحة من الفسيفساء (الموزاييك Mosaic)، وألحق بهذا الدير مدافن للرهبان التي نحتت بالصخر على شكل نواويس موزعة على المحيط الداخلي لجدران المدفن، الذي يتم الدخول إليه عن طريق باب ينفتح في منتصف الضلع الشمالي. الشكل(٧)



الشكل(٦): النورية، منظر عام (الكنيسة ودار الضيافة والفيلات)

القطاع الثالث: وهو القلعة التي تحتوي بأبنيتها ومنشآتها على العديد من العناصر الإنشائية المزخرفة (تيجان - أعمدة - سواكف - عضادات..) تعود إلى القرن السادس الميلادي، ويشير التشابه الكبير بين هذه العناصر ومثيلاتها في مواقع الكنائس والأديرة -المنتشرة في المناطق المجاورة- إلى وجود مبنى ذو صبغة دينية في القلعة (كنيسة أو دير)، ويبقى تأكيد ذلك مرهوناً بنتائج التنقيبات الأثرية في مواسم الحفريات القادمة.

قلعة حارم:

قبل الخوض في تاريخ القلعة ومراحل بنائها، لابد من إلقاء الضوء على تسمية (حارم) التي أشارت المصادر التاريخية إلى وجود أقدم وثيقة ذكرت حارم باللغة السريانية الآرامية، والتي تعود إلى القرن السابع الميلادي باسم (حرم HRM) وتعني بالسريانية (الحرام) أو المنذور[٨]، وقد ذكر (ياقوت الحموي) في كتابه معجم البلدان أن): لفظة حارم إن كانت عربية فهي مشتقة من الحرمان لحصانتها في وقت عمرانها، وكأنها لحصانتها يحرم على العدو تدنيسها، وتكون حراماً لما فيها) وقال أيضاً: (حارم حصن حصين وكورة[٩] جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب، وفيها أشجار كثيرة ومياه)[١٠]، وقد أطلق عليها الفرنجة أيام الحروب الصليبية (Cast rum Harrench) أي حصن حارم.

لمحة تاريخية عن القلعة:

يذكر الشيخ (كامل الغزي) في كتابه نهر الذهب أن: (حارم كانت قبيل الفتح الإسلامي (صيرة) وهي الحظيرة التي تحوط بالمواشي، ودامت على ذلك في صدر الإسلام)[١١]، وقد فتحت القلعة في عام(١٧هجري/٦٣٧م) على يد أبو عبيد بن الجراح، الذي انطلق منها باتجاه انطاكية لفتحها، بعد أن ولى (معاوية بن أبي سفيان) على حارم سنة/٢١هجري/، واستمرت القلعة ضمن قلاع الثغور والعواصم حتى وفاة (سيف الدولة الحمداني)، إلا أن البيزنطيين استغلوا وفاة

سيف الدولة، فقام الامبراطور (نقفور فوكاس الثاني) بالاستيلاء على حصن حارم عام/٩٧٨م/ فزاد على عمارته وتحصيناته[١٢]، واستمرت بيد البيزنطيين إلى أن جاء السلاجقة الأتراك بقيادة (سليمان بن قتلمش) فحررها مع أنطاكية، وعهد بهما إلى الأمير (ياغي سيان).



الشكل(٧): حارم، القطاع الثاني الواقع جنوب القلعة (مدافن الرهبان)

بقيت القلعة بيد المسلمين إلى أن حاصرها الفرنج عام/١٠٩٨م/ بقيادة (تنكريد) الذي احتلها بعد حصار دام تسعة أشهر، وبقيت القلعة بيد الفرنج حوالي خمسين عاماً زادوا في تحصيناتها وعمارتها لتشكل خطاً دفاعياً عن أنطاكية.

وفي عام (٥٥٩ هجري/١١٦٤م) استطاع (نور الدين الزنكي) تحريرها وأقطعها لأخيه بالرضاعة (مجد الدين أبي بكر بن الداية) ووضع فيها منارتين تشتعلان طوال الليل لهداية أسرى المسلمين الفارين من أيدي الفرنج[١٣]، وبعد وفاة مجد الدين، تسلم القلعة أخوه (بدر الدين حسن بن محمد بن الداية) الذي بقيت معه حتى وفاة نور الدين الزنكي عام (٥٦٩هجري/١١٧٣م)، وقد خلفه ابنه(الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين) الذي أقطعها لمدبر دولته(سعد الدين كمشتكين)[١٤]، إلا أن كمشتكين تمرد على الملك الصالح وأراد تسليم القلعة للفرنجة مقابل مال وفير بعد أن أطلق سراح أسراهم من زمن نور الدين، لكن الملك الصالح استطاع دخول القلعة وقتل سعد الدين كمشتكين عام/٥٧٣هجري/ وولى عليها غلام لأبيه يدعى(سرخك) الذي استمرت في يده بعد وفاة الملك الصالح.

وبعد أن وصل (صلاح الدين الأيوبي) حلب في عام(٥٧٩هجري/١١٨٣م) طلب حارم من سرخك مقابل إقطاع كبير، إلا أن الأخير رفض ذلك محاولاً الاستعانة بالفرنجة لصد زحف صلاح الدين، إلا أن مجموعة من قادة الجند في القلعة قبضوا على سرخك وأرسلوا لصلاح الدين وسلموه القلعة حيث ولى عليها (إبراهيم شروة).[١٥]

وفي زمن حكم (الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين) عام/٥٨٩ هجري/ أقطعها لمملوك اسمه (الأسد أقطفان) حكمها حتى وفاة الظاهر غازي عام/٦١٣هجري/.

لقد شهدت القلعة اهتماماً خاصاً زمن الأيوبيين، فقد اهتم بها صلاح الدين سياسياً وإدارياً، بينما اهتم بها الظاهر غازي عمارة وتحصيناً، حيث اتخذت القلعة في زمنه شكل الحصن الإسلامي الأيوبي الذي نراه اليوم، فقد أعاد الملك الظاهر غازي تحصين الأسوار وبنى

بـرج المدخـل وأضـاف إليـها العديـد مـن الأبـراج والأبنيـة داخل القلعة والمستودعات والصهاريج...

وبعد وفاة الملك الظاهر تولى السلطة ابنه(الملك العزيز محمد بن غازي)، الذي ولى حـارم لمملـوك اسمـه(القرعـوني) بقـي فيها حتى وفاته.

ولابد أن ننوه إلى أن حارم - إلى جانب كونها حصنا أيوبيا منيعا- قد شكلت متنزها ومنتجعا للسـلاطين الأيوبيـين خاصة الملك الظـاهر غـازي وابنـه العزيـز محمـد الـذي ابتنى لنفسه جوسقا (متنزها) تحته نهر جار وبستان، وكان يخـرج منـه للعب الصولجـان ورمي البندق[١٦].

ولم تلق القلعة اهتماما يذكر في العهد المملوكـــي، وقـــد دمرهـــا هولاكـــو عام(٦٥٨هجري/١٢٦٠م) وقام بقتل سكانها وتدميرها وحرق مزروعاتها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه (الظاهر بيبرس) يقود معركة (عين جالوت) التي انتصر فيها على المغـول انتصـارا حاسمـا، وآلـت حـارم إلى حكـم السـلطان المملوكـي (قـلاوون) عـام(٦٨٢هجـري/١٢٨٣م) بموجـب الهدنـة التي وقعها مع فرنج عكا[١٧].

بيـد أن القلعـة تعرضـت للتدمـير مـرة أخرى على يد التتر بقيادة (تيمورلنك) سنة (٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م)، بعد ذلك أهملت زمـن العثمانيين منذ القرن (١٦م)، وقد مرت بها جيوش(إبراهيم باشا) عام/١٨٣٢م/، وفي العصـر الحديـث تحصنـت فيـها قـوات الاحتـلال الفرنسـي أثنـاء الثـورات اتسـورية الـتي كـانت علـى أشـدها في منطقـة حـارم بزعامة المجاهد(إبراهيم هنانو).[١٨]

الوصف المعماري للقلعة:

تبدو القلعة بمظهرها الحالي أنموذجا رائعـا لعمـارة التحصينـات الإسـلامية الـتي شاعت في فترات القـرون الوسـطى، ويعـبر طرازهـا المعمـاري العسـكري عـن الأسـلوب التحصيني المميز الذي اتبعه الأيوبيون في تشـييد قلاعـهم وحصونهـم، وهـذا مـاأكده العالم الأثري (فان برشيم Van Berchem) في كتابه (رحلة في الشام) حيث قال: (قلعة حـارم عربيـة البنـاء، مـن طـراز الهندسـة العسكرية السائدة في عهد الأيوبيين، ويدل علـى ذلـك انتظـام شـكل باحتـها، ورصـف منحدراتهـا بـالبلاط بشـكل مشـابه لقـلاع حمص وحماه وشيزر وحلب والمضيق....

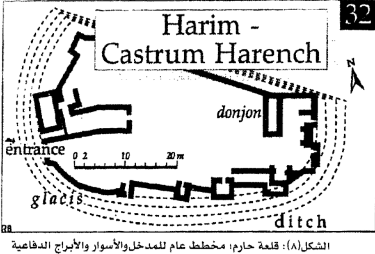
وإن تخطيـط سـور القلعـة علـى شـكل نصف دائـرة جعلـه مشـابها لقلعة بصـرى في عهد الأيوبيـين - الـتي بنيـت حـول المسـرح الرومـاني- وشـكلها العـام جعلـها تشـبه قلعـة المضيق، أما مدخلها المنكسر فإنه يتشابه مـع قلعـة حلـب، ولا يوجـد هنـاك أقـل أثـر لهندسـة الصليبيـين العسـكرية، حيـث لم يمكثوا فيها أكثر من خمسين عاما)[١٩].

تتمركـز القلعـة فـوق تـل طبيعـي اصطنـاعي بأبعـاد/٢٥٠×١٨٠م/ ارتفاعـه /٤٥م/ بمسـاحة تقريبيـة حـوالي /١٨٠٢٥٠م٢/، وتتخـذ كتلـة القلعـة شـكل جـذع مخروطـي دوراني يتجـه محـوره الطـولي(شـرق-غـرب) أمـا المحـور العرضـي (شمـل-جنـوب)، ويحيـط بهـا خنـدق عميـق منحـوت بـالصخر الطبيعـي، في زاويتـه الشـمالية الشـرقية - علـى ارتفـاع /٢٠م/- نقش كتابي عربي من سطرين كتب فيه: - الملك الظاهر... الملك الشجاع المتحدي

ويلـي الخنـدق منحـدر صخـري (Glacy) تمـت تغطيتـه ببـلاط حجـري

مصقول يحيط بالقلعة بشكل كامل. (الشكل(٨))

يتخذ الضلع الشمالي من القلعة شكلاً مستقيماً توزعت على طوله الأبراج المستطيلة والمربعة بشكل منتظم، حيث زودت هذه الأبراج بمرامي السهام (Arrow slits) بعدة مستويات ومن كافة الجهات، أما الضلع الجنوبي فقد اتخذ شكل نصف دائري توزعت الأبراج على محيطه بشكل شعاعي، ويلاحظ في الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة تمركز برج ضخم يسمى (القليعة)



الشكل(٨): قلعة حارم: مخطط عام للمدخل والأسوار والأبراج الدفاعية (Monuments of Syria)

يشكل نقطة علام فيها، تظهر فيه كثافة في عدد مرامي السهام في مستوياته الثلاثة، بالإضافة إلى ارتفاعه عن مستوى الأبراج الأخرى، ومرد هذا الإجراء إلى تأمين خط دفاعي قوي في هذه النقطة بالذات من القلعة كونها نقطة ضعف نتيجة ارتفاع مستوى الكتلة الصخرية عند حافة الخندق، مما يؤمن منطقة ملائمة للعدو لقصف القلعة بالمجانيق، أي أن هذا البرج ذو وظيفة مزدوجة (دفاع ومراقبة).

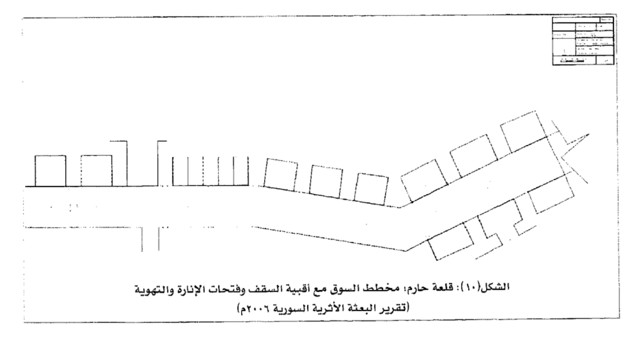
يقع مدخل القلعة ضمن كتلة برج المدخل في الزاوية الجنوبية الغربية (الشكل(٩))، وإلى

Syrian archaeological mission in Harem		Season 2006
Entrance tower	Sector : A	Level : o
Sketch plan	Drawn by : Y.Aldabte Y.Dalati	
	Checked by : Field director Architect : Yousef Aldabte	
	Director of the mission Haitham Hassan	
		Scale

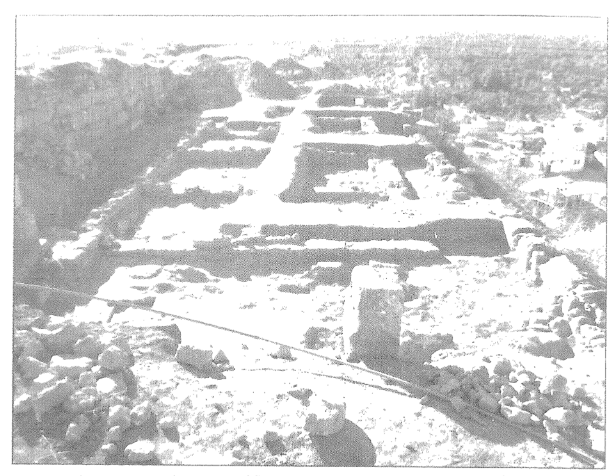
الشكل(٩): قلعة حارم - مخطط برج المدخل مع الباشورة (تقرير البعثة الأثرية السورية ٢٠٠٦م)

الجنوب من برج المدخل هناك بقايا لبرج دائري الشكل، وتنحصر ردهة المدخل الضيقة بين برجين ناتئين (Projecting towers)، وتنفتح البوابة ضمن كتلة البرج الشمالي منهما، حيث تؤدي إلى مدخل منكسر (الباشورة Leaned Entrance)، وهي تتشابه بهذا مع قلعتي حلب ونجم، وتتفرع محاور الحركة ضمن القلعة عبر هذا المدخل ليؤدي المحور الأول إلى الخط الدفاعي الجنوبي المؤلف من ممر مسقوف بعقود (Gallery) يربط بين الأبراج الدفاعية من جهة ومستودعات المؤونة والسلاح من جهة أخرى، ويتجه المحور الثاني باتجاه الخط الدفاعي الغربي المشابه للخط الجنوبي، أما المحور الثالث المباشر فيؤدي إلى السوق التجاري الذي يضم ١٢/محلاً (الشكل(١٠)) توزعت على ضلعين (شمالي وجنوبي)، وألحق بالسوق العديد من المستودعات والغرف لتخزين البضائع، وقد تم تسقيف السوق بعقود متصالبة تخللها فتحات دائرية ومربع للإنارة والتهوية، وفي منتصف الضلع الشمالي للسوق توضع حمام للعموم، ذو مخطط أيوبي[٢٠]، وينتهي السوق بأقسام سكنية بنيت وسط القلعة، وقد أحيطت بسور دفاعي داخلي من الفترة الأيوبية، ويمكن القول أن هذا السور مبني على أنقاض سور الحصن البيزنطي الداخلي (Cast rum).

أما القسم الشرقي من القلعة فقد احتوى على قصر الإمارة المؤلف من عدة قاعات وغرف، وهناك بقايا لأرضيات رخامية في القصر الذي احتوى على حمام خاص مؤلف من حجرتين تم تسقيفهما بقباب إهليلجية الشكل، وبجانب مدخل الحمام توضع درج حجري يؤدي إلى غرف وقاعات في مستوى الطابق الأول، ولا تزال بقايا أحد إيواناتها قائمة إلى اليوم، وتتميز القلعة باحتوائها على بئر ماء في وسطها بنيت جدرانه العلوية بالحجارة الكلسية المنحوتة، أما الأجزاء السفلية من الجدران فقد نحتت بالصخر الطبيعي،



الشكل(١٠): قلعة حارم: مخطط السوق مع أقبية السقف وفتحات الإنارة والتهوية
(تقرير البعثة الأثرية السورية ٢٠٠٦م)



الشكل(١١): قلعة حارم: المبنى السكني العثماني في القطاع B (تقرير البعثة الأثرية السورية ٢٠٠٦م)

ويتم النزول إلى البئر بواسطة درج حجري مؤلف من /١٥٠درجة/ تؤدي إلى نبعة المياه القائمة في أسفل منحدر القلعة الشمالي والتي تسمى(عين القلعة).

إن دراسة قلعة حارم تعطي فكرة واضحة وشاملة عن القلاع والحصون الأيوبية في شمال سورية، كما أنها تبرهن على استراتيجيات التحصين الدفاعي وأسلوب العمارة العسكرية الأيوبية التي حققت الملاءمة والمواءمة بين الشكل والوظيفة.

ولابد أن نشير بأن أبنية القلعة ومنشآتها قد توزعت على عدة مستويات وطوابق، ولازال الكثير منها مغطى ومدفون تحت ركام الأبنية التي دمرتها الحروب والزلازل، وهذه المنشآت بمجملها مع العديد من الممرات السرية في المستويات السفلية بحاجة إلى الكشف والدراسة والتوثيق، وهذا مايتضمنه برنامج عمل البعثة الأثرية الوطنية في قلعة حارم ضمن برنامجها في المدى القريب.

التنقيبات الأثرية في قلعة حارم

قامت البعثة الأثرية السورية الإيطالية المشتركة[٢١] بإجراء عدة مواسم للتنقيب الأثري في القلعة بدءاً من عام ١٩٩٩م واستمرت حتى عام ٢٠٠٣م، وكان الهدف من هذه الأعمال إنجاز مخططات توثيقية للقلعة والتعرف على السويات الاستيطانية والمراحل الزمنية التي مرت عليها، من خلال بعض الأسبار المتفرقة

التي كشفت عن استيطان مبكرة تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد (٥٣٠-٣٣٠ق.م) وهي فترات السيطرة الإخمينية على شمال بلاد الشام، وذلك اعتماداً على الكسر الفخارية المكتشفة.

وفي خريف ٢٠٠٦م استكملت البعثة الأثرية السورية أعمال التنقيب في الموقع بإدارة كل من: هيثم حسن، م. يوسف الضابطي. حيث استكملت أعمال التوثيق الهندسي في القلعة ضمن برنامج علمي منهجي يتضمن استكشاف كافة الأبنية والمنشآت، ودراسة عناصرها المعمارية وبنيتها الإنشائية وتأريخها بشكل دقيق وفق معطيات السويات الأثرية (Strategraphy)، وربطها مع اللقى والمواد المكتشفة ضمن هذه الطبقات.

لقد أسفرت حفريات الموسم الأول/٢٠٠٦م/ في القطاعB (الشكل (١١)) -القسم الوسطي من الضلع الشمالي للقلعة- عن اكتشاف بقايا مبنى سكني ضخم مؤلف من ثماني قاعات مربعة ومستطيلة تنفتح في بعض الأحيان على بعضها عبر أبواب منتظمة ومتناظرة في وسط الجدران المشتركة بينها، ويتم الدخول إلى هذه الغرف عبر أبواب ذات عتبات حجرية بعرض حوالي/٩٠سم/، وقد احتفظت بعض هذه الغرف بأرضياتها الكلسية القاسية المصقولة التي رمم بعضها أكثر من مرة، وقد ألحق بالغرف قسم خدمة (مطبخ) توضع في القسم الجنوبي الغربي من المبنى، ولازالت بقايا الزريقة الكلسية على الأقسام السفلية للجدران التي بلغت سماكتها حوالي/٥٠سم/، وقد أعيد استخدامها في فترة لاحقة بسماكة أقل حوالي/٤٠سم/، ويمكن أن نؤرخ فترات بناء هذا المبنى بين القرنين/١٨-١٩م/، وتدل تقنية إنشاء الجدران والأرضيات على أهمية هذا المبنى، ومن الممكن أنه مخصص لسكن حاكم المنطقة في الفترات العثمانية المتأخرة. (الشكل(١٢))

وكشفت الحفريات أيضاً في بهو المدخل الرئيسي (الباشورة) عن ثلاث سويات ومراحل لأرضية المدخل(أيوبية-مملوكية)، ولم يتم الوصول إلى مستوى الأرضية الأصلية، وفي سبر آخر في أحد المستودعات خلف السوق توضحت بقايا لجدار بيزنطي يعود إلى القرن العاشر الميلادي.

منطقة حارم وآفاق الاستثمار السياحي:

تعد منطقة حارم من المناطق الهامة جداً ضمن استراتيجيات الاستثمار السياحي في محافظة إدلب، نظراً لموقعها الجغرافي الهام بالقرب من المنفذ الحدودي(باب الهوى)، والذي يعد بوابة القطر إلى أوروبا عبر تركيا، وتعتبر حارم بما تحتويه من تنوع طبيعي متميز يجمع بين جمال السهول الخضراء الموشحة بمجاري الأنهار وجداول الينابيع التي تحكي قصص الأجداد الأولين وتغني أنشودة حضارة أزلية مازالت بأوابدها الأثرية المتناثرة في الجبال والسهول، وقد انتصبت بينها قلعة حارم الشامخة بعمارتها الرائعة كعلامة فارقة كإرث حضاري موغل في القدم.

إن هذه العوامل برمتها تجعل من منطقة حارم نقطة جذب سياحي قل نظيره تدعم بالوقت الحالي توجهات الحكومة في

الشكل(١٢): قلعة حارم: مخطط القسم الجنوبي من البيت العثماني المكتشف (تقرير البعثة الأثرية السورية ٢٠٠٦م)

مشروع السياحة الثقافية بالقطر.

لذلك نأمل من الجهات المعنية بهذا الموضوع توجيه الأنظار إلى هذه المنطقة، وإيلائها الاهتمام المطلوب لتشجيع السياحة بمختلف أنواعها ومستوياتها، وذلك من خلال النشرات السياحية والبرامج الإعلامية الترويجية، وإدراجها ضمن برامج السياحة الثقافية للمجموعات السياحية التي تزور القطر، لما في ذلك من مردود اقتصادي للمنطقة بشكل خاص وللقطر بشكل عام.

الهوامش

١. Burns، R: Syria Monuments، of -p130 Dummer publisher، Damascus، 1999 Syria

٢. السوباط: وهو تسقيف جزء من زقاق أو شارع بكتلة معمارية(غرفة-قاعة) لمبنى في مستوى الطابق الأول، حيث يرتكز على عقود حجرية أو أقبية مقنطرة في مستوى الطابق الأرضي، وهذا الأسلوب شائع جداً في تخطيط المدن العربية الاسلامية القديمة(حلب-دمشق-حماه-حمص........).

٣. ابن شداد - الأعلاق الخطيرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة، ص١٧- تحقيق دومينيك سورديل ١٩٥٣- وزارة الثقافة

٤. الحبيس: منطقة جبلية تحوي العديد من الكهوف والمغاور ضمن جرف صخري وعر، ومن الممكن أن الكلمة محرفة عن (الحبس) أي السجن، وقد ذكرت بعض الروايات أن هذه المغاور قد استخدمت فعلاً لهذا الغرض، ويذكر بعض الرجال المسنين في المنطقة أن مجموعة من المجاهدين في ثورة (إبراهيم هنانو) قد استخدموها كمركز سري لهم خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

٥. تل العطشانة: تل أثري قريب من حارم عند الحدود السورية التركية، يبتعد عنها شمالاً بمسافة حوالي /٧كم/، وهوموقع (مملكة آلالاخ) القديمة التي اكتشفها العالم الأثري (ليونارد Leonard) عام ١٩٣٧م والتي تعود إلى فترات عصور البرونز الوسيط (٢٢٠٠-١٤٠٠ق.م) وعاصمتها (موكيش)، وقد عاصرت هذه المملكة كلاً من مملكتي إيبلا ويمحاض(حلب) وكانت تربطهم جميعاً علاقات سياسية واقتصادية، وقد ذكرت بعض المصادر والمؤلفات الحديثة بأن ملك يمحاض (ياريم ليم) هو الذي بناها..

٦. Gelechi، Mazzoni ;S، ST- (The Orantes valley project and the excavation on Harim castle); report to DGAM 1998.

٧. تشكلت البعثة الأثرية السورية في قلعة حارم من الفريق التالي:
- أ. هيثم حسن (مديراً)
- م. يوسف الضابطي (مديراً ميدانياً)
- سليمان عليكو (عضواً)
- طلاب من قسم الآثار بكلية الآداب-جامعة حلب

٨. قوصرة، فايز- (حارم دمشق الصغرى) ص١٧- حلب ١٩٨٨م

٩. كورة: كلمة فارسية الأصل وتعني بالعربية (منطقة عسكرية)

١٠. الحموي، ياقوت- معجم البلدان، المجلد(٢) ص٢٠٥.

١١. الغزي، كامل - (نهر الذهب في تاريخ حلب) ص٤٨٩.

١٢. Burns، R: Syria of Monuments، -p131 Dummer publisher، Damascus، 1999 Syria

١٣. زكريا، أحمد وصفي - (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) ص٨٠-٨٢.

١٤. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ص ٣٨٠-٣٨٩.

١٥. الغزي، كامل - (نهر الذهب في تاريخ حلب) ص٤٩٠-٤٩١.

١٦. قوصرة، فايز- (حارم دمشق الصغرى) ص٤٩-٥٠.

١٧. نفس المصدر ص٥٥-٥٧.

١٨. زكريا، أحمد وصفي - (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) ص٨٠-٨٣.

١٩. Berchem، V: (Voyage en Syrie)، p230، Caire 1914

٢٠. حمام السوق في القلعة: يتخذ مخططاً مستطيلاً مؤلفاً من ثلاثة أقسام: (البارد والفاتر والساخن)، وقد جهز بموقد نار -مبني من الآجر- لتسخين المياه التي تزود بها عن طريق قساطل فخارية تتفرع عن حوض تجميعي خارج الحمام، نقلت إليه المياه من البئر القريب بواسطة دولاب خشبي يديره حصان، ويتشابه مخطط الحمام والتقنيات المستخدمة فيه مع حمامات القلاع الأيوبية في قلاع: نجم وحلب وصلاح الدين...

٢١. إن تشكيل البعثة السورية الإيطالية المشتركة هو حصيلة التعاون العلمي بين المديرية العامة للآثار والمتاحف (DGAM) وجامعتي:
- فينيسيا: ممثلة بالبروفسور(ساورو غيليشي)
- بيزا: ممثلة بالبروفسورة (ستيفانيا ماتسوني).

هل صحيحٌ أن ادلب بلدٌ بلا تاريخ؟

محمد عادل صادق *

هل صحيح؟ وأسئلة أخرى:

لن أتحدث عن ادلب كباحث أو مؤرخ، بل كعاشقٍ غرق في بحر خضرتها...

تلك الجميلة التي امتدت يداي لتحتضن مفاتنها في عجالةٍ من الزمن الحاضر...

وهي التي اختزنت التاريخ في ترابها آلاف السنين دون أن تبوح به لأحد، إلى أن وشت به آثارها التي تزاحمت على أرضها فأظهرتها تحفة في عيون السائحين والرحالة الذين جاؤوها من كل بقاع الأرض يحملون معاولهم.. وأزاميلهم.. وكاميراتهم.. ينبشون تلالها ووديانها ليرصدوا ما عجزنا نحن عن رصده وتسجيله، حتى قال عنها حين رآها الرحالة بورك هارد في عام ١٨١٢م (أن ادلب أثينا الشرق)..

كيف لا أعشق تلك الجميلة وهي في حيائها أجمل منها في سفورها، تسير خلف الركب خجلى وهي تحاول إخفاء مفاتنها الرائعة كحسناء تسربلت بجلباب العفاف...

إلى أن نهض بعض أبنائها المخلصين الذين سبقوني في كتابة تاريخها، بعد أن كشفوا عن وجهها حجاب الزمن الذي أخفى تحته قروناً طويلة من الحضارة الممتدة على أرضها، فظهرت تحفة المتاحف ودرة الشمال السوري في أبهى زينتها وألقها، بعد أن نفض المخلصون عن وجهها غبار الأيام التي أخفت حقيقتها قروناً طويلة..

❖ فهل صحيحٌ أن ادلب بلد بلا هوية أو تاريخ؟..

❖ وهل صحيحٌ أنها كانت تتبع قضاء سرمين، أو معرة مصرين، أو أريحا، أو معرة النعمان، أو حارم، إلى آخره من مدنٍ تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم؟..

❖ وهل صحيحٌ أن أية مدينة بالمنطقة أقدم منها بكثير؟..

أسئلةٌ كثيرة تراوح في مجالسنا..فلا يجيب عليها..بنعم..إلا جاهل لحقيقة المنطقة، أو من يريد أ ن ينسب التاريخ لبلده.. وهذا حق له لأننا نعلم أن جميع

* كاتب وباحث.

المدن في هذه المنطقة لها تاريخ موغل في القدم.. ولكن هذا لا يعني نفي صفة الوجود عن ادلب وتعتيم صورتها..

تلك الجميلة التي تعتّق سحرها في أقبية التاريخ والتي تنتظر منا نحن الأبناء الغوص في أعماقها أكثر واستخراج ما في رحمها من كنوز...

لن أقف موقف المدافع عن تاريخها وأصالتها، لأنها قادرة أن تدافع عن نفسها وتُظهر للآخرين ما جهلوه عنها بما خبأته من إرث حضاري في جوف مملكة إبلا التي أغنت تاريخ المنطقة بمكتبة ضخمة من الرُقم كُتبت بالخط المسماري تعود للألف الثالثة قبل الميلاد، ضمها متحف ادلب مع الكثير من أوابده وعادياته وما زال أكثرها مطموراً تحت تراب هذا البلد مُنتظراً يد الصدفة أو معاول التنقيب في الكشف عنها وإظهارها للنور لتحكي حكاية بلد تعاونّا جميعاً على طمسِ هويته وتاريخه.

نحن لا ننكر أن لكل مدينة من المدن المجاورة تاريخها، شأنها في ذلك شأن جاراتها في هذه المنطقة، من مدن سادت ثم بادت، حتى أطلق عليها تجاوزاً اسم المدن المنسية.. وهي منسية حقاً ما لم نُسلط عليها أضواءنا الكاشفة...

ومنها ما زالت حية ومأهولة ينبض في رحمها نسغَ الحياة مثل ادلب وما جاورها من مدن تشكل بمجموعها تاريخ وحضارة هذه المنطقة، بما حباها الله عزَّ وجل من خصوصية لكل منها فهي كلٌ لا يتجزأ...

وإن سُلط الضوء على أحدها في فترة ما من الزمن فهذا لا يعني نفي صفة الحياة والوجود عن الباقين

بخلاف باقي المناطق التي ظهرت فيها مدن كبرى، طغت بتاريخها وعظمتها عمن حولها، ومازالت باقية وخالدة كدمشق وحلب التي أصبحت اليوم عاصفة للثقافة الإسلامية...

وادلب جزء من مجموع المدن التي عمّرها الإنسان القديم في هذه المنطقة، وما زالت باقية ومزدهرة، ولو اندثر نصفُها القديم وأعني به ادلب الكبرى الشمالية...

ادلب.. المكان:

قد يتساءل سائل: لماذا تفترض وجود الحياة على أرض هذه المنطقة منذ أقدم العصور؟.

يجيب الباحث عبد الحميد مشلح عن هذا السؤال في كتابه الظاهر والمدفون في بلد الزيتون، حين علق الجواب بالموقع الجغرافي المتميز لهذه المنطقة وذلك لاتساع سهولها، وخصوبة أرضها، واعتدال مناخها، وكثرة أمطارها التي تكفي لإحياء الزرع والضرع..

فحيثما وجد الإنسان الأول هذه الظروف، استقر وسكن...

فكيف لا يسكن الإنسان القديم ادلب وما حولها، وبها مقومات حياته ووجوده؟...

فأين ما ذهبت وجدت سهولا خصبة واسعة، وأشجارا مثمرة، وغابات تتسلق الجبال..

قد يقول قائل: كيف ذلك وليس بها نهر يجري ولا ماء ينبع؟...

أقول: لقد عوضها الله بنهر جار من السماء، يغني أرضها ويخصب تربتها...

فمن غزارة أمطارها في فصل الشتاء تنبت الأرض وتربو...

وذلك لاحتفاظ صخرتها الكلسية التي توضعت فوقها والتي يطلق عليها العامة اسم(بيلوني).. وهذا النوع من الصخور أشبه بخزان كبير يحتفظ بالماء والرطوبة حتى قدوم الصيف ولا يتشقق فيحتفظ بمائه، يقول عنها الفلاح (أنها أرض بترضع) تشبيهاً لها بالأم المرضع التي تدر الحليب من ثديها بقدر ما يستدره طفلها وتعطي للحياة استمراريتها وخصوبتها...

لهذا كثُرت في أرض ادلب الينابيع السطحية والعيون والمسطحات المائية التي تتجمع بها مياه الأمطار في أماكن متفرقة على أرضها، لعل أبرزها مسطح عري في سهل الروح، وعين مرتين العذبة والسيحة في منطقة أبي الظهور، والقولة المائية (الرام) التي كانت تفصل ادلب الكبرى عن الصغرى في منطقة البقعة، والتي تعني بالسريانية الأرض المنخفضة... فلا تتواصل البلدتان إلا عبر طرق خاصة حين تفيض مياه هذا المسطح المائي، الذي كان يساوي قديماً بحيرة صغيرة أو مستنقعاً كبيراً يذكره أبناء البلد باسم(الرام)، ذلك بعد أن انحسرت ماؤه وصُغر حجمه بتتابع السنين، إلى أن ردمته الدولة في منتصف القرن الماضي بعد أن قلّ ماؤه وأصبح مرتعاً للبعوض حتى سماه العامة (بالرام الميشح) لتبقى في تلك المنطقة عين واحدة جارية من ثلاثة عيون تعرف بمنطقة العين، إضافة للآبار والأسبلة التي حُفرت بالصخر لتجميع مياه الأمطار على الطرق الزراعية وفي ساحات دور السكن تكفي مؤونة فصل الصيف، حتى قيل عنها، ادلب العدية وادلب الهوية..

- فماذا نقول عن تاريخها من الناحية الواقعية والآثارية؟...

ادلب "الاسم الموغل في التاريخ":

والآن لا بد لنا من معرفة من أين جاءت تسميتها وما معناها؟...

ولكي لا نضل ونحن نطارد الاسم الحقيقي لبلدنا في بطون الكتب التي تضج بآراء مختلفة ومتباينة، واجتهادات تنسب اسم ادلب لإحدى تلك الحضارات التي مرت بتلك المنطقة وتركت آثارها على أرضها.

مع أن هذا التضارب وذلك الاختلاف يؤكد وجود ادلب ولا ينفيه، ولو أن الاختلاف على تسميتها لا على وجودها، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه عن حقيقة وجودها الضارب في عمق التاريخ، فهذه الكلمات:

ادابيكو، ادابيخ، لوبان، يدابي، لبوم، ادليب، ووادي لب، ودلبين، ودير دلبين، اذليب، ادليب، ادلب. كلها تسميات لمسمى واحد هي ادلب الحالية ولو تغير لفظها في كل حضارة مرت بأرضها...

ولدى قراءتي لتلك المصادر وجدت آراء أكثر الباحثين تتقاطع في مركز واحد وتتفق حول الأصل الديني لنشوء تلك البلدة وتسميتها ادلب ونسبتها إلى اللغة الآرامية، فهي كلمة مؤلفة من مقطعين: إدلب...

- وإد - أو - أدا - أو - أدد - أو - هدد - أو - حدد -..هو إله العواصف والأمطار والقوة والخصب، وهذا الإله انتشرت عبادته وذكره في الديار السورية...

- لب - أو - ليب - وتعني المركز، أو السوق أو الميدان أو الوسط، وبذلك يكون معنى اسم ادلب مركز العواصف والأمطار والخصب والواقع الطبيعي

للمدينة، يؤكد هذا المعنى ويؤكد انتقال اسمها عبر الحضارات منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، إلى أن استقر اسمها ادلب أو ادليب في الحضارة الآرامية منذ الألف الأولى قبل الميلاد...

لندع الآثار تروي الحكاية:

والآن وبعد أن عرفنا حقيقة تسميتها ومعناها، لنتابع تطورها وذلك يتطلب منا الرجوع لمعبدها الوثني مكان الجامع العمري في ادلب الصغرى، والذي كان يحج إليه سكان ادلب الكبرى لتقديم القرابين للإله حدد أو هدد..إله القوة والعواصف ذلك في وقت شدتهم عابرين إليه المنخفض المائي الذي يفصل أو يقسم البلد الواحد إلى بلدين في منطقة البقعة اللتان تتصلان ببعضهما بطرقٍ خاصة تربط البلدين من الجهة الغربيّة لهذا المستنقع حيث الأرض مرتفعة...

وقد ازداد انتقال سكان ادلب الكبرى إلى الصغرى بسبب دخولهم الديانة المسيحية وتحويل معبدهم الوثني إلى دير سُميَّ فيما بعد باسم دير دلبين، حيث اتسعت مساحته بازدياد المؤمنين بالدين الجديد، ومع ازدياد السكان العابرينَ من الكبرى إلى الصغرى وبناء بيوتهم قريباً من هذا الدير...

وهكذا بدأت حركة الانتقال من ادلب الكبرى لادلب الصغرى تدريجياً كعادة المدن في تطورها وهي تتجه جنوباً...

تعتبر هذه المرحلة هي المرحلة الثانية في تطور ادلب الصغرى التي أصبحت تتسع وتكبر على حساب ادلب الكبرى الشمالية، التي بدأ سكانها بهجرها متجاوزين ذلك المنخفض المائي في منطقة البقعة لمرتفع يماثل المرتفع الذي تركوه، فتوضعوا في منطقة جامع المبلط ومنطقة المنشر وزقاق الزهر في الحي الشمالي لادلب الصغرى، بعد أن دانوا بالديانة المسيحية فأصبحوا على مقربة من ديرهم دير دلبين، الذي كان راهبه دانييل حسبما جاء في رسائل تشالينكو الأربعة عن الأديرة في تلك المنطقة وانتشار المسيحية فيها، حيث كانت تقام القداديس باللغة السريانية التي تداخلت مع العربية حتى سكنت مفرداتها ألسنة الناس في ادلب والمنطقة بشكلٍ عام دون معرفة مصدرها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بعض الكلمات مثل:

شوب، زبون، مي، شلون، البقعة، المزربة..إلى آخره...

كما تداخلت السريانية مع لغتنا الفصحى مثلما جاء في رسالة الغفران للمعري كلمة: زقفونا وتعني صلبونا.

اللصوت وتعني اللصوص الواردة في عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس).

النيران وتعني الشموع المشتعلة الواردة في كتاب أهل دمشق لأبي عبيدة بن الجراح.

الفاروق وتعني المخلص وهو اللقب الذي أطلقه السريان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه...

كما وردت تسميات بعض المدن مثل:

الحيرة = القصر، المعرة = المغارة، تدمر = الأعجوبة، تكريت = التجارة، ادلب وقد مرَّ شرحها...

وديردلين الذي ورد ذكرة في الوثائق السريانية ومشاركتها في مؤتمري باتبو المنعقدين عامي/٥٦٧-٥٦٨/م مع رهبان الأديرة المجاورة لادلب مثل: دير سطمة = المسطومة، الحراجة، قميناس، بنش والفوعة..إلى آخره

حتى بلغ عددهم سبعين ديراً وهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (المينوفيزية)، وكان رهبان تلك الأديرة يتعرضون للاضطهاد من قبل الكنيسة الرسمية في بيزنطة التي كانت تقيم طقوسها باللغة اليونانية...

واحتواء دير دلبين لجميع هذه الأديرة جعل منه مركز إشعاع حضاري جلب لادلب وللمنطقة الكثير من السكان فاتسعت ادلب الصغرى حول ديرها في منطقة الجامع الكبير ومنطقة الصليبة ومنطقة بئر الشهيد، وبذلك تشكلت المرحلة الثانية من حياة ادلب الصغرى...

وهذا لا يعني أن ادلب الكبرى أصبحت خراباً في ذلك الوقت بل بقيت عامرة حتى أواخر القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر ميلادي...

وبعد دخول الإسلام لتلك الديار، ظل سكانها متمسكين بأرضهم وبيوتهم حتى بعد دخولهم الإسلام، بنوا فيها مسجداً لعبادتهم، لكن حركة الانتقال بقيت مستمرة لادلب الصغرى التي أصبحت مركزاً مهماً يجذب إليه الأنظار، بعد أن تحول ديرها إلى مسجد سُميَّ بالجامع العمري نسبة لعمر بن الخطاب(رضي الله عنه) ولقيت ادلب الكبرى من الكوارث والنوائب الشيء الكثير، وكان أفظع ما لقيته من حروب في زمن الصليبيين، والتتار، فقد استولى عليها أمير إنطاكية الصليبي (طانكريد) في عام/١١٠٦/م، وفي عام/١٨٢٢/م وقع في ادلب زلزال عظيم دامت هزاته أربعين يوماً وطالت كوارثه الكثير من المدن في المنطقة مثل: ادلب والمعرة وإنطاكية وحلب وما جاورها، مات خلالها الكثير من الناس تحت الأنقاض، ودمرت ادلب الكبرى بشكلٍ كامل وانتقل من بقيَّ من أهلها لادلب الصغرى الأكثر حداثة وفتوة حاملين معهم منبر مسجدهم حيث وضعوه في جامع المبلط والذي يشبه منبر الجامع الكبير بحلب الذي بناه الملك الأشرف وجدده بعد احتراقه الناصر قلاوون، ولا يزال باقٍ حتى يومنا هذا لا ينتبه إليه أحد مع عمود وضعوه في مدخل المسجد حملوه مع ما حملوا من آثارٍ باقية تذكرهم ببلدهم المخرب...

لتبدأ رحلة جديدة من النمو والازدهار في ادلب الصغرى في منتصف القرن السابع عشر وهي فترة النهضة مع محمد الكوبرلي باشا الصدر الأعظم في السلطة العثمانية ومن جاء بعده من أسرته.

عودة على بدء:

وبذلك يمكننا تلخيص تاريخ ادلب الذي مرَ تكوينه في أربعة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام وهي المرحلة الوثنية حيث كان معبدها في ادلب الصغرى يضم بجوفه الإله(أدد أو حدد) وقد ذكرته رُقم إبلاَ باسم (أدا) وهو معبد للإله نيداكول في بلده لوبان أي ادلب الصغرى، التي كان يحج إليها سكان ادلب الكبرى الشمالية والمناطق الأخرى للتعبد وتقديم القرابين في معبدها أمام إله القوة والعواصف

والخصب. ففي ادلب الكبرى كان عيشهم وسكنهم، وفي الصغرى صلاتهم وتعبدهم، وقد جاء المثل القائل: (ما في بالميدان إلا حديدان)في إشارة لقوة هذا الإله وعظمته، وقد ذهب الباحث فايز قوصرة إلى مقارنته بقولنا اليوم(لا إله إلا الله)ورد ذلك في كتابه من إبلا إلى ادلب في الصفحة/٧٧/...

إذن سكان ادلب الكبرى الشماليون هم أوائل من سكنها وعمرها وملك أرضها وزرعها ودجّن الحيوان فيها...

لهذا نرى أن جميع الأراضي الزراعية في الجهة الشمالية من البلدة مملوكة لتلك الأُسر وقلما وجدناهم يملكون أراضٍ في الجهة الجنوبية إلا من إرث جاءهم عن طريق التزاوج...

فالشماليون هم سكان ادلب الكبرى وهم المرحلة الأولى في بنية المجتمع الادلبي، (فإذا قال أحدهم..أنت شمالي..فهو يعني الأصالة وليست سبة كما يتصور البعض)...

المرحلة الثانية: هي المرحلة الآرامية التي سبقت الميلاد والسريانية ما بعد الميلاد، حيث تحول معبد ادلب الوثني لدير بدخولِ المسيحية لتلك الديار، وتحول بعض سكان ادلب الكبرى إلى المسيحية وانتقالهم إلى منطقة زقاق الزهر في منطقة المنشر القريب من الدير الذي بات يُعرف باسم دير دلبين وراهبة دانييل، وقد اتسع هذا الدير حتى أصبح مركزاً تجمعت من حوله الأديرة في تلك المنطقة واتسعت مساحته فأصبح له سورٌ ظهر جزء منه في منطقة زقاق البوس سابقاً (باحثة البادية اليوم).

وقد تجمع حول هذا الدير الكثير من السكان من المناطق المجاورة، ومن سكان ادلب الكبرى في منطقة الصليبة وما حولها التي تشكلت على هيئة صليب فكانت المركز الإداري لادلب الصغرى، ومكتشفاتها موجودة الآن في متحف ادلب وسكانها هم سكان المرحلة الثانية في بنية المجتمع الإدلبي...

المرحلة الثالثة: وهي المضطربة بين المسيحية والإسلام...

في القرن السادس الميلادي وأمام اضطهاد بيزنطة للأديرة المينوفيزية قبيل الفتح الإسلامي ودخول الإسلام تلك الديار بسبب انعدام الأمن والحروب مع دخول العقيدة الجديدة التي حملها المسلمون معهم، دفع ذلك بعض السكان في دير دلبين للهجرة إلى مناطق أخرى بعيدة ومنهم من دخل الإسلام مُتمسكاً بأرضهِ ووطنه، وبقيَ أكثرهم يقيم في ادلب الصغرى وادلب الكبرى مُحتفظين بديانتهم مسلمين ومسيحيين، وفي فترة الحروب الصليبية ذُكرت ادلب مراراً على أنها تابعة لإمارة إنطاكية إلى أن حررها صلاح الدين الأيوبي في عام/١١٨٨/م ثم استعادها الفرنجة ثانية من المسلمين، وبقيت ادلب على هذه الحالة يتناوب على سيادتها الفرنجة حيناً والمسلمون حيناً آخر، إلى أن حررها الظاهر بيبرس بشكلٍ نهائي في عام/١٢٥٩/م في القرن الثالث عشر ميلادي وبعد معركة مرج دابق ودخول السلطان سليم العثماني إلى حلب وما حولها خضعت ادلب مع بقية بلاد الشام للعثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي عام/١٥١٦/م واستمرت ادلب في النمو لتصبح قضاءً حين عينت السلطة العثمانية قاضياً لها وهو أشبه بوالٍ لهذا

القضاء يتبعه خمس عشرة قرية وخمس مزارع...

المرحلة الرابعة: مرحلة الاستقرار والازدهار...

وهي المرحلة التي يعرفها الكثير دون معرفة المراحل الثلاث التي سبقتها وبها يؤرخون لادلب ويقولون عنها أنها حديثة العهد يعود تاريخها لمائتين أو ثلاثمائة عام دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتقصي العلمي والمنطقي عن تاريخها القديم...

- فهل يعقل أنها ظهرت هكذا فجأة من فراغ؟...

- وهل أصبح لها أسواق مسقوفة لكل مهنة، وخانات معمورة، وحمامات للعامة، وأشجار زيتون، ومعاصر حجرية، ومصابن شكل رمادها رمادتين كبيرتين؟...

كل هذا صار فجأة دون غيرها من المدن في المنطقة؟...

يقول أديب ادلب الساخر " حسيب كيالي " لمن ينكرون تاريخ بلده في كتابه وتلك الأيام:

(كيف يكون لبلد فيه أربعة عشر حماما وتسع وثلاثون مصبنة ومئتا معصرة حجرية وعشرة خانات خصص أحدها للشحاذين...

كيف يمكن أن تكون تلك البلدة بلا تاريخ)؟...

تجيب رقم إبلا شيخنا شيخ الأدب الساخر عن سؤاله.. بنعم...

يمتد تاريخها للألف الثالثة قبل الميلاد كما ورد ذكرها باسم ادابيكو، وفي نص آخر ادابيج أو لوبان...

وكما ورد ذكرها في وثائق آشورية باسم يدابي عام/٧٣٨/ق.م، وفي العصر الوسيط باسم اذليب أو ادليب ودير دلبين...

هذا ما قالته الوثائق عن تاريخها القديم والذي نرى آثاره على أرض الواقع وما ضمه متحف ادلب إلى الكثير من أوابده...

معالم باقية وأخرى أزالتها يد الجهل والإهمال:

وما زال أكثرها مطمورا تحت التراب وما عجز الزمن عن طمره طمرناه نحن بأنفسنا، حين هدمنا بيد الجهل والطمع أقدس آثارنا وأغناها، ولا بأس من ذكرها لتبقى راسخة في ذاكرة الأجيال...

١- الجامع العمري: ذلك الأثر التاريخي العظيم الذي كان محور هذا البحث في مراحله الثلاث...

٢- الأسواق المسقوفة: لكل مهنة التي تشبه الأسواق القديمة في كل من دمشق وحلب والتي لم يتجرأ أحد على هدمها وتجرأنا نحن...

٣- الحمامات العامة: التي كانت تعمل للنساء والرجال في أوقات محددة التي بلغ عددها عشرة مثل حمام سريانا، الميري، الطاهرية، الصالحية، الذهب، الصغيرة، الكبيرة، الجديدة، الهاشمية، المحمودية...

٤- الجوامع منها عشرة تقام بها صلاة الجمعة وسبع وثلاثون مسجدا وتكية وزاوية، حتى أطلق عليها الشيخ العالم حسين التونسي اسم الأزهر الصغير، كما

سماها بهذا الاسم الشيخ عبد الغني الرافعي الذي كان قاضياً فيها في عام/١٢٩٣/هـ، وأنا لا أدّعي بهذا القول أن ادلب لوحدها كانت الأزهر الصغير بل هي مجموع ما يحيط بها من مدن وأعلام كانت تجمعهم ساحات العلم والفقه في مساجدها، لهذا استحقت هذا الاسم هي ومن جاورها من مدن مجتمعين، لأننا كلنا في هذه المنطقة ننتسب إلى دوحة واحدة هي الوطن، وإن سُلطت الأضواء على بلد دون آخر تبعاً لاهتمام الحكام، ووقوعها على طريق القوافل التجارية التي تمر بها، والحروب التي تقع على أرضها...

لنأخذ مثلاً قنسرين، تلك المدينة التي خطفت الأضواء في فترة من فترات التاريخ والتي ورد ذكرها في سير الفاتحين والقادة والمؤرخين القدماء، في حين لم يكن لحلب شأن يذكر في كتبهم إلا القليل...

فهل هذا يعني إلغاء هوية حلب الحية المزدهرة والاحتفاء بقنسرين التي سادت حضارتها ثم بادت، ومبدأ الحياة على الأرض كما في الغابة البقاء للأقوى...

٥- والآن لنعد لذكر ما هدمناه بأيدينا مثل الخانات التي بلغ عددها ثلاثة عشر خانا، خصص أحدها للشحاذين، وآخر للرز الذي أصبح دارا للحكومة، عدا القيساريات التي كانت منتشرة في ادلب والتي تعتبر فنادق ومراكز للتجارة والتجار العابرين بقوافلهم التجارية...

٦- كما هدمنا سور الثكنة العسكرية (القشلة) وبابها الواسع الذي كان يمكن أن يبقى كمعلم تاريخي مثل قوس النصر بين مبنى المحافظة ومبنى البلدية يشير لفترة خاضها شعبنا ضد محتليه وانتصر...

٧- هدمنا الصومعة والمحراب وبئر الشهيد وأزلنا رمادتين هائلتين تكونتا من رجيع الصابون ورماد نيران المصابن التي كانت تضيء ليل ادلب على مدى العام مُعلنةً للملأ تطورها وازدهارها جاذبة إليها الأيدي العاملة من أبناء المنطقة والمدن المجاورة والبعيدة والذين بقوا فيها مُحتفظين بأسماء المدن التي جاؤوا منها كنيةً لهم...

وهكذا تبقى الأرض تلفظ ما بجوفها من وثائق لتعطينا المزيد من الحقائق عن تاريخ بلدنا، وعلينا نحن الإمساك بمعاول التنقيب للكشف عن أسرار تلك الأرض وكتابة تاريخ بلدنا بأيدينا، فلا ننتظر من الآخرين ليفعلوا ما يقع على عاتقنا واجب فعله...

إنني أدعو الجميع وكلّ مهتم غيور كي يكتب تاريخ بلده فلا نكتفي بالقول، بل بالعمل، فمن لم يعرف تاريخ وطنه لا وطن له...

إلى ادلب:

والآن ألا يحق لي أن أشكر محبوبتي ادلب التي أعطتني فرصة الحديث عنها مُتغزلاً بتاريخها القديم والحديث؟..

لا تعجبي يا حبيبتي إن نطقت بسحرك!.

لا تعجبي كيف تعلمت الغناء!...

تعلمت منك الشموخ...

تعلمت منك الحب...

تعلمت منك الكبرياء...

لا تعجبي إن وفيت بعض حقك فأنت أم الوفاء!..

ســـــلقين

حسين جلخي *

الموقــــــع:

تتوضع سلقين في الزاوية الغربية من إدلب وعلى بعد خمسة وأربعين كيلومتراً منها، وتنتشر أبنيتها على السفح الشمالي لجبل الدويلة والسفح الجنوبي للهضبة المعروفة بجبيلة الخميس وذلك ضمن واد جميل يستمر ببساتينه الغناء لمسافة سبعة كيلو مترات حتى حدود لواء الاسكندورن.

تاريــــخ عريــــق:

وهي مدينة عريقة في قدمها فقد ورد ذكرها في حوليات الملك الفرعوني (تحوتمس الثالث) إبان غزوه سورية عام ١٤٦٠/ ق. م وذلك على رأي الباحث (أستو ر)... إلا أن الضابط الفرنسي (فرومنت) الذي رافق البعثة العلمية الأثرية التي زارتها عام (١٩٢٨) م، أشار إلى وجود حجر فيها واقع بين شجرتي سرو نقش عليه تاريخ تأسيس البلدة واسمها عام (٩٨)ق.م. وتشير بعض الوثائق إلى أنها كانت تابعة لإنطاكية في العصر الروماني البيزنطي وفيها كنيسة تابعة لارتاح كما ذكر المؤرخ ألغزي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب). وتتناقل الأساطير أنها كانت مكان استيطان قديم للسلوقيين وقد أقام فيها الملك سلوقس الأول - الذي اشتُق اسمها منه وربما كانت هذه التسمية لسلقين صحيحة ويؤكد ذلك ما سجلته الرحالة الإنكليزية (بيل) التي زارت سلقين عام / ١٩٠٥ / م حيث نقلت لنا ما جاء على لسان أحد مواطنيها وهو (محمد علي رستم) بأنها كانت أحد مواطن السلوقيين وقد أوجدها سلوقس الأول وهي مصيف لسكان إنطاكية وأن المكان الذي يقيم فيه هذا المواطن والحديقة المجاورة له هو موقع مدينة السلوقيين وكثيراً ما شاهد مع أهل البلدة قبوراً وأحجاراً تشير إلى ذلك....

ومنهم من أطلق عليها اسم (سلقنة) وتعني في الآرامية "الصاعدون" حيث تنطبق هذه التسمية عليها إلى حد ما لكون أبنيتها القديمة تتسلق أطراف الوادي حتى تصل إلى رأسه مما يستدعي الوصول إليها.... إلا أن الرأي الأول هو أرجح.

* رئيس المركز الثقافي بسلقين سابقاً.

وفي العهد الإسلامي فتحها الصحابي (أبو عبيدة الجراح) سنة /١٧/هـ /٦٣٧/ م.

وكانت من الأماكن المقدسة عند النصارى في القرن التاسع الميلادي يقصدونها كمركز للتبرك بسبب كنيستها كما أخبرنا بذلك الطبيب والفيلسوف العربي (ثابت بن قرة) الذي عاش ما بين عامي (٨٣٦ - ٩٠١) م.


سلقين القديمة

وفي عام / ١٠٩٨/ م استولى الفرنجة على سلقين وأصبحت حصناً يدعى (حصن سلقين) وظل هذا الحصن قائماً إلى القرن الثاني عشر الميلادي حيث استرده " نور الدين زنكي " مع حصن تل عمار عام /١١٤٩/ م ثم عاد الفرنجة فاستردوه ثانية وظلوا فيه حتى رحيلهم.

أما في العهد العثماني فقد صارت سلقين مركز ناحية، ثم تحولت إلى قصبة، وكانت في منتصف القرن السابع عشر وقفاً للصدر الأعظم (إبراهيم باشا) حيث


معصرة زيت قديمة

خصصت غلالها للحرمين الشريفين وأعفيت من الرسوم والضرائب بموجب الأوامر السلطانية..... وكانت امتداداً لإنطاكية وعمقاً استراتيجياً لها فقد ذكر /طومسون/ الذي زارها عام /١٨٤٦/ م أنها تبدو كأنها مدينة مهمة وبالقرب منها جسر حديدي يعبر منه إلى نهر العاصي.

كما ذكرت سالنامة عام /١٨٩٦/ أن عدد سكانها كانوا آنذاك /١٨٢٦/ نسمة وفيها جامعان، ومكتب لتعليم الصبيان وحمام وقهوة وخمسون دكاناً و/٥٤٤/ خانة.....أما سالنامة عام /١٩٠٦/ فأشارت إلى أن عدد سكانها أصبح /٢١٧٤/ نسمة وفيها ثلاث معاصر زيتون وخان وفرن وطاحونة ومصبنة.

إلا أن الحدث الأهم الذي مرت به هذه المدينة كان الزلزال العاتي المدمر الذي أصابها عام /١٨٢٢/ م فدمر معظم معالمها.. وقد أشار الشيخ محمد المطلبي إلى هذا الزلزال بقوله:

وفي المعرة كم من نسوة فجعت
وأرض ريحا وسلقين لقد صدعت

مشاهدات الرحالة:

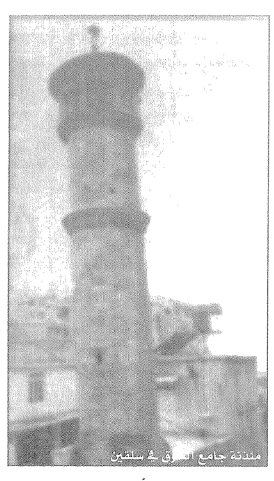
منذ القديم وهذه المدينة الجميلة تحظى بإعجاب كل من زارها سواء أكان باحثاً أم رحالة

فالرحالة (محمد الكيالي) في مخطوطه المسمى (الحلة السنية للرحلة الشامية) يذكر أنه زارها عام /١٨١٥/ م فوجد من أهلها كل ود وترحاب...... وعرج فيها ليلاً على ضريح الشيخ بطوس فقرأ القرآن بجانبه ودعا الأدعية حتى الصباح.

وتسجل الرحالة الإنكليزية (جيرترود بيل) انطباعاتها عن هذه المدينة إثر زيارتها عام /١٩٠٥ / م قائلة: اتجهنا من حارم جنوباً وسارت بنا العربة على طول منحدر جبل الأعلى إلى سلقين هذه المنطقة النَّزِهة لن تُنسى لجمالها وجمال طبيعتها المتزايد في طريقنا... ولم أرَ مثل هذه الخصوبة الوافرة في جميع أنحاء سورية فكروم الزيتون واللوز تتقاسم هذه الأرض الخصبة حيث زرعت فيها عشرة آلاف غرسة عامي /١٩٠٠ - ١٩٠٥ / انتشرت من البلدة إلى سهل العاصي... كما أهتم أهلها بزراعة شجرة التوت فجلبوا صناديق بيض دود الحرير من فرنسا واشتغلوا بتجارة الحرير.

وأنه قد ضرب المثل بجودة تين سلقين وتوتها فقيل: "ما في تين إلا بسلقين" كما أن الباعة في ادلب ينادون " عسل يا توت..سلقيني يا توت "

أما الرحالة (أحمد وصفي زكريا) فقد زارها عام /١٩٣٢/م وكتب عنها ما يلي: سلقين بلدة جميلة من أبهج وأنزه ما رأيته في أعمال حلب، عدد سكانها /٣٠٠٠/ نسمة مسلمون عرب، علوها عن


مئذنة جامع السوق في سلقين

البحر /٢٥٠/ متراً، تشرف على سهل العمق، بنيت بين ضفتي وادٍ جميل ظليل فيه أشجار باسقة مثمرة بقولاً جيدة وفيها عيون وأرحاء وجامع كبير حسن وحمام وسوق حافل، ودور أنيقة رحبة، أصحابها ذوو وجاهة وحفاوة يلقبون بالأغوات، ومعظم ثروتهم من الزيتون الذي يكثر وجوده في هذه الهضاب.

أوابد ومعالم أثرية:

مازالت في المدينة بعض الأوابد الأثرية القديمة التي تغيرت معظم معالمها منذ زمن ليس بالبعيد نتيجة ظروف عمرانية واقتصادية مجحفة.... ومن أهم هذه المعالم المتبقية / مصيف العجمي / الرائع ذو الإطلالة الخلابة والتي ترافقك حتى سهول العمق والجبال المحيطة بها،

لكن جميع معالمه قد تغيرت فهدم ليوانه والمرافق الأخرى حوله والبئر الذي يتوسط ساحته ولم يبق ما يدل على هذا الصرح سوى بعض العبارات المنقوشة في واجهته والتي حرصنا مع بعض الزملاء الغيورين على إبقائها ونصها كالتالي:

ومن هذه الأوابد أيضاً جامع السوق وهو قديم.... أعيد بناؤه عاما /١٢١٦/ هـ وجددت مئذنته عام /١٣٠٥ / هـ

وكذلك الجامع الكبير وهو مقام متميز وفناؤه واسع تتوسطه بئر ماء وتحيط به غرف متعددة تخدم رسالته الدينية والإرشادية.... وقد جددت مئذنته منذ خمسة عقود ونيف.

وهناك الحمام العتيق الذي أصابه كما أصاب غيره من الإهمال فتغيرت معظم معالمه.

وفي المدينة بعض الأقنية الرومانية وعيون ماء، وقد اندثر بعضها منذ عقود قليلة نتيجة التوسع العمراني والمخططات التنظيمية الجائرة، فقد كانت هناك (عين البازار) والتي كانت تشكل المورد الرئيسي لأهل المدينة قبل تمديد شبكات الصرف الري والصرف الصحي الحديثة وكذلك (عين خلم - وعين الحرز) التي يقال: إن وجود طاحونة قربها دليل على غزارتها، وكذلك عين دالي صهري، وبقيت حول المدينة بعض العيون المحدودة الغزارة نسبياً مثل (عين قسطل السبعة، وعين خنازير، وعين الباردة، وقسطل الحمام، وعين جغيمان.

وأثناء الحفريات التي كانت جارية لإقامة جدار استنادي في منطقة الجمعية السكنية في سلقين اكتشفت بعض اللقى الأثرية حيث عثر على (أربع عشرة جرة فخارية) واحدة منها مكسورة ووجد ما يشير إلى قبور تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وهذا يتطابق تماماً مع وجود مقبرة للمسيحيين في هذه المنطقة كما تواتر منذ القديم، وقد نقلت هذه اللقى إلى متحف ادلب

كما توجد في المدينة بعض المزارات والزوايا منها زاوية الشيخ محمد والتي تحولت إلى مسجد يضم مقامه، وزاوية الشيخ بطوش التي تقدم ذكرها، ومزار الشيخ جوبان الذي يقصده بعض البسطاء للتبرك والنذور، وكذلك مزار الشيخ عبد الله.

صور من مجتمع متماسك وفعال:

كانت طلعة العجمي من أبرز مظاهر التواصل الاجتماعي في سلقين إلى وقت قريب، فقد كانت هذه الظاهرة عرساً جماعياً وكرنفالاً شعبياً متميزاً ذا نكهة خاصة اختصت بها مدينة سلقين، فقد كان معظم أهالي المدينة والمناطق المجاورة في الربيع من كل عام وبمناسبة عيد الجلاء يقصدون مصيف العجمي بمختلف أجناسهم لمدة أسبوع بعد أن يستعدوا له بتحضير الأكلات الشعبية المعروفة (خبز فليفلة - خبز بقشة - كعك - سنبوسك - زنكل) حيث تنصب هناك الخيام وتقام الأراجيح والقلابات وينتشر الباعة في أنحاء متفرقة منه ويلتقي الناس على شكل مجموعات متوافقة ومنسجمة يمارسون الألعاب ويتسامرون ويتنادمون ويهزجون وينشدون الأشعار ويتبادلون الآراء والمشورة ويتحاورون بود وأريحية.... وكانت

ساحة العجمي الفسيحة حلبة خصبة للمصارعة الودية بين بعض الفرقاء من كل حي وبتقنية محكمة (ضربة أبو كعب - ضربة العاقول) فيلبس المتبارزون السراويل الجلدية المعروفة بـ(التبان) وكان شيخ الشباب المعتمد من قبل أهل المدينة ينصب حكماً بين المتبارزين فلا مجال للتذمر والحساسية بين الغالب والمغلوب.... لقد كانت أيام العجمي أياماً عامرة بالطيب والمودة تبدأ بتظاهرة وتنتهي بتظاهرة لا أحلى ولا أجمل فكأن القوم في عرس حقيقي ولا سيما حين يتقدم شيخ الشباب رافعاً العلم ومعه مجموعة كبيرة من الشباب في الذهاب والإياب، لقد غاب هذا العرس الرائع وما أجدره بأن يعود.

ومنذ أربعة عقود ونيف قامت مجموعة تضم نخبة متنورة منسجمة الهدف، معظم أفرادها من الحرفيين والصناع بتشكيل فرقة فنية شعبية[1] أقامت عدة مسرحيات تاريخية هادفة تعاونت في إخراجها وإحكام نصوصها بما توفر لها من إمكانات محدودة، فنالت إعجاب الجميع، وأتقن بعض أفرادها العزف على الآلات الموسيقية التي كانت متوفرة آنذاك كالعود والدف والطاروش، فأحيت العديد من الحفلات في الأعراس والمناسبات الوطنية المختلفة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من مجيدي الدبكات والرقصات الشعبية العربية على ردح الطبل ونغمات الناي والمزمار، كما أجاد آخرون مبارزات الفروسية والشجاعة مستخدمين السيف والترس والنبوت ومستجيبين لضبط أدائها من قبل حكم عارف ضليع بما يخص أصولها وقوانينها، وقد تلاشى نشاط هذه الفرق والمجموعات بسبب وفاة معظم أعضائها وعدم تهيئة البديل عنهم.


سلقين القديمة

ولقد تمكنا من تشكيل فرقة المركز الثقافي للفنون الشعبية في سلقين ضمت خمسة عشر عضواً تم تجهيزهم باللباس والأدوات اللازمة، وما زال هناك شعراء زجالون يشاركون في بعض المناسبات فينظمون مقطوعات مليئة الزهو والحوار الطريف.

مراجع البحث:

- الرحالة الكيالي محمد كتاب (الحلة السنية للرحلة الشامية)- مخطوط خاص.
- مجلة الحوليات الأثرية المجلد (٢٦) لعام /١٩٨٦/.
- الشيخ كامل الغزي (نهر الذهب في تاريخ حلب).
- سالنامة ولاية حلب عام /١٨٩٦/.
- سالنامة ولاية حلب عام /١٩٠٦ /.
- جولة أثرية - أحمد وصفي زكريا.
- قوصرة. فايز: الرحالة في محافظة إدلب ج٢ - ١٩٨٨.

١- يعود الكلام على كاتب البحث حسين جلخي فهو الذي شكل هذه الفرقة.

معرّة النعمان

تاريخياً وأثريــــــاً

أحمد الغريب*

١ـ تمهيد:

معـرة النعمـان هـي إحـدى كبريـات مدائن محافظة إدلب، كما أنها أهـم مـدن الكتلـة الكلسـية فيـها وتعتـبر بوابـة العبـور للمنطقـة الوسـطى وذلـك بسـبب مجاورتهـا لمنطقـة آفاميـا مـن جهـة ولشالسـيس مـن جهة أخرى.

وهـي تتوسـط المسـافة تقريبـا بـين حماة وحلب وتعلو عن سطح البحر حوالي /٤٩٦/ م. وتتميز بمناخـها اللطيـف، كمـا تشتهر بالزراعة ومن أهم منتجاتها الزراعية الزيتـون والمشـمش والكرمـة والقمـح وغيرها...

تـاريخ المعـرة يكـاد يحـاذي مسـيرة التـاريخ بقدمـه، فقـد اسـتقطبت الإنسـان منـذ الألـف الثالثـة قبـل الميـلاد لمـا توافـر فيها من أسباب نشوء الحياة واستمرارها وارتقـاء الحضـارة كالعـامل الجغـرافي الهـام وذلك من خلال الأراضي الزراعية الخصبة التي وفرتها طبيعة تربتها بسبب فيضانات نهـر الهرمـاس الفصلـي إضافـة إلى عوامـل المنـاخ المتوسـطي ممـا أدى إلى اجتـذاب الإنسان واستقراره في هـذه المنطقـة فضـلا عـن التشـكل الجيولوجـي الخـاص لهـذه المنطقـة، فالسـهول الفسـيحة والوديـان الواسـعة، وطـدت دعـائم الإسـتقرار، وقـد توضعت نـواة مدينـة المعرة فوق ثلاثـة تـلال هـي (بنصـرة ومنصـور والفجـل) وإسـتمرت فيـها الحيـاة حـتى العصـر الكلاسـيكي، (اليونـاني)، حيـث شـرعت أسـباب المدينـة بالارتقاء.

وسـاد الأمـن والطمأنينـة، فـانحدر سـكان تلـك التـلال إلى السـهل المتوسـط وأنشؤوا مدينتهم الجديدة (المعرة) لتصبح فيما بعد مهد الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعـري وغـيره فبلغـت شـهرتها الأمصـار وازدهـرت حضارتهـا كمـا زخـرت أسـواقها بـالأرزاق والخـيرات وأثـرى سـكانها وأهلوهـا، فذكرهـا الرحالـة والبحاثـة والمؤرخون.

---

* أمين متحف المعرة.

٢ـ **أصل تسميتها**:

اختلف الباحثون والمؤرخون في أصل لفظة المعرة فكانت هذه التسمية مثاراً للجدل والتأويل لعدم وجود وثائق تاريخية لهذه التسمية.

فلفظة المعرة (لغة): تعني الإثم والدية والجناية والمصيبة والشدة[١]. كما تعني تلون الوجه من الغضب ويردد أبو العلاء قوله:

يعيرنا لفظ المعرة أنها

من العرِ قوم في العلا غرباء[٢]

والمعرة كوكب في السماء دون المجرة، والمعرة قتال الجيش دون إذن الأمير و..الخ

وهناك فريق من المؤرخين يؤكد بأن (المعرة) لفظة سريانية أي (مغرتا) وتعني المغارة وماتأويل ذلك إلا لكثرة المغاور فيها، وقد ورد هذا الاسم لعدد من القرى في منطقة المعرة وغيرها مثل (معرة حرمة ومعرشورين ومعرة الصين ومعرة دبسي..).

وفي اعتقادي أن هذه التسمية قد جاءت من لفظة (أرّا) أي عرة وكان الإسم يطلق على مدينة المعرة في العهد الروماني[٣]. ومن ثم تطور هذا الإسم ليصبح المعرة، كما دعيت في العهد البيزنطي (مارّ)[٤] وصليبية تنوخ[٥] وذات القصور[٦] ودعيت في العهد العباسي، زمن هارون الرشيد (العواصم) وهي(الموانع والحصون) كما قال شاعرها المعري:

متى سألت بغداد عني وأهلها

فإني عن أهل العواصم سائل

وسميت أيضاً معرة حمص؛ لتابعيتها مركز الجند هناك، أما نسبة النعمان فهناك أكثر من رواية لهذه النسبة منها:

سميت بذلك نسبة إلى النعمان بن عدي بن غطفان التنوخي[٧] الملقب ساطع الجمال.

وسميت كذلك نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي الجليل، وقد كان والياً على حمص زمن خلافة معاوية وتوفي له ولد في مدينة المعرة فأقام حزناً عليه في هذه المدينة فنسبت له وهذا هو المرجح عندي.

الثالثة: دعيت بالنعمان نسبة للإله الآرامي (النعمان)، ولم تذكر لنا المصادر التاريخية إلهاً للآراميين بهذا الاسم.

الرابعة: دعيت كذلك نسبة لجبل النعمان المطل على المعرة وذلك مستبعد لعدم وجود جبل بهذا الاسم في المنطقة.

إذاً ن المرجح أنها نسبت إلى النعمان بن بشير الأنصاري، وهذا ما أكدته معظم المصادر التاريخية.

والخلاصة أن ما ذكر من أسباب في تسمية المعرة واشتقاقات لفظتها ونسبتها للنعمان لا يمكن الجزم بأي منها لأن الأسماء لا تعلل غالباً، ولأن التماس العلة لا يخلو من بعد عن الحقيقة ما فيه من التكلف ومذاهب الظن[٨].

٣ـ **تاريخها**:

تعاقبت على المعرة ضروب من الكوارث والغزوات المفجعة والزلازل المدمرة شأن معظم البلدان الشامية التي ظلت ردحاً من الزمن مسرحا لأعمال عسكرية مرعبة ومطمعاً تتطاحن الغزاة للهيمنة عليها مما أدى الى طمس معالمها

وتشويه نضارتها وبذلك فقدت معظم مبانيها ورسومها بدءاً من غزوات فرعونية وآشورية ويونانية وفرس ورومان وبيزنطيين وغيرها...)

وفي سنة (١٥) هجرية دخلها أبو عبيدة وصالح أهلها على الجزية وكان يقال لها حينئذٍ (معرة حمص)[٩]. ومن ثم ألحقت بحلب.

وفي سنة (١٧٠)هجرية. جعلها الرشيد من العواصم ولما تولى عبد الله بن طاهر ولاية سورية في عهد المأمون سنة (٢٠٧) هجرية. خرب حصون المعرة بأعماله الحربية ضد نصر بن شابث كما خرب غيرها من الحصون كحصن حناك وحصن الكفر وغيرها...

وفي سنة (٢٨٨) هجرية حاصر المعرة جهير بن محمد التنوخي، وطال أمد الحرب بينه وبين واليها ثم انصرف عنها.

وفي سنة (٢٩٠) هجرية اشتدت شوكة القرامطة ،فهزموا جيش طفج أمير دمشق آنذاك ووصل القرمطي عبد الله وكان يلقب بالمدثر، وقتل بمعرة النعمان بضعة عشر ألفاً وأقام بها ينهب ويحرق وقتل مدة خمسة عشر يوماً.

وفي سنة (٣٢٥) هجرية دخل بنوا كلاب سورية قادمين من (نجد) وتقدموا نحو الملك وكان يحكمها معاذ بن سعيد فخرج للدفاع عنها لكنه لم يفلح، فأسر قسم كبير من جيشه بوساطة أبي العباس أحمد بن سعيد الكلابي حاكم حلب.

وفي سنة(٣٣٣) هجرية زحف أخشيد حاكم مصر بجيوشه لمحاربة سيف الدولة الحمداني حتى وصل المعرة فأخذها.

وفي سنة (٣٥٧) هجرية.إبان العهد البيزنطي استولى نقفور الثاني فوكاس ملك الروم البيزنطيين على المعرة وقام بتخريب جامعها.

وقد قتل العديد من الناس ولما استولى قرعونة غلام سيف الدولة على حلب انضم زهير حاكم المعرة إلى الحمدانيين وهجم معهم على حلب من منبج. وفي سنة (٣٦٣) هجرية. كانت ولادة الشاعر أبي العلاء المعري وكانت المعرة حينها تحت سيطرة الدولة الحمدانية وأميرها سعد الدولة الذي افتتح المعرة، داخلا إليها من باب حناك.

وفي سنة (٣٦٤) هجرية حاصرها بكجور، وأحرق باب حمص وهو أحد أبواب المعرة.

وفي سنة (٣٩٦) هجرية ثار مملوك سيف الدولة (رماح) واعتصم بالمعرة فقام سعد الدولة ومعه لؤلؤة بمحاصرة المعرة ولكنهما تراجعا عنها إلى حلب خوفاً من بنجكتين.

أما في سنة (٤١٨) هجرية وصل أسد الدولة صالح بن مرداس، صاحب حلب إلى معرة النعمان وأمر باعتقال أكابرها بعد أن حاصرها ونصب عليها المجانيق ذلك بأن امرأة صاحت في الجامع يوم الجمعة قائلة أنها تعرضت لمحاولة اعتداء من صاحب الماخور فنفر جميع من في الجامع[١٠] فهدموا الماخور وأخذوا خشبة ونهبوه. وكان أن استنجد صاحب الماخور بصاحب حلب صالح بن مرداس فحضر الى المعرة واعتقل بعضا من أهلها ثم صادر أملاكهم فاستنجد أهل المعرة بالشيخ الجليل أبي

العلاء المعري فخرج أبو العلاء يتوكأ على شخص وفتحت البوابة فقيل لصالح:

أن رجلا مقادا قد قدم إليه من المعرة فعرف أنه أبو العلاء فأذن له بالمثول فسأله أبو العلاء أن يصفح عن المعرة[11]. فاستجاب له وصفح عنها ووهبها له فقال أنشدنا فقال أبو العلاء:

بعثت شفيعا إلى صالح

وذاك من القوم رأى فسد

فيسمع مني سجع الحمام

وأسمع منه زئير الأسد

فقال له صالح لا والله أنا نسمع زئير الأسد وتسمع منا سجع الحمام فوهبه المعرة. وفي سنة (٤٤٩) هجرية وقعت كارثة عظيمة هي وفاة شاعرها وعلمها أبي العلاء المعري وقد رثاه من شعراء المعرة أبو الفتح حيث قال:

قصدتك طلاب العلوم ولا أرى

للعلم بابا بعد بابك يقرع

وفي سنة (٤٦٢) هجرية عاث الأتراك السلاجقة فسادا في أرض المعرة وأتبع النكبة تاج الدين تتش السلجوقي لما زحف بجيشه من دمشق نحو المناطق الشمالية فاحرق جبل السَماق (جبل للمعرة) وغرم أهلها مبالغ باهظة ونهب القرى شرقي المعرة[12].

٤ـ المعرة والحروب الصليبية:

كانت المعرة (١٥) بوابة العبور لجيوش الفرنجة المتجهة الى القدس كونها قريبة من إمارتهم أنطاكية. وقد حاصروا قلعتها التي اعتصم سكان المعرة فيها خوفا من جيوش الفرنجة الزاحفة طمعا بالاستيلاء على مايمتلكه هؤلاء السكان

ويذكر المؤرخ الفرنسي جارسيه آن محاولة صليبية حدثت في منتصف عام (١٠٩٨) م. لاحتلال القلعة الا أنها باءت بالفشل الذريع لشدة تحصين القلعة ومنعتها. لا أنهم استطاعوا دخولها في أواخر عام (١٠٩٨) ونهبوا كل ماوقع تحت نواظرهم وقتلوا من وقف في طريقهم واعتقل كثير من الناس فسيقوا إلى إنطاكية لبيعهم عبيدا هناك وتذكر مآس كثيرة حول مجزرة القلعة فقد بقرت بطون المقاتلين الموتى بحثا عما كانوا قد يظن أنهم ابتلعوا من أشياء ثمينة كما ذكر المؤرخ في الفرنجي (البيركس) الذي شارك شخصيا في تلك المجزرة بنفسه حيث قال:

(لم تكن جماعتنا لتأنف من أكل قتلى الأتراك والعرب بل كانت تأكل الكلاب أيضا). وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد القتلى خلال هذه المجزرة (١٦). وذلك لكثرة العدد حيث شمل القتلى المدافعين وسكان القلعة ومن اعتصم فيها من رجال ونساء وأطفال. ومن ثم خضعت المعرة للعثمانيين، ومن بعدها للانتداب الفرنسي. فأخضعت لنظمه وقوانينه وشارك أهل المعرة في الثورات السورية عنها أسوة بباقي مدن الجمهورية العربية السورية في نيسان عام /١٩٤٦/.

٥ـ أهم المباني الأثرية في مدينة المعرة:

خان مراد باشا:

في المعرة العديد من المباني الأثرية التي صمدت في وجه عاديات الزمن أهمها على الإطلاق مبنى (خان مراد باشا) وهو أجمل أثر عمراني يعود تاريخ بنائه إلى مطلع العهد العثماني (٩٧٤) هجرية. وقد بناه مراد باشا جلبي كمكان خيري ووقفي

للفقراء وأبناء السبيل والحجيج مع دوابهم وذلك بموجب نص وقفي نقشه الباني فوق قنطرة المدخل الرئيس وقد أوقف الباني عدة منشآت اقتصادية لتفي حاجات النزلاء.

يتألف البناء من أربعة أجنحة مصلبة السقوف تتقدمها أروقة على عضادات حجرية بقناطر مدببة وسقوف معقودة وضم كل جناح أربعة مصطليات تنتهي على السطح بأبراج حجرية مثمنة وبين كل جناحين معبر يضم عدة غرف وفي وسط الباحة يقوم بناء التكية ويتقدمه بناء المسجد ومن الجهة الغربية من الخان هناك المرافق الخدمية والاقتصادية من سوق تجارية وحمام وفرن ومستودعات غلال وغرفة مدار لتوزيع المياه إلى كافة أقسام المنشأة ويتربع المبنى على مساحة قدرها سبعة دونمات.

واستمرت هذه المنشأة مستخدمة للغاية التي أنشئت من أجلها حتى بداية القرن العشرين حيث ضعفت وارداتها وبعثرت أوقافها فألحقت بأوقاف الجامع الكبير بناء على وصية الواقف. وبدأت الأخيرة بتأجير هذا المبنى كأقسام لغايات مختلفة مما أضعف البناء وتدهورت حالته العمرانية إلى أن سارعت المديرية العامة للآثار والمتاحف بإنقاذ هذا المبنى من براثن الهدم والتقويض وذلك باستصدار مرسوم جمهوري يقضي بترميم هذه المنشأة وتحويلها إلى متحف يضم آثار المدينة الخالدة.

بدأت فعلاً ورشات الترميم بعملها في مطلع عام /١٩٨٣/ وشملت كافة أركان البناء ودشن كمتحف في ربيع عام /١٩٨٧/ وأصبح المبنى وكأن بناته قد فرغوا منه للتو.

وتم عرض الآثار فيه حسب التسلسل الزمني إلا أن المادة الأثرية الغالبة على متحف المعرة هي الفسيفساء ومرد ذلك لكثرة هذه المادة في منطقة المعرة وما حولها.

والفسيفساء مظهر عمراني الغاية منه تزيين أرضيات وجدران المعابد والكنائس والمباني الهامة، وفي متحف (المعرة) العديد من هذه اللوحات الرائعة ذات الموضوعات والغايات المتعددة فمن قصص أسطورية ميثيولوجية الى زخارف نباتية وهندسية بديعة ومن أجمل هذه اللوحات لوحة فسيفساء (هرقل) و(فركيا) ومعرشورين





ولوحات أخرى يقصر المجال عن ذكرها الآن. ونترك المجال للزائر ليقف عن كثب على هذه الحضارة والموروث الثقافي الذي يمثل العمق التاريخي للإنسان العربي.

الجامع الكبير:

يعتبر هذا الجامع متحفا طبيعيا لما يحتويه من عناصر معمارية رائعة يعود إلى عدة عهود مضت يعتبر هذا الموقع قلب المدينة القديمة والبقعة المقدسة التي كرست للعبادة منذ آلاف السنين فيها حدث التفاعل بين العديد من ديانات الشرق العربي وفيها تطورت ثقافات شعوبه وتمازجت أفكارهم وفنونهم تمازجا رائعا نشهد أثره في كل شبرمن هذه الأرض وفي كل عنصر من عناصرها المعمارية والزخرفية.

فقد كان معبدا وثنيا وكانت تبرز عناصر زخرفية على مدخله من الشرق متمثلة برأس ثور وقرص الشمس وحين غدت المسيحية دين الدولة الرسمي في أواخر القرن الرابع الميلادي تحول المعبد الوثني إلى كنيسة كبرى ولما قدم العرب المسلمون يحررون بلاد الشام من الحكم البيزنطي وذلك سنة ستمئة وخمس وثلاثين دخل أبو عبيدة بن الجراح وصالح أهلها على الجزية في رؤوسهم والخراج في أراضيهم وتم تحويل الكنيسة العظمى الى مسجد صلحا معه وذلك سنة /١٧/ هجرية. وقد أحرقه البيزنطيون /٣٥٧/ هجرية /٩٦٧/ م. ثم أحرقه الصليبيون سنة /٤٩٢/ - /١٠٩٨/ هجرية.

يتألف الجامع من الحرم الجنوبي والحرم الشمالي (الحجازية) وقد أقيم سقفه على أعمدة أسطوانية وركائز حجرية وعقدت السقوف بشكل مصلب ويضم الحرم القبلي المحراب والسدة والمنبر الخشبي ويوجد في صدر الحرم نص وقفي يعود تاريخه الى /٧٧٥/ هجرية أيام كانت

المعرة تابعة إلى /مملكة حماة/ وذلك في العهد المملوكي ويحتوي هذا الحرم على ثمانية أبواب وعدد من النوافذ الحجرية وللسقف ست قباب مدببة جميلة والحرم الشمالي له المواصفات نفسها حيث بني بالتاريخ نفسه وللجامع صحن مكشوف ومبلط ببلاط حجري جميل ويتوسط الصحن الميضأة والمزولة ولعل أهم عنصر معماري في هذا الجامع هو المنارة، وتتألف من ستة أبراج تعلوها غرفة تقوم على عضادات حجرية وسقفها بشكل قبة مدببة، ويعود تاريخها أي تاريخ

بناء هذه المنارة إلى /٥٧٥/ هجرية والباني هو قاهر بن علي بن قانت، ونقش اسمه في أسفل البرج الأول. تتميز هذه المنارة بزخارفها ودقة نحت حجارتها وتشبه الى حد بعيد منارة الجامع الأموي بحلب إلا أن مظاهر الجدة والإتقان بادية أكثر في منارة (المعرة).

وذكر الرحالة ابن جبير بأن الجامع الكبير كان يصعد إليه بثلاث عشرة درجة، الأن تراكم الخراب للمدينة نتيجة الزلازل والغزوات أدى الى خفض منسوب الجامع الكبير وصار ينزل إليه بست عشرة درجة.

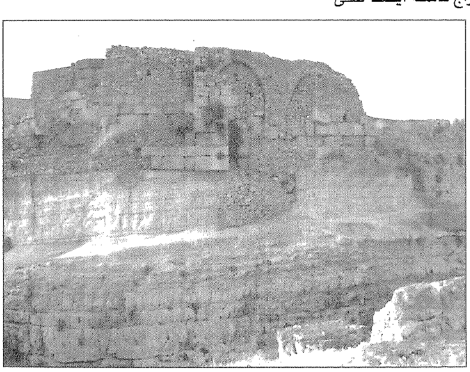
قلعة المعرة:

تعتبر من المواقع العسكرية الأثرية الهامة، وتتميز بتوضعها فوق نشز صخري ومرتفع طبيعي ويحيط بها مجرى نهر الهرماس الفصلي، كما تتميز بخندقها العظيم الذي يحيط بها احاطة السوار بالمعصم وهو بعرض /١٣/ م. وعمق /١٠/ م. وللقلعة تسعة أبراج قائمة أيضا على قواعدها المتروكة أيضا على الصخر وتقع الى الشمال الغربي من مدينة المعرة.

كما تضم القلعة من الداخل عددا من الأبنية المتنوعة فهناك بناء مسجد في وسط القلعة وقد كان بالأصل كنيسة، وهناك أقبية وسراديب استخدمت كملاجئ للاحتماء بها من غارات العدو وهناك:

أبنية سكنية وغيرها إلا أن هذا الموقع لم يحظ بأي دراسة أو رفع هندسي وأثري وتقوم حاليا المديرية العامة للآثار والمتاحف بإعداد إضبارة استملاك لهذا الموقع لإيلائه مزيدا من الدراسة والاهتمام والترميم.

ويعود تاريخ بناء هذه القلعة إلى القرون الميلادية الأولى ومن ثم جددت ورممت في العهد الأيوبي وذلك سنة /٦٣١/ هجرية.



المدرسة الشافعية:

وتقع في المحلة القبلية، وينسب العامة وبعض الباحثين بناءها توهما إلى نور الدين الشهيد محمود زنكي، كما ينسب بعض الباحثين بناءها إلى عهد الملك المنصور الأول أحد ملوك حماه ولكن هذه المدرسة في الحقيقة قد بنيت في زمن الملك

المنصور المشار إليه سنة /٥٧٥/ هجرية الموافق / ١١٧٩/ م. أما نسبة بنائها إلى نور الدين فغير صحيحة.

وللمدرسة مدخل جميل جدا تقوم فوقه قنطرة كبيرة تستند إلى دعامتين بارزتين الى الأمام ويتسم هذا المدخل بزخارفه ونقوشه الهندسية النخروبية، وقد قام ببناء هذه المدرسة قاهر بن قانت وهو نفسه باني منارة الجامع الكبير.

كما تحوي المدرسة مقاما لنور الدين، أما القسم القبلي من البناء فسقفه على شكل نصف كروي بنيت قبته من الحجر ولها أعناق. ويعلو المدخل نص توثيقي يذكر القائم على البناء.

مسجد يوشع بن نون:

يقع في المحلة القبلية من المعرة، وله مدخل جميل باتجاه الغرب تعلوه قنطرة ذات مصطبتين جانبيتين ومن فوق المدخل تتوضع كتابة نافرة بالخط النسخي الأيوبي تشير الى المصلح والباني (الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي) والى تاريخ البناء سنة / ٦٠٤ - ١٢٠٧/ هجرية والى المتولي (مرشد بن سالم بن المهذب).

وفوق برج المدخل مئذنة مثمنة الشكل أقيمت عليه وللمسجد ساحة صغيرة مربعة الشكل تقريبا وفي شمالها غرفتان غربية اتخذها بعض القراء مكتبا لتعليم القرآن أو الصلاة وغرفة شرقية يقال أن فيها قبر يوشع بن نون، وهي تضم تابوتا خشبيا مغطى بقماش (أخضر) وشكلها مربع تعلوها قبة نصف كروية تستند إلى قناطر أربع وقد كتب على بابها الخشبي بعد البسطة البيتان الآتيان:

هذا المقام به النجاة لزائر
وبجاهه الأوزار عنا ترفع
من أمه نال المنى في العلا
وغدا ينادي يوشع يا يوشع

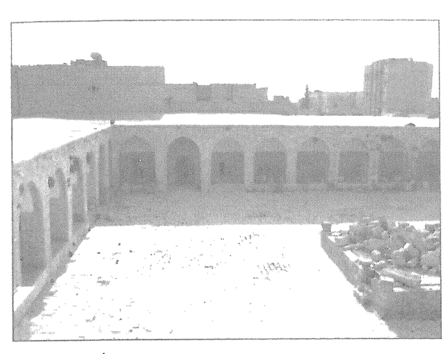
وقد توهم بعض العامة والباحثين بأن هذا الموقع يضم رفاة النبي يوشع إلا أن أكثر المؤرخين أجمعوا على أن دفنه في أرض ميراثه في نابلس وقتل في جنوب نابلس حيث هنالك مكان مقام (يوشع).

قبر أبي العلاء المعري:

وقد احتضنه بناء حديث خصص كمركز ثقافي، وهذا الموقع بالأصل هو دار (أبي العلاء المعري) ويقع المبنى في وسط شارع (أبي العلاء) وخصص القبر القبر بإيوان يطل على الشمال والقبر متواضع بسيط وكتب على شاهدته بخط كوفي مزهر: (أبو العلاء بن عبد الله بن سليمان، رحمه الله)

خان أسعد باشا العظم:

بني هذا الخان من قبل والي دمشق أسعد باشا العظم وهو من مواليد مدينة المعرة ويعود تاريخ البناء الى سنة /١١٦٦/ هجرية. وهو مؤلف من أربعة أجنحة وطابق علوي لإقامة كبار التجار وفي وسط الباحة مصلى صيفي ويتقدم الأجنحة أروقة بعضادات وقناطر مدببة تتحلق حول الباحة السماوية. ويقع البناء بالجهة القبلية من شارع (أبي العلاء) ويقابل بناء خان مراد باشا ويفصل بينهما ساحة صغيرة يتقدمها تمثال نصفي (لأبي العلاء المعري).



وهناك مبان أثرية أخرى جديرة بالزيارة الأن المجال يقصر عن ذكرها ونترك المجال للزائر أن يقف عليها عن كثب ليرى بأم عينه هذه الحضارة المجيدة التي مازال الإنسان العربي الذي ما فتئ يفرز ويغذي الحضارة العالمية بالعديد من هذه الأوابد الشامخة ويحسن بنا أن نحذو حذوهم لنكون في مصاف الأمم المتقدمة والراقية.

٦ـ أهم المواقع الأثرية في منطقة المعرة:

لعل أهم ما تفخر به منطقة المعرة احتواء رفاة الخليفة (عمر بن عبد العزيز) الذي ملأت شهرته الدنيا بورعه وزهده وعدله، حتى اعتبر خامس الخلفاء الراشدين.

٦-١- ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز:

يقع في قرية الدير الشرقي (جنوبي المعرة) بـ /٥/كم. ضمن بناء بسيط متواضع مؤلف من بناء يضم ثلاثة أواوين ومحراب وفسحة سماوية. ويقع القبر وسط هذه الفسحة وعلى يسار الضريح قبر أبي زكريا المغربي وكان قيما على الموقع والقبر الثالث لزوجته فاطمة بنت عبد لملك ويعود تاريخ البناء الى العهد الأيوبي.

وقد دفن الخليفة عمر في هذه القرية وذلك أثناء عودته من دابق حيث كان يتفقد أحوال جيش المسلمين المرابطين على الحدود مع الروم البيزنطيين، الأن أحد خدمه دس السم بايعاز من أعداء الخليفة عمر وقد أحس الخليفة عمر بهذا الأمر وكان أن استدعى خادمه وأبلغه أن يتكلم خشية عليه، واشتد المرض على الخليفة فأقفل راجعا الى دمشق، وفي خناصرة خطب الجمعة وصلى اماما في الناس واشتد عليه النزع ووصل الى دير الشرقي (دير النقيرة) حيث اشترى مكانا لقبره من الراهب على أن يسوي القبر بعد خمس سنوات وتوفي في الموقع نفسه ودفن وكان ذلك سنة /١٠١/ هجرية. وعاش بذلك أربعين عاما قضاها بالزهد والعدل وإنصاف الناس. وهذا ما أكدته جميع المصادر التاريخية على صحة دفنه في هذه القرية وقد أقامت وزارة الثقافة متمثلة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف بإنشاء قبة تكريمية للبناء وأجراء ترميمات في المبنى ومن ثم تحويل المقبرة المحيطة بالبناء إلى حديقة غناء، وقد نفذت القبة بأعناق ونوافذ على غرار القباب الأيوبية.

وغدا بذلك هذا الموقع رئة ومنتجعا

يؤمه السياح من كافة أصقاع الأرض.

٦-٢- المدن البائدة (المهجورة) في منطقة المعرة:

تضم منطقة المعرة العديد من المدن البائدة، التي كانت مراكز حضارية ولعبت دورا هاما عبر تاريخ هذه المنطقة، وقد انتشرت هذه المدن فوق جبال ومنحدرات وسفوح الكتلة الكلسية الممتدة من شمالي آفاميا وحتى شمال غرب حلب مرورا بجبل (شحشبو) و(الزاوية) و(الوسطاني) و(باريشيا) حتى جبل سمعان ويقدر طول هذه السلسلة بـ /١٤٠/ كم. وعرض/٢٠/-/٤٠/ كم. في هذه الجبال وفي ودیانها قام العديد من المواقع والقرى الأثرية، والتي يطلق عليها خطأ المدن الميتة أو المدن المنسية. ويعود تاريخ بناء هذه المواقع الى الفترة الواقعة بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين ويبلغ عددهذه المواقع أكثر من /٧٥٠/ موقعا أثريا.

ولهذه المدن ميزات معمارية وفنية برز ذلك في نسقها المعماري من حيث التنوع الخصب فمن منشآت دينية إلى اقتصادية وفنية وسكنية وغيرها. وكانت هذه المواقع محط أنظار الغزات الطامعين لما تتميز به من غنى اقتصادي وقد انقطع نسغ الحياة عن هذه المواقع بعد القرن السابع الميلادي، وذلك لعدة أسباب أهمها الغزو الفارسي ووقف الاقطاعات ومنع تصدير الزيوت والخمور الى روما والقسطنطينية وانتشار المرض وأسباب أخرى.

الا أن الحياة بقيت مستمرة في بعض هذه المواقع حتى العصور الإسلامية الوسيطة لاسيما في البارة وسرجلا وخربة شنشراح وغيرها.

٦-٢-١- خربة شنشراح (حاس):

هي احدى مدن المنطقة الأفامية في العهد الروماني ومن أبرز مدن جبل الزاوية من حيث طرازها المعماري من جهة، ومن حيث موقعها الاستراتيجي من جهة أخرى. وتقع هذه المدينة الى الشمال من كفرنبل بـ (٥) كم. والى الغرب من المعرة بـ (١٥) كم. ويصل إليها طريق معبد، وتتميز هذه المدينة بتوضعها فوق هضبة كلسية واسعة وتطل من الشرق على سهول فسيحة واسعة وقد ذكرها الشعراء والمحدثون حيث قال أحدهم:

وزمان لهو بالمعرة مونق
بسياثها وبجانبي هرماسها
أيام قلت لذي المودة أسقني
من خندريس حاسها أو حيشها

ابتدأ السكن في خربة شنشراح منذ مطلع القرن الرابع الميلادي واستمر حتى العصور الوسطى وكانت معظم أراضيها مغطاة بأشجار الزيتون والكرمة وغالبية مبانيها ترقى الى القرن الرابع والخامس الميلاديين وتنتشر على مساحة واسعة وهي متنوعة العمران ومكتظة بالمباني فمنها ما هو سكني واجتماعي وديني ودفني وقد شيدت جميعها بحجارة كلسية كبيرة الحجم وبمستوى عمراني رفيع ومن جودته لم يتطلب وضع بلاط أو مؤونة بين صفوف مداميكها. ويعتبر تاريخ هذه المدينة جزء من تاريخ معظم المدن والمواقع المحيطة بها (البارة - سرجلا بعودا).

ولها أهميتها من حيث وقوعها بمفترق طرق بين أفاميا وانطاكيا وقد تعرضت هذه المدينة للتدمير عام /١٠٩٩/ م. على يد الفرنجة فضلا عن الزلازل المرعبة التي

تعرضت لها هذه المدينة.

وقد استخدم الفرنجة هذه المدينة كمكان حصن لهم الى أن حررها (نور الدين محمود زنكي) مع غيرها من المدن المجاورة وذلك عام (١١٥١).

ومن أهم مبانيها:

الكنيسة:

تقع إلى الشمال من المدينة. ولا زالت تحتفظ بكامل عناصرها المعمارية إلا أن التخريب قد أصابها نتيجة الزلازل والحروب التي أصابت هذه المدينة. يتألف بناء الكنيسة من صحن مركزي ينتهي إلى الشرق بالحنية ويحيط بها غرفتان مجاورتان عن يمين وشمال الحنية.

فضلا عن رواقين يحيط بها الصحن المركزي، وقد بنيت هذه الكنيسة بحجارة كلسية بيضاء كبيرة الحجم ومنحوتة بشكل جيد وقد قام الرواقان على أعمدة اسطوانية تنتهي من الأعلى بتيجان أيونية الطراز. ويرقى تاريخ الكنيسة إلى القرن الرابع الميلادي ويعتقد بأن أرضية هذه الكنيسة رصفت بلوحات فسيفسائية إلا أنها لا تزال تنتظر كشف النقاب عنها.

البرج:

ويقع منفردا إلى الجنوب الشرقي من المدينة بمسافة (٥٠٠) م. والغاية منه للمراقبة وهو مؤلف من ثلاثة طوابق، وقد استخدمه مؤخرا الفرنجة كحصن منيع لهم.

الدارات:

تتميز هذه المباني بنسقها المعماري الرائع، وقد بنيت جميعها بأحجار كلسية كبيرة الحجم ومعظمها مؤلف من طابقين وقد قام الطابق العلوي على قوسين وسطيين حجريين، بينما السقوف فمنها هو مستو وكان يغطى بألواح خشبية وقرميد من فوقه والنموذج الآخر للسقوف

هو الجمالوني وهو الطراز الذي انتشر بشكل كبير في المدن المهجورة في جبل الزاوية.

ويتوسط هذه المدينة بناء مسجد (٣،٥× ٤) م. يرقى الى العهد الأيوبي وهذا دليل استمرار السكن والحياة في هذه المدينة حتى العصور الوسطى. وتتميز أيضا خربة شنشراح بأحتوائها على صهاريج مياه أرضية، وهي بالأصل مقالع حجرية استغلت كصهاريج مياه.

أما المباني الدفنية فهي على أنواع منها مدافن جماعية تحتوي على عدة قبور وقد نحتت بالصخر

الحواري ومنها أيضا مدافن فردية وقد انتشرت هذه المدافن حول المباني السكنية.

٦-٢-٢- الدانا:

ويطلق عليها الدانا الجنوبية تميزا لها عن الدانا الشمالية (دانة الحلقة) وتقع إلى الشمال من مدينة المعرة بـ(٧)كم. والى الغرب من قرية بابيلا بـ (٣)كم. وتحتوي هذه القرية على موقعين أثريين هامين هما بناء الدير في الشمال من القرية ويحتوي على ثلاثة طوابق وهو نسيج وحده بأروقته وبهائه. أما المبنى الآخر فهو القبر الهرمي، وهو يشبه الى حد بعيد القبور الهرمية في البارة وهو شامخ الأركان ويلفه صف زخرفي بديع قوامه ورقة الخرشوف ويتقدم

القبر الهرمي من الأمام رواق معمد.

٦-٢-٣- الجرادة:

وعلى رمية من الدانا تقع مدينة الجرادة التاريخية الى الشمال منها بـ (٢)كم. وتتميز المدينة بأبنيتها الدينية المتمثلة ببناء الكنيسة والأبراج الشاهقة ومدافنها المتنوعة وداراتها الغنية والنسق المعماري في جوانبها. كما تحتوي على



تجمعات سكنية مليئة بالشوارع والحوانيت ودور السكن ويعود تاريخ بناء هذه المدينة الى القرنيين الرابع والخامس الميلاديين.

ومن أهم آثار (جرادة):

دارات السكن:

تمتاز هذه الدارات بالغنى المعماري والاتساع مع وجود ملحقات بالأبنية، ويدخل اليهامن باب يعلوه أحيانا برج، بينما قامت غرف السكن في الطابقين الأرضي والعلوي في جناح خاص يتقدمه رواق محمول على أعمدة أنيقة تطل عليه أبواب الغرف والنوافذ الفنية بزخارفها البديعة. أما سقف الطابق الأرضي والذي يشكل بنفس الوقت أرضية الطابق العلوي فكان مؤلفا من بلاطات حجرية كبيرة تستند على أقواس بينما كان سقف الطابق العلوي من الخشب والقرميد. وقد بنيت هذه الدارات بأحجار كلسية منحوتة، وأعتمد في ترابط الأحجار مع بعضها على دقة النحت وتضم مدينة (جرادة) في وسطها بناء كنيسة متهدمة وترقى الى القرن الخامس الميلادي.

الأبراج:

ينتصب في مدينة جرادة الأثرية عدد من الأبراج الأثرية وهذه ميزة تنفرد بها جرادة عن غيرها من المدن البائدة، وقد استخدمت هذه الأبراج لغايات مختلفة فأما أن تكون للحراسة الدفاع أو لإقامة النساك، ومنها ماكان مؤلفا من طابق واحد أو أكثر. أما البرج المميز في مدينة جرادة فهو البرج الواقع في وسط خراب هذه المدينة ويبلغ ارتفاعه (٨)م. وطول ضلعه (٥،٥) م. وقد أحدث في واجهاته نوافذ صغيرة لإدخال الضوء عدا الطابق الأخير الذي أنشئت له نوافذ عريضة على شكل صليب، كما يحيط بجهاته الأربع شرفة بارزة.

المباني الدفنية:

ومدينة جرادة كغيرها من المدن الأثرية كان لها نصيب وافر من المباني الدفنية الجماعية.

وقد انتشرت غرب المدينة وترقى الى القرن السادس الميلادي. كما انفرد عدد من النواويس من الجهة الغربية من المدينة.

الكنيسة الجنوبية:

قوامها صحن ينتهي من الشرق بحنية ولها رواقان يقومان على صفين من الأعمدة الاسطوانية. وتزينها تيجان أيونية وهي مبنية من حجر كلسي منحوت كبير الحجم وبجوار هذه الكنيسة من الجنوب يقوم بناء على أعمدة ثمانية تنتهي في الطابق العلوي وكان مقر تنسك لمتعبده ويعود تاريخ بناء هذه الكنيسة الى القرن الرابع الميلادي.



٦-٢-٤- مدينة الرويحة الأثرية:

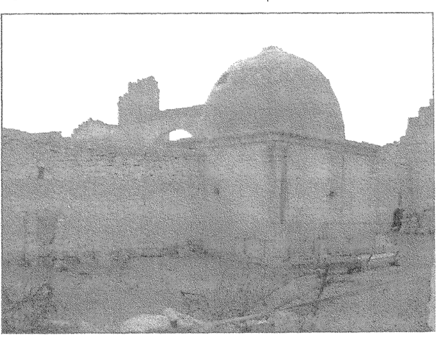
تقع هذه المدينة من الشمال الغربي من مدينة الجرادة، وتتصل معها بطريق اسفلتي معبد وتبعد عنها حوالي (٣)كم. ومدينة الرويحة، عظيمة الشأن قوية البنيان، تمتاز بتنوع مبانيها السكنية والدينية والدفنية وهي محط أفئدة السياح العرب والأجانب لما تمتاز به من غنى أثري يعود تاريخ بنائها الى القرنيين الرابع والخامس الميلاديين. وأهم مبانيها:

الكنيسة الشمالية:

تتألف هذه الكنيسة من ثلاثة أجنحة تفصل بينهما مجموعتان من العقود محمولة على ثلاثة أقواس تستند على ركائز تشبه (قلب لوزة) وباني هذه الكنيسة هو بيزوس بن باردوس، بدليل وجود كتابة يونانية في مدخل الكنيسة الرئيس تذكر اسم الباني الآنف الذكر. ويرقى تاريخ هذه الكنيسة الى القرن السادس الميلادي.

قبر بيزوس:

ويقع ضمن حرم الكنيسة الشمالية يتميز هذا القبر بطرازه المعماري الرائع ويعتبر من أهم المباني الدفنية في المنطقة. يتألف بناء المدفن من غرفة مربعة الشكل أقيم سقفها بشكل نصف قبة شكلها كروي وأحجارها كلسية منحوتة ومقعرة من الداخل ومحدبة من



الخارج ولم يستعمل الباني أية مؤنة في تثبيت الأحجار بل اعتمد في الترابط على دقة النحت كما زين جدران المدفن من الخارج بطوق مزخرف وتوجد كتابة باليونانية حفرت على الجدار الخارجي وترجمته: (بيزوس بن باردوس، أقمت حسنا، تجولت حسنا، وأرتاح الآن حسنا) (صلوا من أجلي)

المباني السكنية:

تعتبر مدينة الرويحة من المدن ذات التجمع السكاني في جبل أريحا وتمتاز بداراتها السكنية الجميلة التي تمتاز بنسقها المعماري وريازتها، وتتألف دور السكن بشكل عام من قسمين يقومان حول باحة أحدهما مخصص للسكن ويتألف من طابقين والآخر يحتوي على المدخل والى جانبه الإسطبل. وغالبا ماكان طابق المسكن العلوي مجهزا بشرفات واسعة تقوم فوق رواق الأعمدة لتطل على باحة الدار ومن بين الدارات الجميلة في مدينة الرويحة نميز أربع دارات تجمعها صفة وجود الطابقين المخصصين للسكن وإطلالتهما على الباحة. مع وجود الزخرفة في نوافذ ونجفات الأبواب وخاصة المدخل وسنتحدث عن أحدى الدارات التي تعود الى القرن الرابع الميلادي، حيث أنها نموذج للدارات الكبيرة وتحتوي على كتابة باللغة اليونانية وترجمتها: (في سنة ٤٤٤ وفي الثالث من شهر بانيموس ويوافق ذلك تموز ٣٩٦ م).

ومخطط هذه الدار عبارة عن مربع كبير امتد جناح السكن في قسمه الشمالي وهو مؤلف من طابقين في كل منهما أربع غرف وأمام الجناح رواق من الأعمدة ذات طابقين تشكل مساندا للشرفة التي يطل منها من الطابق الثاني على الباحة. أما من الجهة الغربية للدار فتوجد غرفتان للسكن قام بينهما المدخل على شكل بوابة انتهت بقوس وفوق المدخل فقط هناك طابق علوي يبدو كالبرج خصص لإقامة البواب. أما الجهة الجنوبية الشرقية من الباحة فقط فقد قام الإسطبل لإيواء الحيوانات. وتبدو روعة الفن المعماري في القرن الرابع بزخرفة الأعمدة الحاملة للشرفة أمام طابقي السكن وقد زينت تيجان الأعمدة الأيونية بمختلف أنواع الزخرفة المعروفة في ذلك العصر.

وبعد فهذا مختصر عما تحتويه منطقة المعرة من مواقع هامة جديرة بالزيارة والبحث والتأمل، فضلا عما تحتويه من تلال أثرية ينوف عددها عن التسعين تلة مسجلة في سجلات المديرية العامة للآثار والمتاحف. وهو يعبر وبحق عن أن سوريا هي مهد الحضارات وهي صوت التاريخ.

المراجع والمصادر:

١. تاريخ معرة النعمان لسليم الجندي ج١ ص (١٧)
٢. اللزوميات لأبي العلاء المعري.
٣. القرى الأثرية في سورية الشمالية ج(٣) ج تشالنكو
٤. الرحالة في محافظة ادلب ج(١) فايز قوصرة.
٥. سبائك الذهب للمسعودي ص (١٠٣)
٦. ابن الوردي في ديوانه ص (١٢٢).
٧. معجم البلدان لياقوت الحموي
٨. تاريخ، معرة النعمان، سليم الجندي، ج(١) ص٢٤- ٢٥.
٩. المصدر السابق نفسه
١٠. المختصر في أخبار البشر ج(١) ص(١٦٨) أبي الفداء
١١. الإنصاف لابن العديم
١٢. أحمد وصفي زكريا جولة أثرية في بعض البلاد الشامية
١٣. اللزوميات للأبي العلاء المعري
١٤. راغب الطباخ اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ص(٣٤١) و(٣٤٢).
١٥. محاضرة د. /محمود حريتاني/ الندوة الدولية للآثار في حماه عام (١٩٩٩)م.
١٦. الكامل في التاريخ للابن الأثير
١٧. خطط الشام محمد كرد علي ص (٢٨١) ج (١ - ٢)
١٨. أبي الفداء المختصر في تاريخ البشر
١٩. الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج (١) ص (٢١٧)
٢٠. تاريخ ابن الورد ج (٢) ص (١٦٠) مطبعة الجوائب (استانبول)
٢١. أحمد وصفي زكريا جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ص (١٩٤)
٢٢. السلوك للمقريزي ج (١) ص (٣٦٩)
٢٣. تاريخ ابن الوردي ص(٥).
٢٤. تاريخ معرة النعمان ج (١) ص (١٨١)
٢٥. تاريخ معرة النعمان للجندي ص(١٨٢)
٢٦. المصدر السابق ص(١٨٢)

ثورة الشمال

عبد الرحمن زكور*

١ـ انطلاق الثورة:

كتب الجنرال غورو: ((إن ثورة الشمال التي اندلعت شرارتها بين الفلاحين بقيادة إبراهيم هنانو والمدعو نجيب عويد، جعلتنا نفقد الكثير من عزتنا القومية ومكتسباتنا المادية.))

في بداية عام ١٩١٩تغلغلت القوات الفرنسية من المحور الثاني - اسكندر ون /إنطاكية، بقيادة الجنرال(دولا موت) حتى سهل العمق، وكان الناس متجمهرين في حلب لملاقاة الملك فيصل- الذي لم يصل إليها-، فقام بعض الوطنيين بإثارة حماس هذا التجمع، ونبهوهم إلى دخول فرنسا عن طريق إنطاكية، ومنهم أعضاء وفد كفرتخاريم، الذين عادوا وهم ملتهبون حماساً لمقارعة الفرنسيين.

كان الزعيم (ابراهيم هنانو) وقتها رئيساً لديوان ولاية حلب، وكان الأمير ناصر مقيماً في حلب، فاتفق مع الوالي(رشيد طليع) وابراهيم هنانو، على القيام بثورة ضد الفرنسيين. فاستقال هنانو من



ابراهيم هنانو

المؤتمر السوري الذي كان أحد أعضائه المؤسسين، وتوجه إلى (كفرتخاريم)، حيث ألقى هناك كلمة من شرفة دار الحكومة، قال فيها:

((أيها الناس، أمامكم خياران: إما أن تفّروا وتتركوا أموالَكم وأعراضَكم وأرضَكم، وإما أن تتصدوا للاستعمار الفرنسي الزاحف إليكم من اسكندرون، وأنا في طليعتكم..))

---

* رئيس رابطة المحاربين القدماء في إدلب.

فهتف الناس جميعا: (لقد بايعناك قائداً للثورة).

بتاريخ ١٩١٩/٤/١٠، في إحدى الدور بمحلة الغواص في كفرتخاريم، أعلن هنانو الثورة، خلال اجتماع ضم حوالي سبعين رجلاً منهم: نجيب عويد- يوسف كيالي - ابراهيم عويد - محمد علي جمعة - علي المغربي - نور الدين ومصطفى حميدان - وغيرهم، وشكلت أول مجموعة ثوار من سبعة فلاحين من بلدة كفرتخاريم بقيادة نجيب عويد.

٢ـ معارك الثورة:

كانت أول معركة خاضتها الثورة هي معركة المرَد شمالي سلقين بكيلو متر واحد، حينما زحفت القوات الفرنسية لاستلام ضريبة الأعشار من الموظف المكلف بها في سلقين وتأديبه، بعد ما علمت أنه سلّم الأموال إلى الثورة. فارتدت القوات الفرنسية متكبدة /٨٢/ قتيلاً وغنم الثوار أربعين بغلاً محملين بالعتاد وعشرين رشاشاً. كان نجاح هذه المجموعة في باكورة أعمالها الثورية، حافزاً لتقوية الثورة وتوسيع رقعتها العملياتية.

شكل هنانو[1] لجنة تشريعية رباعية في كفرتخاريم مؤلفة من السادة - نجيب عويد - عزت هنانو - ابراهيم الصرما - محمد الدرويش كيالي، مهمتها جمع المال لتزويد المجاهدين.

قسم هنانو المجاهدين إلى عشرات، (ما يُعرف الآن بالجماعات) وكان ضابط الارتباط بين حكومة حلب العربية وبين المجاهدين، الملازم المجاهد ابراهيم الشغوري، وكان مخلصاً له، فعينه هنانو مرافقاً له، وجعَله أمين سر قيادة الثورة، فظل وفياً له حتى نهاية الثورة.

قامت الثورة على غايات نبيلة وأهداف وطنية سامية، فقد حرَّم زعماؤها على الثوار القيام بأعمال النهب والسلب وإيذاء الأهالي.

وفي أوائل كانون الثاني ١٩٢٠، قام هنانو بجولة في قرى جبل الزاوية، استقبله في (احسم) البطل مصطفى الحاج حسين، واجتمع برفاقه الثوار عبد القادر المصطفى، موسى السرحان، أبو عدله، عمو زمو، نجيب سخيطة، الأسود شعبان من أريحا، ومنصور القاق من سرمين. ثم أذاع هنانو في ٦ كانون الثاني نداءً وطنياً مؤثراً، وكان مما قاله (إني عربي وأعمل باسم العرب لا باسم الترك). فقرر ثوار وأهالي جبل الزاوية مؤازرة الثورة.

عقد هنانو اجتماعاً عاماً في ادلب ضم زعماء أقضية ادلب، كفرتخاريم، جسر الشغور وحارم وجبل الزاوية، منهم: صبحي بركات، عمر

١- ولد ابراهيم بن سليمان بن محمد هنانو عام ١٨٦٩ في بلدة كفرتخاريم، والدته هي كريمة الحاج علي الصرما من نفس البلدة. تلقى دراسته الابتدائية في كفرتخاريم، والثانوية في حلب، ودرس الحقوق في الآستانة. عمل هنانو مدير مدرسة في حلب، لمدة سنة واحدة، ثم عين مديراً للناحية في ضواحي استانبول، وبقي فيها ثلاث سنوات. له ولدان طارق ونباهت. تولت أخته زكية تدبير شؤون البيت والأولاد، وكان يعتمد عليها وتتنقل معه والأولاد طيلة فترة الثورة.
عين قائم مقام بنواحي أرضروم، وبقي فيها أربع سنوات. عمل بعد ذلك مستنطقاً في كفرتخاريم لمدة ثلاث سنوات. انتخب عضواً في مجلس إدارة حلب لمدة أربع سنوات. انتخب مندوباً عن قضاء حارم في المؤتمر السوري. ثم عين رئيساً لديوان الولاية لمدة سنتين، وبقي في المنصب حتى قيام الثورة. بعد انحلال الثورة تولى زعامة الحركة السياسية في سوريا. انتخب عام ١٩٢٨ عضوا في الجمعية الوطنية، واختير رئيسا للجنة الدستور، الذي نشر عام ١٩٣٠. اعتقل عدة مرات. توفي في قريته (ستي عاتكة) في ٢١ تشرين الثاني عا م ١٩٣٥. دفن في حلب. رثاه كثير من القادة العرب والسياسيين والشعراء.

بيطار، مصطفى حاج حسين وعزيز هارون من اللاذقية وغيرهم.

ألقى هنانو بياناً حماسياً بالحاضرين، ثم تفرقوا بعد الاتفاق على القيام بالثورة وشن الغارات على الفرنسيين، وأصدر مفتي الثورة فتواه بالجهاد المقدس، فلبى الكثيرون نداء الواجب.

أصبح لهنانو مركزين لإقامته وقيادة الثورة:

الأول: قرية (كللي) شمال بلدة (معرتمصرين) باعتبارها متوسطة بين جبلي باريشا والوسطاني، وقربها من الحدود التركية. كان يقيم فيها هنانو أغلب الأوقات.

الثاني: في جبل الزاوية، لاتصاله جنوباً بقلعة المضيق وحماة، وغرباً بجبال اللاذقية التي يرابط فيها المجاهد صالح العلي، وكان يدير هذا المركز المجاهد مصطفى حاج حسين وأعوانه.

كان هنانو زعيم ثورة الشمال السياسي والمخطط لأعمالها، أما نجيب عويد فهو قائد جيشها والمنفذ لهذه الخطط.

بلغ عدد المعارك التي خاضها ثوار الشمال /١١٧/ معركة. وسأذكر هنا بعض المعارك الرئيسة منها:

١- معركة اسقاط:

في ١/ أيلول/١٩٢٠ رجع هنانو ليجمع رجاله في قرية سقاط، وينظم صفوفهم للانطلاق وكان عدد قواته (٧٠) مجاهداً. جرت معركة في أزقة القرية مع الفرنسيين، سقط فيها ٣ شهداء من الوطنيين هم (مصطفى عويد. محمد وهبي. وعبدو الهندي من اسقاط) وجرح واحد، بينما قتل (١٣٤) جندي من الفرنسيين وكسب الثوار بعض الغنائم. نُظمت محاكمة لمختار القرية المتعاون مع الفرنسيين وجاسوس آخر، وحكم عليهما بالموت رمياً بالرصاص فوراً. وكانت هذه المعركة سبباً في تدعيم أساس الثورة في الشمال.

أذاع هنانو بياناً على شكل منشور يتضمن ما يلي:

((من العرب إلى العرب: - يجب ألا نرضخ صاغرين لحكم الاستعمار الجائر، ونحن خير أمة أُخرجت للناس، لقد خدعنا الفرنسيون ونزلوا أراضينا بحجة حمايتنا وصيانة استقلالنا، وما ذلك إلا إفك مبين، لقد استولوا على بلادنا واقفلوا مؤتمراتنا، وبددوا جندنا، واعتقلوا وجهاءنا، وأحرقوا قرآننا وهتكوا أعراضنا، واتخذوا من الأديان المقدسة ستاراً لتحقيق مطامعهم الدنيئة... وختم هنانو بيانه باستصراخ ضمائر الدول الأجنبية، داعياً حكامها أن يتوسطوا لحقن الدماء، والحؤول دون سفك دماء جديدة، سيظل الشعب السوري يبذلها دفاعاً عن حريته وكرامته.)).

في ٧ أيلول ١٩٢٠ ذهب هنانو إلى تركيا لطلب المعونة،، واجتمع في مدينة مرعش مع قائد الفيلق الثاني التركي (الزعيم صلاح الدين عادل) واتفق معه أن تقوم الحكومة التركية بتزويد الثورة بالأسلحة والذخائر كهدية، كما أمده بقوة عسكرية حملت علماً يمثل الثورتين التركية والسورية الشمالية (الوجه الأول العلم العربي، والوجه الثاني العلم التركي) مؤلفة من ٢٠٠ جندي نظامي، قامت بجولة

يرافقها عدد من المجاهدين منهم (عقيل السقاطي. حبي اللاذقاني. خيرو القصاب. محمد علي عفارة) مرت بجسر الشغور، قلعة صلاح الدين، فمواقع الشيخ صالح العلي، قلعة المضيق. وجبل الزاوية). اشتبكت خلال جولتها عدة مرات مع القوات الفرنسية في معارك ومناوشات.

قام هنانو بتقسيم المنطقة الشمالية إلى عدة مناطق ثانوية لتحديد نشاط الثوار فيها وقد أوكل الأمر في كل منطقة لرئيس تميز بالشجاعة في أعمال الجهاد وذلك حسب التوزيع التالي:

١- منطقة قصير انطاكية وتضم ٤٠٠ متطوعا بقيادة الشيخ يوسف السعدون.

٢- منطقة كفرتخاريم وتضم ٢٥٠ متطوعا بقيادة السيد نجيب عويد.

٣- منطقة جبل الزاوية وتضم حوالي ٢٠٠ متطوعا بقيادة السيد مصطفى الحاج حسين.



عقيل السقاطي

٤- منطقة جبل صهيون وتضم حوالي ١٥٠ متطوعا بقيادة السيد عمر البيطار

٢ـ موقعة مزرعة السيجري:

في ٢٧تشرين الثاني ١٩٢٠، أراد هنانو مداهمة جسر الشغور لاحتلالها وتسهيل الاتصال بين الثورتين، فعقد اجتماعا في قرية (عامودة)، ووجه هنانو المجاهد يوسف السعدون لمهاجمة الفرنسيين المرابطين في مزرعة السيجري، فاشتبكوا معهم واستسلمت القوة الفرنسية وعددها ٢٥ جندي فرنسي و٧٠ متطوع سوري وضابط.

٣ـ معركة جسر الشغور:

في ٢٨ تشرين الثاني، ١٩٢٠تقدمت قوات هنانو وقوات عمر البيطار. من عشيرة صهيون. وقوات جبل الزاوية وقصير إنطاكية، أي يمكن القول: تقدمت جميع قوات ثورة الشمال فجرا، وأطبقت على جسر الشغور، فتخلى عنها الفرنسيون. أسر الثوار ضابطين و٢٥ جنديا، وكسب الثوار كميات كبيرة من السلاح والعتاد ومواد مجففة ورشاشين، دون خسائر. تولى الحكم في جسر الشغور عمر البيطار. أحمد كللي. شحادة زكريا. حاج مصطفى المجبور. ومحمود عطور.

تحركت بعدها حملة فرنسية مؤلفة من ٢٥٠٠ جندي للانتقام من الثوار، فأمر هنانو قواته بمناوشة الفرنسيين في ادلب لإبطاء حركتهم، وسحب الثوار من جسر الشغور لملاقاة الفرنسيين، لكن قائد الحملة توجه إلى كفرتخاريم.

٤ـ ركة تليتا:

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٠. اجتمع هنانو مع نجيب عويد. فأرسلا المغاوير من الثوار للتسلل ليلا إلى ادلب. وقاموا بمداهمة الفرنسيين صباحا عند مغادرتهم الثكنات، فسقط (٤٠) قتيلا وعدد من الجرحى من الفرنسيين، وخسر الثوار شهيدين هما سعيد عباس ومحمد الزردي وجرح محمد ممو. استمر الثوار بمناوشة القوات الفرنسية حتى وصلت إلى قرية (حفسرجة)، ونصبوا كمينا لها في قرية (تليتا). ركز الفرنسيون مدافعهم في تليتا، وبدؤوا قصف (كفرتخاريم)، فانقض عليهم الثوار، ودارت معركة رهيبة، استشهد فيها الحاج يوسف الأفندي ومحمد أسد، وخسر الفرنسيون الكثير.

٥ـ معركة كفرتخاريم (العقبة):

في (٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠)، علم هنانو أن لواء فرنسيا في طريقه من حارم إلى كفرتخاريم، فوجه قوة من الثوار إلى (العقبة)، وكان الفرنسيون قد تجاوزوها، فاشتبكوا مع مؤخرة القوات بمعركة طاحنة، بقيادة عقيل السقاطي اشترك فيها: هزاع أيوب. ابراهيم الشغوري. مصطفى أبو درويش. علي طيفور. عمر علوش. جمعة الدالي. أحمد موصللي. مصطفى محرم. أحمد السيد خليل. وعبدالكريم ابراهيم وغيرهم.. استشهد في المعركة محمد سماق من أرمناز، وخسر الفرنسيون ٤٠ قتيلا، وذخائر وحيوانات، ولكن تمكن الفرنسيون من الدخول إلى كفرتخاريم عصر ذلك اليوم، بعد أن نزح معظم سكانها، وانسحب الثوار إلى جبل الدويلة للتجمع.

جمع نجيب عويد ثلاثين من المغاوير. وقسمهم إلى ثلاث جماعات، استلم كل من درغام درة ومحمد مامو قيادة جماعة منها، واستلم نجيب قيادة المجموعة الثالثة يعاونه عقيل السقاطي. تمركزوا في نواح مختلفة من كفرتخاريم، وعند أذان الفجر، صبوا نيرانهم على الثكنة العسكرية مع القنابل، وطوقوا القوات الفرنسية من جهات ثلاث، فانسحب الفرنسيون باتجاه حارم بعد أن خسروا (١٣٠) قتيلا، واستشهد (١٢) من الثوار منهم: عطا بن حسن هاشم - محمد الشحف. ناصيف الأحمد. محمد عبيد حمزة. وأبلى البطل عقيل السقاطي بلاء مشهودا.


مصطفى حاج حسين

استمرت معارك جسر الشغور وادلب وكفرتخاريم أحد عشر يوماً، فقرر هنانو زيادة عدد المتطوعين وتسليحهم بسلاح الفرنسيين، وأقام حكومة مركزها سلقين لصيانة الأمن وجباية الأموال والضرائب على محاصيل الزيت في منطقة كفرتخاريم وسلقين وأرمناز. تولى يوسف المؤذن قيادة الدرك، يعاونه الرقيب عمر الأفندي.

٦ـ حملة قوات (دبيوفر) على ادلب – حفسرجة:

شكل الفرنسيون جيشاً بقيادة الكولونيل (دبيوفر) مقسم إلى رتلين: الشمالي من مخفر الحمام، والجنوبي من ادلب، أما قوات هنانو فقسمت إلى مجموعات بانتظار الزحف على ادلب وحارم. (تمركزت هذه القوات في كفر تخاريم - جبل صهيون - جبل عفرين - جبل الزاوية).

في ٧ كانون الأول ١٩٢٠ وصلت قوات (دبيوفر) من ادلب إلى حفسرجة، واشتبكت مع قوات هنانو الذين صبوا نيرانهم على الفرنسيين. جرت معركة عنيفة خسر فيها الفرنسيون ٤ قتلى و٦ جرحى، ثم اضطر فيها الثوار للانسحاب إلى ادلب.

تابع الجيش الفرنسي نحو كفرتخاريم، ولكن عدل من خط سيره، ليمر في مناطق (كوكو) و(طلينا) الجبلية الوعرة لتفادي الثوار.. وعندما وصلوا إلى (طلينا)، في ٩ كانون الأول، استقرت قوة من الأتراك النظاميين والثوار على ذروة صخرية تشرف على القرية. اشتبك الطرفان وقتل ضابطان فرنسيان وجنديان وتابع الجيش الفرنسي فوصل كفرتخاريم. لكن الثوار في كفر تخاريم، ثم انسحبوا بعد وصول النجدة من حارم. وهكذا استمرت المعارك ثمانية أيام بين كر وفر، استطاع فيها الفرنسيون الوصول إلى دركوش، ثم جسر الشغور في ١٨ كانون الأول ١٩٢٠.

٧ـ الهجوم على جسر الشغور:

في ٢٤ كانون الأول، هاجم الثوار الفرنسيين في جسر الشغور عند حافة العاصي، ودارت معارك طاحنة، استطاع فيها الثوار الوصول لمسافة ٣٠ مترا عن الخطوط الفرنسية. في ٢٥ كانون الأول استؤنف القتال على جميع الاتجاهات آما في ٢٦ كانون الأول فقد حاول الثوار احتلال جسر الشغور ولكن دون جدوى فانسحبوا.

استبدلت حملت (دبيوفر) بحملة جديدة بقيادة (غوبو) في ٢٩ كانون الأول، وجاءت من حلب إلى جسر الشغور. كان الثوار في الجبال، فهاجموهم ليلا ونصبوا الكمائن، واستمرت المناوشات يومين، وفي اليوم الثالث آزرت الفرنسيين المدفعية والرشاشات لصد هجمات الثوار وكان من أبطالهم يوسف سعدون، عثمان شاويش، عدوان وأحمد تكلي وغيرهم.

٨ـ معركة جسر الحديد:

في ٢٦ كانون الأول ١٩٢٠، كان الثوار يرابطون في مخفر جسر الحديد قرب انطاكية، فزحف فوج من الفرنسيين لاحتلاله باعتباره حلقة الاتصال بين ضفتي العاصي. اشتبك معهم الثوار بقيادة يوسف السعدون في معركة دامت ٣٦ ساعة، تكبد فيها الفرنسيون حوالي ١٥٠ قتيلا، وانسحب الثوار إلى القصير.

يقول (الكتاب الذهبي لجيوش الشرق) الصادر في فرنسا عام ١٩٣٦ ((...وفي صباح السابع من كانون الأول ١٩٢٠ غادرت

المستقيم، ويسلك المرتفعات غير السالكة.. واستمر٢٩ يوما حيث خُذل الكولونيل (دبيوفر) وجيشه، فحل مكانه جنرال اسمه (غوبو))) .

٩ـ حملة انتقامية على (كللي):

في ١٠ شباط ١٩٢١، زحفت حملة فرنسية مؤلفة من ٤٠٠٠جندي من حلب، ولما وصلت قرية (كللي) شمال ادلب. طوقت القرية، وقام الجنود بالتفتيش عن الثوار، وعندما فشلوا في إيجادهم، قبضوا على ٢٧ شاباً من القرية، وأعدموهم رمياً بالرصاص تشفياً وانتقاماً.

ثم توجه (دبيوفر) إلى قرية (زردنة) فأحرق البيادر، وخرّب البيوت، وأعدم مختار القرية (محمود الدادة) لعدم تعاونه معهم.

كما شكّل الفرنسيون جماعات من الأوغاد، أغاروا على عدة قرى للنهب والسلب، منتحلين اسم الثورة، ومنها بلدة (كفرحلب)، فطوقهم الثوار، وقبضوا عليهم وأعادوا المسروقات لأصحابها ليظهروا الثورة بثوبها الحقيقي الشريف.

١٠ـ التعاون بين هنانو وصالح العلي:

في ١٠ شباط ١٩٢١ اتصل المجاهد حبيب محمود من قادة ثورة صالح العلي بالزعيم إبراهيم هنانو في نواحي (مرمس) وأطلعه على أحوال الثورة، وطلب منه معدات وأسلحة وضباط لقيادة الثورة في الجبال، فأجابه على طلبه وأرسل معه ٤ ضباط من ذوي الخبرة وكمية من السلاح والعتاد واستمرت المراسلات والمساعدات.

في ٢٧ شباط ١٩٢١، أرسل ثوار جبل الزاوية إلى هنانو وفداً برئاسة البطل أبو



نجيب عويد

حملة (دبيوفر) ادلب متجهة إلى كفر سرجة. وكانت المعلومات تشير إلى وجود بعض عناصر العدو (قوات هنانو) متحصنة عند منتصف الطريق في النواحي الغربية والجنوبية الغربية والشمالية، وجاء الواقع مصدقاً لتلك الأنباء، فلم تأزف الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعون حتى انهالت على فرسان الطليعة نيران عنيفة، وإذا نحن أمام قوات هنانو. وتدفق الرصاص على المؤخرة من تخوم ادلب، وهوجم جناحنا الجنوبي، بينما كانت زمرة من العدو تُغير على جناحنا الأيمن. فدارت رحى معركة عنيفة وضع فيها الكولونيل (دبيوفر) جميع ما تيسر له من القوات، حتى أنه انزل السائقين إلى صفوف القتال... وتمت حلقات تطويق جيشنا...وقد تكررت تلك المحاولات طوال سبعة أيام... كان جيشنا يتخلص فيها من الكمائن والغارات بفضل البأس والجرأة، على أن الخطر ما برح محدقاً به، فهنالك في كفر تخاريم قوات وافرة من فرسان العدو، كما أن في ادلب يرابط جيش وطني آخر، مما اضطر القائد أن يرجع عن فكرة الزحف

عدلة وجميل الخبير، فسلمهم هنانو سلاحا وذخائر، وعادوا برفقة نجيب عويد قائد جيش الشمال. وعقدوا اجتماعا في منزل عارف الآغا في قرية (مرعيان) بوجود المجاهدين: مصطفى الحاج حسين، عارف الآغا، اسماعيل لاطه، محمد صالح وهبه، سلوم البيوش، وغيرهم المجاهد مصطفى حاج حسين حيث سيطر ثوار الشمال وثوار جبال اللاذقية على أرجاء المنطقة كافة، وأصبحوا ثورة واحدة.

وفي جبل الزاوية: كمن المجاهدون بقيادة السيد مصطفى حاج حسين لكتيبة فرنسية في أعالي جبل الزاوية في أول آذار ١٩٢١، واشتبكوا معها لمدة ثلاث ساعات، خسر فيها الفرنسيون (٧٠) قتيلا، وخسر الثوار نصف هذا العدد كماشاركت نساء جبل الزاوية في هذه المعركة بإمداد المقاتلين ماديا وحماسيا، واستشهدت فيها أخت الشهيد أبو عدله رحمها الله.

نذكر هنا قول المارشال (فوش): (لقد سئمنا من تكرار الأخطاء الصبيانية، حتى صرنا نتمنى أن نسمع أخطاء لم ترتكب في السابق.)

١١ـ تكثيف الحملات الفرنسية للقضاء على الثورة:

في ٧ آذار ١٩٢١، خرجت ثلاث حملات فرنسية للقضاء على الثوار في كافة المناطق، وهي:

الأولى: حملة فرنسية قوامها (٧٠٠٠) جندي من اسكندرون إلى جبل الأعلى، وقد ناوشها محمد علي جمعة، وضرغام درة ومحمد محمود وأعوانهم. أما القوات التابعة لنفس الحملة والقادمة من حارم بطريق العقبة، فقد ناوشها عبد الرحيم الأفندي وأخواه والشيخ عمر وأحمد موصللي وأحمد السيد خليل وغيرهم واستمرت المعارك حتى المساء، حيث انسحب الثوار إلى الجبال.

الثانية: حملة قوامها (٣٠٠٠) جندي من ادلب إلى حفسرجة، وقد ناوشها نجيب عويد ومعه شقيقه جمعة العويد، جميل عاقوصة، عبد الرحمن قره دامور، خليل السيد خليل، صالح الشغوري وغيرهم.

الثالثة: حملة قوامها (٥٠٠٠) جندي من جسر الشغور إلى دركوش ثم تل عمار، والتحم معها الثوار بقيادة الشيخ يوسف السعدون باشتباكات عنيفة في جبل الوسطاني قرب قرية الدويلة، فقتل قائدها الكولونيل (اندريا) وجاء الجنرال (دولاموت) بطائرة خاصة لنقل جثته.

١٢ـ محنة كفرتخاريم:

في نيسان ١٩٢١، جهز الفرنسيون حملة لتأديب كفرتخاريم، ولما علم الأهالي بالأمر، هجروا البلدة. فأمعن الفرنسيون في النهب والسلب خمسة عشر يوما، ولما عاد الأهالي، وجدوا البيوت وقد نهبت وانتزع محراب الجامع ونهبت موجوداته، كما هدم الفرنسيون دار المجاهد نجيب عويد، ونقلت أحجارها إلى الثكنة. فزاد ذلك من عنف الثورة، كما زاد عدد المتطوعين في صفوفها.

١٣ـ معركة سرجة:

في ١ نيسان ١٩٢١، دارت معركة بين الثوار والفرنسيين في (وادي ترعان) بجبل الزاوية قرب قرية (سرجة). استمرت حتى مساء ٣ نيسان، حيث وصل نجيب عويد مع قوة من الثوار، ودارت معركة ليلية مع جنود السنغال فأبادوهم. ثم انضم للثوار عشيرة (صهيون). وعندما اقتربت الحملة

الفرنسية بقيادة الجنرال (غوبو) من الجهة الشرقية لجبل الزاوية ، ضربت الثوار بالمدفعية ، وقامت (٨) طائرات بقصف القنابل على الثوار.

دامت المعارك أربعة أيام بلياليها ، صمد فيها ثوار هنانو وجبل الزاوية وصهيون صمودا رائعا ، وحتى النساء قد شاركن بالإمداد والتشجيع. فانسحب الفرنسيون بعدما خسروا حوالي (١٢٠٠) قتيلا والعديد من الجرحى، وغنم الثوار كل ما خلف العدو من سلاح وذخيرة وخيول. استشهد في هذه المعارك (٥٦) مجاهدا ، منهم محمد سرور ، إسماعيل لاطه ، محمد حسن الخطيب ، محمد إسماعيل وهبي وغيرهم.

بعدها قامت القوات التركية بقيادة عاصم بيك بنهب قرية (الصقيلبية) بعد الاشتباك مع القوات الفرنسية والجماعات الموالية لها. كان الهدف منها تشويه سمعة الثورة ، والهرب بالقوات والمسروقات إلى تركيا ، حيث كانت القوات التركية قد وقعت الهدنة مع الفرنسيين، فعلم هنانو بالأمر ، وأغضبه ذلك. كان نجيب عويد في تركيا فأطلع مفتش الثورة (ازدمير بك التركي) على ما قام به القائد التركي عاصم بك فوافقه على إعدامه ، وقام نجيب بإعدامه بين (حفسرجه وبسلي) في ٦ أيار ١٩٢١

انفصلت القوات التركية بعد ذلك عن الثورة ، وعادت إلى تركيا وكان عددها ٣٠٠ مقاتل ، فأثر ذلك في مجرى الثورة وبدء انحلالها.

جرت مفاوضات بين الزعيم هنانو والجنرال (غوبو) في ١٧ نيسان ١٩٢١ ، في قرية (نحلة) ، عرض فيها غوبو على هنانو



الشيخ يوسف السعدون

باسم السلطة الفرنسية تسليمه رئاسة حكومة محلية تضم أقضية حارم . ادلب . جسر الشغور ، وتسليم مصطفى حاج حسين إدارة جبل الزاوية ، بشرط أن يتم إنهاء الثورة وتسليم أسلحة الثوار ، لكن هنانو رفض قائلا :

(إن من موجبات نقمة السوريين على سياستكم الاستعمارية إقامة هذه الدويلات. فهل أرضى لنفسي رئاسة دولة ، وأنا أحاربكم من أجل تمزيق البلاد إلى دويلات مثلها؟..)

١٤ـ معركة جبل الأربعين:

جهز الفرنسيون ألف جندي لاقتحام جبل الزاوية.

في ٣٠ نيسان ١٩٢١ كمن الثوار للحملة في أعالي الأربعين وجرى التحام مع الفرنسيين بقيادة هنانو ومصطفى حاج حسين، وخشي أهالي أريحا من التدمير فرفعوا الأعلام البيضاء، وكانت التباسا على الطرفين. ظن الفرنسيون أن الثوار استسلموا ، وظن الثوار عكس ذلك، فنزل

الثوار إلى أريحا واصطدموا وجها لوجه مع الفرنسيين بالسلاح الأبيض فقتلوا ٧٠ جنديا وأسروا خمسة من الضباط و٢٤ جنديا، وأسر الفرنسيون ٦ من الثوار.

بعد يومين، جرى التفاوض بين الطرفين في قرية (مصيبين) وأطلق الطرفان الأسرى مع سلاحهم.

٣ـ لجوء هنانو إلى شرق الأردن:

عقد الزعيم هنانو اجتماعا مع الثوار وتداولوا الوضع الراهن، وتباحث معهم في أفضل السبل الواجب اتباعها بعد أن نفذت الذخيرة، وقلت الأموال اللازمة لشرائها، بل انعدم وجود أي مصدر لشراء السلاح، بعد أن تخلت تركيا عن مساندة الثورة. فرأوا أن لا فائدة من استمرار المقاومة بعد اتفاق فرنسا مع الأتراك. فقرر هنانو ترك ميدان الثورة والرحيل عن سوريا، لكنه لم يختر تركيا بعدما تنكروا له ولثورته، وفضل الالتحاق بشرق الأردن.

أصدر الجنرال (غورو) بلاغا بعد انحلال ثورة الشمال، قال فيه:

((.. مشى الجنرال (غوبو) قائد اللواء الثالث من حلب على رأس لوائه لتأديب العصابات، فبلغ معرة النعمان يوم ١٥ أيار ودخلت قوة الكولونيل (فيك) في اليوم التالي إلى (هبيط)، وتقدمت قوة الكولونيل (دوم) فاستولت على جسر الشغور، وزحفت قوة أخرى بقيادة الكولونيل

(فونيه) على قلعة المضيق فاحتلتها، ودارت معركة عنيفة في جسر الشغور بين الثوار وحملة الكولونيل (جران كور)، انتهت بانسحاب الثوار والاستيلاء علىالبلدة. وقد تراجعت المقاومة الوطنية أمام هذه القوات العظيمة التي لا يقل عدد رجالها عن ثلاثين ألف جندي حيث غادر إبراهيم هنانو مقره في جبل الزاوية يوم ١٢ تموز سنة١٩٢١ ومعه (٥٥) جنديا وضابطا قاصدا عمان. فلاقاه الفرنسيون شرقي (سلمية) يؤيدهم عرب موالون، ودارت معركة بينه وبينهم، انتهت بأسر أربعة من ضباطه، أما هو فقد واصل السفر، ووصل إلى عمان يوم ٣١ تموز ١٩٢١)).

٤ـ ثورة حتى الرجل الأخير:

لم تنته الثورة بانسحاب هنانو إلى عمان ثم فلسطين والقبض عليه وتسليمه للفرنسيين، ثم زجه في سجن حلب لمحاكمته. فقد قرر قادة الثورة نجيب عويد، مصطفى حاج حسين، آل سرحان والهنداوي، عقيل السقاطي ورجالهم (الذين قارب عددهم المائة) استمرار الثورة، فالتجؤوا إلى تركيا.

أقام نجيب عويد في بلدة (عنتاب)، ولقي من السلطات التركية كل حفاوة وتكريم، تقديرا لبطولاته. كان يخطط للهجمات، ويرسل المجاهد عقيل السقاطي مع نخبة من الثوار إلى الأراضي السورية، ليغيروا على المواقع الفرنسية، ثم يعودوا إلى معاقلهم في الجبال وفي تركيا.

هاجم الثوار قافلة للبريد بين انطاكية ودركوش، يوم ٢٦ آب ١٩٢٢وانتهت بالقضاء على القافلة المؤلفة من ضابط فرنسي مع ١٥ جندي سنغالي.

وفي عام ١٩٢٣ طوقت قوة فرنسية المجاهد نجيب البيطار ورفاقه البالغ عددهم (٢٠) بطلا، قرب ادلب، فظلوا يقاتلون حتى استشهدوا جميعا وعلى رأسهم البطل نجيب البيطار، بعد ما كبدوا العدو خسائر كبيرة.

في أواخر عام ١٩٢٤ اشتبك البطل عقيل السقاطي وعشرة من رفاقه مع الجنود الفرنسيين في دار الحكومة بقرية السفيرة، فقتل بعض الجنود، واستشهد ثلاثة من الثوار.

وفي ٣ شباط ١٩٢٢: جاء الكولونيل (دبيوفر) على رأس حملة مؤلفة من (٣٠٠٠) جندي، ورابطوا حول مدينة ادلب، ثم دخلوا البيوت، ونهبوا ما فيها وخاصة السجاد، الذي أرسلوه إلى فرنسا وباعوه بأثمان باهظة.

وقد قام أحد الجواسيس بالوشاية بعدد من الثوار، ومنهم صالح مصطفى القواس من ادلب، سعيد عقوصة من كفرتخاريم، محمد البكور من أورم الجوز، ومحمد صادق من ملس، فقبض عليهم الفرنسيون وكبلوهم، ثم تقدم السفاح (كوله) وأطلق عليهم الرصاص من مسدسه. كما استسلم بعض المجاهدين بعد انتهاء ثورة هنانو، ومنحوا وثائق رسمية بعدم التعرض لهم، وهم: اسماعيل هرموش ومحمود الدايخ من ادلب، ونجيب البيطار من القصير، لكن (كوله) أعدمهم.

كذلك اعتقل الفرنسيون عددا كبيرا من ثوار جبل الزاوية، يزيدون عن الثلاثين، وحوكموا بالسجن أحكاما متفاوتة.

عندما نشبت ثورات الجنوب وحماة سنة ١٩٢٥، اتصل هنانو مع رجاله في تركيا، وتم الاتفاق على تجهيز سرية من الثوار تقدر بمائة شخص، يقودها يوسف السعدون ومصطفى الحاج حسين وعقيل السقاطي، وقد تكفل بمصاريف الثوار الوطني الكبير الحاج فاتح المرعشلي.

وصلت السرية إلى كفرتخاريم فطوقتها كتيبة من القوات الفرنسية، ولكن بطولة الثوار مكنتهم من الإفلات وفك الحصار، بعد أن سقط منهم ٣ شهداء وسبعة جرحى منهم البطل مصطفى الحاج حسين.. ثم قامت الفصيلة التي يقودها عقيل السقاطي باحتلال مخفر جسر الحديد بعد أن قتل أغلب حاميته، مستخدما أساليب عسكرية تصلح أن تكون أنموذجا يدرس للجيوش.

استمرت غارات الثوار حتى شهر نيسان ١٩٢٦. قام الثوار خلالها بأعمال مجيدة في المواقع التالية: الفندق، صير جاموس، القصير الوسطاني، بسنقول، حربنوش، بياطس، كلة الثانية، العلاني، عزمارين.. وكانت آخر المعارك في تل عمار في ٩ نيسان، فقد فاجأت كتيبة فرنسية مدعومة بالطائرات مجموعة من الثوار. انتهت المعركة غير المتكافئة باستشهاد البطل عقيل السقاطي، كان عمره ٢٦ عاما.. مع ثلاث عشر من الثوار. وخسر الفرنسيون ٢٧ قتيلا منهم ضابط، كما خسروا طائرة من طائراتهم..

وهكذا توقف النضال العسكري لثورة الشمال السورية. لكن النضال السياسي لإبراهيم هنانو لم يتوقف حتى وفاته عام ١٩٣٥.

المراجع والمصادر:

١. كتاب تاريخ الثورات السورية . أدهم آل الجندي
٢. كتاب تاريخ الثورة السورية . الدكتور محي الدين السفرجلاني
٣. كتاب معارك الحرية في سوريا . فارس زرزور
٤. كتاب كفرتخاريم . صلاح الدين كيالي
٥. كتاب ديوان الثورة . محمد ياسين عرفة . ١٩٢٦
٦. من إبلا إلى إدلب - فايز قوصرة - ٢٠٠٤.

لمحات من تاريخ المسرح

في محافظة إدلب

مروان فنري*

حديث المسرح في محافظة إدلب حديث ذو شجون وهو يروي تاريخاً غنياً في أحداثه ومنوعاً في أشكاله ويعتبر رائداً في المسرح السوري.

أبدأ من بلدة كفر تخاريم عاصمة الثورة السورية في الشمال وتحديداً من عام ١٩٣٢، شهد ذلك العام اتقاد الشعلة الأولى للمسرح وذلك من خلال تأسيس نادي الثريا الذي ضم مجموعة من المثقفين الذين كان من أبرزهم الأستاذ فوزي كيالي الذي أصبح فيما بعد وزيراً للثقافة وصديقه وقريبه الفنان التشكيلي الأستاذ جميل بشير كيالي مؤسس المسرح في المحافظة وكان رساماً موهوباً ومخرجاً بارعاً.

وكان من ضمن مؤسسي هذه الفرقة نورس كيالي وكمال الأسطة وناظم كيالي وأحمد فارس وأمين كيالي وعبد القادر سعيد باكير ومن أهم المسرحيات التي قدمها النادي "كسرى العرب"، "فتح القدس"، "فتاة طرابلس".

وفي عام ١٩٣٥ أصبح للنادي فرقتان مسرحيتان: الأولى برئاسة المخرج إبراهيم الزغبي، والثانية برئاسة جميل بشير كيالي قدمتا مسرحيتين هما مسرحية المظلوم ومسرحية أبو عبدالله الصغير.

كما قدم هذا النادي عدداً من المسرحيات العربية المترجمة والمعدة التي تتحدث عن الوطن والوطنية رغم وجود الاحتلال الأجنبي لسوريا، وتبني النادي الفرقة الفلكلورية التي اهتمت بالتراث والموسيقا ثم أصدر النادي مجلة أسبوعية كانت تكتب بخط اليد وهي مجلة "الزهرة".

وفي مدينة إدلب شُكّل أول ناد ثقافي باسم النادي العربي عام ١٩٤٧، وقد اهتم بالثقافة والأدب والأدباء والمسرح.. ومن مؤسسي النادي: عبد الحميد دويدري - راسم قريد - محمد قاسم آغا - مضر مارتيني - علي فنري وغيرهم، وقدم النادي في ساحة ثانوية المتنبي في الهواء الطلق مسرحية صقر قريش. وفي عام ١٩٥٠ عُيّن الأستاذ فوزي كيالي مديراً

---

* مدير المسرح القومي بإدلب.



لثانوية المتنبي في إدلب ومعه جميل كيالي مدرساً للفنون، وشكل هذا الثنائي الفريد فرقة مسرحية من طلاب الثانوية ممن تتوفر لديهم الموهبة والثقافة. وعلى مسرح صغير في مساحته وكبير في فعاليته، كان أول عمل قدمه فوزي وجميل كيالي مسرحية البخيل لموليير عام ١٩٥١ وكانت من إخراج الاثنين معاً أما الديكور والمكياج فكان لجميل كيالي وعرضت المسرحية لمدة أسبوع ولاقت النجاح الكبير، وكانت الفرقة تتألف من ١٥ طالباً منهم نظمي عبد العزيز وهو الشاعر الغنائي المعروف ومن رواد المسرح في إدلب وصلاح بطل والمرحوم نهاد زغل ومحمد أبو زيد وماجد فنري وآخرون.

بعد ذلك كتب الأستاذ فوزي كيالي مسرحية بعنوان آباء وأبناء من إخراج جميل كيالي،

تحدثت المسرحية عن الرّبا الفاحش الذي انتشر في محافظة إدلب بعد موجة الصقيع التي أصابت أشجار الزيتون. وقد دعا الأستاذ فوزي كيالي عدداً كبيراً من هؤلاء المرابين لهذه المسرحية وفي منتصف العرض انسحب الكثير منهم وشنوا حملة عليه وعلى مسرحيته.

في عام ١٩٥٢ ومن خلال التجمع المسرحي لفرقة فوزي كيالي شُكّل ناد مسرحي باسم (نادي قبَية المسرحي)[١] وكان من مؤسسي النادي عبدالله الشيتي (الصحفي المعروف) ونجاح قباني وسالم بركات وكاتب المقال وآخرون وكان النادي يقدم في بداية كل شهر حفلة سمر تتضمن مسرحيات قصيرة من تأليف وإخراج جماعي تتحدث عن المفارقات الموجودة في مدينة إدلب.. مثل مسرحية "سالم وسليم" ومسرحيات وطنية مثل مسرحية "بطولة من فلسطين".

تبين هذه اللمحات السريعة كيف انطلقت الحركة المسرحية في إدلب، وتعددت النوادي الفنية وكثرت الفرق المسرحية وقد برز فيها كثير من الممثلين الذين شاركوا في المهرجانات المسرحية ونالوا الجوائز المتعددة.❋

---

(١) مدينة في فلسطين دمرها الصهاينة عام ١٩٥٠.

طبيب الناحية

حسيب كيالي*

كان طبيب الناحية[1] غريب الأطوار، كهلاً في حيطان الخمسين. قصيراً، بطيئاً، لخديه ثنيات وطيات، وتحت ذقنه غبغب كغبغب الثور، أبيض إلى اصفرار، إذا سعل ارتج.. وعيناه واسعتان مقروحتان، متباعدة رموشها، في بياضهما عروق زرق كتلك التي تشيع في المرمر الأبيض.. وكانت عيادته، وهي عيادة البلدية الرسمية، أشبه بصومعة راهب، وهي في الوقت ذاته مسكنه الذي لا يكاد يغادره لا في الليل ولا في النهار.. ولعل الوحشة التي تقبض على الدار متأتية من خلوها من الأطفال وما يطلقون من ضحكات وصخب ومراح.. لأن طبيب الناحية أعزب!. فإذا ما سُئل وكان رائقاً، تهاتف ضاحكاً وأجاب: "من قال إني أعزب؟ لقد خطبت منذ ثلاثين سنة وتزوجت هذه الأصيلة بنت الأصايل!" يقول هذا ويشير إلى قنينة العرق.

ولم يكن للطبيب في ناحيتنا صديق أو عشير. فإذا اسودَّ الليل أغلق باب العيادة وتفرَّد في ديره، لا يعرف أحد ما يصنع فيه.. وهو يأبى أن يفتح الباب أو يعود مريضاً تحت الظلام مهما تكن الحال خطيرة.. أما إذا أصبح الناس وجاء أبو عمر الممرض العجوز القاسي النظرات، وفتح باب العيادة، فالطبيب مختبئ لا يصحو ولا تندُّ من وكره حركة ولا نأمة، إلا إذا ارتفعت الشمس في كبد السماء حينئذٍ يخرج بمنامته المتهدلة وطاقيته البيضاء ومركوبه الجلدي الخفيف لا يغير من هندامه ولو كان في عمله الرسمي.

وما أن يفتح أبو عمر باب العيادة حتى يأخذ القرويون وأبناء الناحية بالتوافد على العيادة، يتكدسون في فنائها كدساً وكوم

---

* أديب سوري من ادلب (١٩٢١ - ١٩٩٣).

القصة هي إحدى قصص مجموعته " مع الناس " التي صدرت عام ١٩٥٢ وقد طبعت مؤخراً في سلسلة الأعمال الكاملة (٨) - وزارة الثقافة السورية - ٢٠٠٦

١- الناحية وحدة إدارية تتبع لها عدة قرى .

لحم، مرضى أطفال يحملون على أذرعهم عصائب وضمائد، نساء شاحبات، رجال أعينهم كالدمامل وترتفع الجلبة وتنبعث رائحة مختلطة من العرق والمرض!.

ومعلوم أن هؤلاء الوافدين يعرضون أنفسهم على الفحص مجاناً، استناداً إلى ورقة فقر حال يحصلون عليها من مجلس إدارة القضاء.. ويخيَّل إلى القروي بعد أن تصير الورقة في جيبه، أنه امتلك جواز سفر يوصله إلى الصحة والعافية، وأن على الطبيب، بمجرد رؤيتها في يده أن يرفع يده بالتحية والاحترام، ثم ينكب على القروي يفحصه بأدق عناية وأرهف وجدان..

ولكن الذين يعرفون طبيب الناحية، رسمي أفندي، يدركون تفاهة التسلح بورقة فقر الحال هذه.. فهو يكرهها جداً، وينفر منها نفوراً شديداً، ويغتاظ لدى رؤيتها كما لو كانت شتيمة دموية، لا يخصص لحامليها إلا ساعة أو بعض الساعة من يومه ولو زاد عددهم على المئة، وهو في كل يوم يزيد!

وكأن يأمر أبا عمر الممرض أن يدخلهم واحداً أثر واحد، بينما يكون هو جالساً على حرف منضدته متأففاً، مشمئزاً.. فإذا أقبل عليه المريض انتهره، وهو لا يزال على بعد خطوات منه قائلاً: "نعم، شو مرضك أنت؟" فيرتبك المسكين، ولا يكاد يفتح فمه حتى يكون الطبيب قد كتب الوصفة، وصاح بأبي عمر الواقف بين مصراعي الباب: "هات غيره يا ولد.." وهكذا يتم فحص المئة أو المئتين بأقل من ساعة.. وتصفر العيادة وينتهي الدوام، وكل أرض تشرب ماءها!.

أما مع المرضى الذين لا يحملون شهادة فقر حال، يعني الذين يمدون أيديهم بعد المعاينة، وينترون محفظة جلدية قد قماط الولد الرضيع. فرسمي أفندي إنسان آخر. أحلى من العسل، وديع، حلو المزاج حاضر النكتة.

كنت أعرف كلَّ هذا عن رسمي أفندي، طبيب الناحية، لما مرضت زوجتي وصارت تتوجع وتذوي أمام عيني كما يذوي الحبق في الشمس، أنا الرجل الطويل العريض، الذي يستطيع أن يقلع توتة. أقلع توتة، نعم، ولكن من أين أجيء بالتوتة أقلعها وأقبض الأجر! لقد كنت بطالاً منذ سبعة أشهر، أي منذ يبس زيتوننا بفعل الصقيع[1]، وانخرب بيتنا، نحن أهل المنطقة، وعزَّانا الكلب، وأصبحنا إما شحاذين على باب الله أو مهاجرين نضرب في أربع جهات الجزيرة واللاذقية.

ولم يكن أمامي غير طريق واحدة: أن أذهب إلى القضاء، وأتي بالورقة الملعونة، وأشتم بها رسمي أفندي، فليطمني بكلمة: "هات غيره يا ولد" فأخرج من عنده مثل فقراء اليهود، لا دين ولا دنيا، كما دخلت! ولكن هذه الطريق المهينة كانت بالنسبة لمنتوف مثلي كالقدر، لا مفر من سلوكها.. وكان أنْ ذهبت إلى القضاء ورجعت حاملاً الورقة.

وكانت ضيعتنا رام حمدان تبعد عن الناحية مسير نصف ساعة، فقمت إلى الخزانة في العلية فلبست أفخر ثيابي: سروال الجوخ الململم الذي احتفظ به من أيام عرسي، وقميص الحرير الحموي المقصب، بعُراه المضفورة من البزيم اللامع، والمركوب الأصفر، شغل الحاج احمد حسينو، وسترتي قص المقص. ثم دلفت من حماري الأخضر فألبسته البردعة، وأنهضت زوجتي وشجَّعتها على المسير نحوهُ، ولكنها لاقت عنتاً شديداً، فحملتها بين يدي، ووضعتها على ظهره،

١- يشير إلى صقيع عام ١٩٤٩ الذي قضى على أشجار الزيتون في المنطقة.

وأشرت عليها أن تتمسك بالبردعة جيداً، وقبضت أنا على الرسن بيد وأسندتها بالأخرى.. وأخجل إذا قلت لك إنني أحبها.. وهي، والحق يقال، بنت حلال، لها فم يأكل وليس لها فم يحكي، صابرة، قنوع بالعسر واليسر، تصور أنها تتحمل واحداً مثلي.. وافهم!.

وكنا نسير في الدرب المزهر سيراً وئيداً، وكان ساقاها يتأرجحان عن جانبي الحمار بوهن وضعف كأنهما خرقتان، وهي تئن أنيناً خافتاً مجروحاً يكسر القلب..

وكنا لا نتبادل الحديث إلا لماماً.. بم أحدثها؟ أأقول لها: "لا يكن لك فكرة يا أم نجم.. إذا لم نحصّل ثمرة عند رسمي أفندي عرضتك على موريس كوسا[1] في حلب." وهي تعلم أن السماء لم تنزل لي قفة ملآنة ذهباً!..

وكان الطقس لطيفاً يبعث في العروق لوناً من البطر، تخاله في كل شيء حواليك. حتى الحمار نفسه كنت أجد عسراً في كبح إرانه وبطره، إذ كان يعابثني بأن يفتل رأسه نحوي، ويقرب فمه من يدي يهم بعضّها، فإذا انتهرته نكس رأسه، متصنعاً المسكنة ورفع قائميه الخلفيتين ورفس الهواء رفساً هنياً ثم، تابع السير خفيفاً نشيطاً خبيثاً. وأنا أيضاً كنت بطراناً، أروم مشاركة الحمار لهوه ولعبه لولا هذه الإنسانة التي تتألم!.

ووصلنا إلى عيادة الطبيب في الناحية عصراً، يعني بعد انتهاء الدوام الرسمي عند الطبيب.. ويعني أيضاً بدء الدوام غير الرسمي، دوام الذين يبتسم لهم رسمي أفندي، ويَعْذُب، ويُعنى أجمل عناية!

وأدخلت الحمار إلى فناء العيادة وربطته إلى شجرة المشمش، وحملت المرأة بين يدي وهرولت داخلاً، وإذا باب الغرفة الجانبية، عن يمين، ينفتح، وطبيب الناحية يمط رأسه ويبتسم ويهيب بي أن آتيه بها.

وعلى السرير الجلدي كنت أمدد حملي العزيز، ورسمي أفندي يرحب بي هو ورائحة العرق التي تنبعث من كل مكان..

كان يحملق في زوجتي ويفرك يديه كأنه مقبل على خروف محشي بالرز والصنوبر، الملعون.. قال:

من أين أنت؟

من رام حمدان يا سيدي، الله يطول لنا عمرك!

انتم ملاعين أهل رام حمدان، لا أحد يقدر عليكم!

سيدي بسلامة معرفتك، نحن دراويش على باب الله..

أي، خير إن شاء الله؟

منذ أكثر من أسبوعين وهذه المرأة كما ترى، تبرد حتى لتظنها جثة، وتسخن حتى لتقول تنور... ولا تمد يدها إلى طعام ولو كان المن والسوى!

فقال باسماً:

أي بسيطة هوّن عليك!

ونظر إلى قميصي المقصب وسروالي الجوخ، على نقرة ونصف، ومركوبي الجديد.. ففهمت قصده وبادرت أقول له:

الله يخليك يا دكتور عاينها بقلب ورب، وكل شيء لخاطرك!

فازدادت ابتسامته عرضاً، وركض دافعاً كرشه أمامه، غبغبه ينوس نوسان رقاص الساعة، وأحضر سماعته فأدخلها في أذنيه، وعكف على المرأة يفحصها، والصمت بنا محيط، ورسمي أفندي غارق، يقظ، مقبل على زوجتي، كما يقبل حماري الأخضر على عليقه بعد جوع!.

وبعد فترة قصيرة اعتدل الطبيب وقام إلى خزانته فأخرج منها أنابيب صغيرة،

١- موريس كوسا: طبيب اشتهر في حلب في خمسينات القرن العشرين.

وأشعل نارا زرقاء صامتة وغطس إبرة زجاجية في إناء من الماء ووضعها على النار، ولم يمض وقت حتى أخذ الماء ينش نشيشا خفيفا كالوشوشة.. بينما كان الطبيب يحضر أدوية أخرى من هنا وهناك على رفوف الغرفة ويضعها في ظروف أو قنان ويكتب عليها طرائق استعمالها..

وأنا مبسوط، جذلان لا تسعني الدنيا!

وفرغ الطبيب من الإبرة والفحص، وربت على كتف المرأة ممازحاً وقال لها: كيف حالك الآن؟

ولست أدري، لعل عناية الطبيب بالمرأة قد أوحت لها أنها عوفيت. فقد تهلل وجهها وقالت له: تسلم يديك يا حكيم!

فقال منتفشاً: ما بك شيء، مثل الضبعة، قومي أمشي قدامي لأشوف! وقامت والله العظيم، كأن الخضر عليه السلام لمسها.. وأعاد رسمي أفندي أمره قائلاً: أمشي. فمشت.

احملي دواك. فحملته.

يا الله تيسّري!

هنا تدخلت أنا. كان قلبي يخفق، لست أدري لماذا قلت للمرأة:

روحي اسبقيني عند محمد شفيق..

فخرجت زوجتي تتحامل على نفسها... وبقيت أنا ورسمي أفندي الذي وقف أمامي منتصباً كأنه كسر طابور عسكر.. يداه في خاصرتيه، ووجه تتراقص فيه شتى المعاني وكأنها كلها تقول:

"أتريد أكثر من هذا. مد يدك إلى جيبك إذن وبيّض الكتاب! " ولم أكذّب، من جهتي خبراً، فانتصبت واقفاً ومددت يدي إلى جيب سترتي الداخلية وتظاهرت أني أفتش عن العملة ثم.. نترتها أجل نترتها! دفع الله ما كان أعظم، هي، إياها، ورقة فقر الحال، بلحمها ودمها، وقدمتها، بافتخار، إلى رسمي أفندي.. ولم أتمهل بل تحركت أبتغي الخروج إلى حال سبيلي.. فما إن رآها الرجل حتى انتفض كمن لسعته عقرب، وأصفر، وصاح بي بغضب لا مزيد عليه: ما هذه، يا... فقلت بهدوء وأنا قرب الباب: ورقة فقر حال! ليش؟ خير إن شاء الله؟

فخار خوار الثور وصاح: ورقة نعي في رأسك، في قرعة دماغ أجدادك! معاينة ساعة، وأدوية في ظروف وقناني وضرب سلامات، تصير كلها إلى هذه النهاية الوخمة!

ووثب علي وأمسك بتلابيبي وأنا أغالبه وأشدُّه معي في طريقي إلى فناء العيادة، وهو لا ينفك يصرخ ويولول ويستعدي الناس.. فلما صرنا إلى الهواء الطلق تجمع علينا خلق كثير، درك وعطارون وفلاحون وعابرو طريق ونسوة وأطفال..

وتدخل دركي شاب، فسألني عن الأمر بغلظة.. فلم أجبه مباشرة، بل رفعت صوتي عالياً كأنني خطيب في صلاة الجمعة وقلت:

انظروا يا ناس إلى هذا الرجل، طبيب بلدية، وظيفته خدمة الناس على كيس الحكومة، ولكنه يأبى إلا أن يطالبني بأجرة المعاينة.. والتفتُّ إليه وتابعت:

لماذا لا تقبلها يا سيدي؟ شهادة فقر حال مثل الألماس، عليها كومة أختام وإمضاء القائمقام[1] زكريا بك، وكاتب التحريرات نشأت أفندي، والمعاون علي باكير.. ورقة فقر حال مرتبة على التمام والكمال وأربعة وعشرين قراطاً!

.. وسمعت أن رسمي أفندي طلب نقله من الناحية بعد هذه الواقعة!*

١- القائمقام: أرفع مسؤول حكومي في القضاء.

* الحواشي من وضع التحرير.

تمثال فينوس

صالح الرحال *

جَبَلَ يَلبسُ الغيْمَ قَبَّعةَ ها هُناكَ،

ويضحكُ، يَضحكُ من شِعْرِ (هوميرَ)،

حتّى يذوبَ من الضحكِ،

لا أحدٌ قدْ رآهُ، ولا أُذُنٌ سَمَّرَتها

عُذوبةُ ضحكتهِ، فابتَنَتْ بيتَها في خِفافِ السفوحْ.

وَشَيْخٌ عجوزٌ تَرَمَّدَ من ذلك العُمرِ طولاً،

يُنَقِّل خُطوتهُ غابشاً بينَ (ممفيسَ - دلفي)

وما بينَ (مكّة - والطورِ)،

ما بينَ (غانْجٍ) يَصبُّ غواياتهِ في خليجٍ محيط،

تُؤلِّهُهُ عصبةٌ ها هناكَ، وتمضي تآويلُها وارِفهْ،

وبينَ غواياتِ شط العربْ،

البداياتُ أنثى،

الإلاهاتُ أنثى،

---

* طبيب وشاعر

(تَعاماتُ) أنثى،

رَبيبةُ تلكَ السماءِ البهيَّة أنثى،

و(هيرا) التي راودَتني وراودْتُها خلفَ ذاك الجبلْ.

يقولُ العجوزُ الذي أطفأتهُ الطوالعُ والرُقُمُ الموغلاتُ،

ولمْ تبقَ من ذكرياتٍ تمورُ بداخلهِ غيرُ أنثى وحيدهْ،

يُحاولُ أنْ يبتنيها على سرعةٍ،

خوفَ حُسّادِهِ واللصوصْ.

رِعْشَةٌ في يديهِ، جفافٌ بظنبوبهِ، غؤورٌ بعينيه،

يَمضي إلى ساحة الخَلْقِ،

يحملُ معولَهْ، فأسَهُ، صفيحةَ ماءٍ فُراتْ،

يقرّرُ قَبْلَ يموت، سيُنشئُ تمثالَها حالةً لا تُضاهى،

وَخَلْقاً على غيرِ خلقٍ قديمْ.

تُدغدغهُ هذهِ المسألهْ،

يصبُّ الصفيحةَ فوقَ الترابِ

الذي فارَ مِنْ وَجْدهِ وانْعلَكْ،

وحنّتْ خلاياهُ، حنَّتْ،

إلى أنْ تأسَّسَ في ساحةِ الخلق هذا الـ ...،

ويسمعُ في هذهِ اللحظةِ الخالقهْ:

قهقهاتٍ، صفيراً، وضحكاً، وصوتاً جهوراً

يُذّوبهُ جبلُ المُعضلهْ:

تُريدُ الخلودَ كأنّكَ مثلي، فهيهاتَ

يا أيها الشيخُ، هذا جنونٌ بليغْ.

ويضحكُ ذاكَ العجوزُ، ويضحكُ،

يَضحكُ ذاكَ الجبلْ.

فَلا أحدٌ قدْ رأى ذينْكَ الأحمقينِ،

جَلى ذلكَ الضحكَ، ذاك الصفيرْ.

ولكنَّ نصباً قديماً لِفاتنةٍ موغلهْ،

على سفحِ ذاكَ الجبلْ،

كأنّ مراياه، كلَّ مراياهُ

تسألُهُ سرَّهُ أن يبوحْ،

فتأتي الظِلالُ على قدْرِ ذاكَ السؤالْ...

الأزياء الشعبية النسائية في شمال سورية

محافظة إدلب (نموذجاً)

محمد الخطيب*

تعكس الأزياء الهوية الجغرافية والعادات والتقاليد والحاجات الاجتماعية.

وتشكل الأزياء الشعبية الريفية تراثاً حافظ عليه السكان جيلاً بعد جيل حتى باتت تدل على الموطن الجغرافي من خلال توزعها في طول البلاد وعرضها، وقد يضيق انتشار الأزياء إلى حدود القرية أو المدينة الواحدة أو يتوسع فيشمل عدة مدن وقرى متجاوزاً الحدود الإدارية الحديثة مما يدل على عمق وتحذر هذه الأزياء في المجتمع منذ القدم السحيق.

بل أن هناك من يحافظ على تلك الأزياء عندما يرتحل للإقامة في محافظة أخرى أو بلد آخر بدافع الانتماء أو الحنين للماضي.. وتنوع تلك الأزياء لا يعكس تنوع الذوق الريفي والعادات الاجتماعية والتقاليد فحسب بل يعكس أيضاً حاجات اجتماعية وبيئية ومهنية.. ويمكن تبين ذلك من خلال استعراض موجز لأهم الأزياء الشعبية في شمال سورية والتي تجمع بين محافظات (حماه - إدلب - حلب) مع التركيز على محافظة إدلب كموطن رئيس لتلك الأزياء.

السمات المشتركة للأزياء النسائية:

هناك العديد من المواصفات والمقاييس المشتركة للأزياء الشعبية النسائية مع اختلافها في بعض المواصفات الجزئية المتعلقة بالألوان والزخارف وبعض أقسام (الروب) النسائي.. فهي تشترك بنوع المادة الأولية التي تصنع منها الألبسة (الأزياء) وهي القطن غالباً حيث كانت تلك المادة عبر التاريخ هي الوحيدة لصنع غزل ونسج وحياكة الألبسة التي تعتبر وسطاً بين الألبسة الداخلية والألبسة الخارجية الشتوية التي كانت تصنع غالباً من الصوف وجلود الحيوانات البرية والأهلية..

كما تشترك الأزياء الشعبية في كونها مغلقة من كل الجوانب مع ترك فتحة صغيرة في الصدر تكون غالباً لحاجة إرضاع الأطفال وسهولة خلع وارتداء اللباس. والثوب المغلق يغطي كامل الجسم موفراً حشمة للمرأة ومنعاً لبرودة الشتاء وحرارة

* كاتب وصحفي.





الصيف حيث يتم ارتداؤها غالباً كلباس خارجي دون استعمال الألبسة الصوفية فوقها.. كما أن تلك الألبسة متوسطة الحجم لا فضفاضة ولا ضيقة مع غلبة طابع التناسب مع الجسم خاصة بالنسبة لأزياء البنات الشابات مما يبرز مواصفات جسم الفتاة ومحاسنه إلى حد ما.

كما أن اللباس يصل حتى أسفل الكاحلين وربما يلامس الأرض أحياناً.. وهناك من الأزياء ما يزيد طوله على ذلك فتقوم النساء بربطه إلى الوسط أو رفع طرفه بإحدى اليدين.. وأحياناً تترك فتحتان على طرفي (الروب) الضيق لسهولة المشي أو العمل حيث يتم ارتداء لباس حريري غالباً بطول الروب وذلك تحت الروب.. وقد تم لهذا الغرض استعمال وصناعة السروال الداخلي باسم (لباس) وهو فضفاض ومختوم على الكاحلين بخيط من القطن الملون والمقوى.

كما يجمع الأزياء الشعبية النسائية في شمال سورية استخدام اللون الأسود بشكل أساسي مع إضافة عناصر رئيسة من ألوان أخرى.

كذلك استخدام الجيب المخاط على الخصر الأيسر غالباً لوضع النقود والحاجات الشخصية كالمشط والمرآة والعطور وبعض الخيوط والأبر والدبابيس للحاجات الضرورية خارج البيت.. والأهم من ذلك أن تلك الأزياء كانت تصنع وتخاط بشكل يدوي ويتطلب إنهاؤها عدة شهور مما أضفى عليها الصفة التراثية والفنية والحرفية.

السمات المتميزة للأزياء النسائية:

لكن تلك الأزياء تختلف من حيث الجودة والنوعية حيث تعبر عن الوضع المادي والاجتماعي لمن ترتدي ذلك الزي (فالروب) الأسود المصنوع من القطن قد

يكون من الساتان أو الدبك (الكبردين) وتعلو قيمته بحسب التطريز الذي يضاف إلى (الروب) والذي يستمر شهوراً ويصل إلى السنة أحياناً.

اختلاف التسميات بحسب المناطق:

وتختلف تسميات تلك الأزياء من منطقة إلى أخرى، فزي ناحية خان شيخون وشمال محافظة حماة يسمى (الكب) بينما يسمى نفس النوع من اللباس في ناحية سراقب بمحافظة إدلب بالقندورة وهي كلمة جاءت من الغندورة وهي المرأة المكتنزة.. وفي مدينة بنش (الشالح البنشي) أما في ناحية الدانا وسرمدا وبعض مناطق حلب الجنوبية فيصنع الزي من المخمل الأسود والملون بألوان أخرى أحياناً، حيث يُزَم الروب من الوسط ويلف الخصر بزنار من الحرير الطبيعي بينما يصنع زي سراقب وخان شيخون من اللباس القطني ودون زمة بالوسط وبما يشبه الكلابية.. وتقاس قيمة تلك الأزياء بكمية ونوع الحرير وحجم المسافات المطرزة ومدة خياطته بشكل يدوي.. وإذا كانت تلك الأزياء تجتمع بمواصفات القطع التي تلحق بالروب الرئيس للجسم بوجود أغطية الرأس المصنوعة غالباً من الحرير الطبيعي المطرز أحياناً بخيوط الفضة فإنها تختلف بنوعية وقياس وجودة تلك الأغطية وطريقة وضعها أو لفها للرأس والرقبة والأكتاف وتدليها على الصدر والظهر وحتى القدمين أحياناً.

بعض من الأزياء المميزة في محافظة إدلب:

الكب الأسود في خان شيخون:

ويعتقد بأن ذلك الزي آرامي الأصل حيث كان سكان ريف بلاد الشام يرتدونه



فسمي بالزي الشامي ولا زال يوجد في فلسطين والأردن حيث يستخدم كلباس للمناسبات هناك، وعموماً فإنه قد بدأ يتقلص ويتراجع منذ الخمسينات مع توثق الصلة بين الريف والمدينة وإمكانية الحصول على أقمشة أرخص ثمناً وأقل كلفة بالخياطة بل يمكن القول بأنه قد تحول إلى زي شعبي تاريخي وتراثي يعكس هوية وعادات وتقاليد سكان المناطق التي استخدمته ولا زال العديد من قطع هذا الزي محفوظة لدى أصحابها يتوارثونها.

يتألف زي خان شيخون من (الكب الأسود) المصنوع من القطن (الساتان - الدبك) والمطرز قديماً بالحرير الطبيعي بدون لمعة، وحالياً بالحرير الصناعي الذي يشكل رسوماً وألواناً جميلة على الكتفين والصدر والمزين بالقصب والخيوط الذهبية، وهو أشبه بالكلابية ويخاط باليد حيث كانت تستمر خياطة الكب الواحد

سابقا بين ٦ - ١٢ شهر وحسب كثافة التطريز، وكان هناك نساء متخصصات بخياطة الكب حيث تعقد النسوة السهرات للخياطة على ضوء لمبات الكاز، وكان عدد الخياطات كبيراً كون الطلب عليه كبيراً أيضاً باعتباره اللباس الشعبي السائد، وكانت الكبوب الزائدة التطريز للعائلات الغنية. إضافة إلى الكب يوضع على الرأس شمبر أسود مصنوع من القطن بنسيج مكرنش يبدأ من الطاقية ثم الشمبر الذي يتدلى على الصدر ليغطي تماما فتحة الصدر، ويلف الرأس (الطاقية والشمبر) بالعصبة التي تلف كلفة الشيخ وهي مصنوعة من القطن ومرصعة بخيوط الفضة غالباً، وأحياناً الفضة مع الذهب.. أما بالنسة للحلي الذهبية المستخدمة مع ذلك الزي فهي:

الشوكة: وهي قطعة ذهبية صغيرة الشكل لها حلقة من الخلف وكلابة من الأمام ومرصعة بحجر كريم تربط بين العصبة والشمبر.



الثريا: وتتألف من عشر ليرات ذهبية مصفوفة كل ثلاثة تشكل مثلث يتوسطها حجر كريم وتستخدم بدلاً من الشوكة.

الشباح: وهو سلسلة من الليرات الذهبية (أرباع أو نصاص أو كاملة) تربط بسلسلة ذهبية أو خيط قطن أحمر.

الشنون: يتألف من مثلث ذهبي على الجبهة، يتوسطه حجر كريم ومثلثين على جانبي الرأس فوق الأذنين ومشنشلات بسلاسل ذهبية (صف فوق الأذنين يربط في كل جانب أربع ليرات ذهبية) وترتبط هذه القطع بسلسلة ذهبية تربط خلف الرأس. وهناك فارق يميز العازبات عن المتزوجات في اللباس والحلي الذهبية حيث أن العازبات لا يضعن الذهب، ويضعن العصبة تحت الذقن، بينما تضعها المتزوجات على نصف الرأس كما كان يستخدم مع ذلك الزي (البابوج الأصفر) وهو حذاء نسائي مصنوع من الجلد الحيواني ويتميز بأنه مدبر من الأمام وأرضية نعل من جلد البقر.

القندورة في سراقب:

يتميز الزي الشعبي لمدينة سراقب عن بقية الأزياء الشعبية في سورية حيث اكتسب شهرة عمت الآفاق حتى شغف الناس به ليس في سورية فحسب بل في الوطن العربي وبعض البلاد الأوربية ويتألف ذلك الزي من ثلاث قطع رئيسة وهي:

غطاء الرأس (الحطاطة): وهي قطعة من الحرير الأسود مربعة الشكل ومطرزة بخيوط القصب أو الذهب وتلف على

الرأس بطريقة تظهر وكأنها أشبه بالعمامة ولكنها تغطي الرأس كله.

الشمبر: ويتكون من قطعة قماش بطول سبعة أمتار وعرض ٢٠ سم مصنوعة من الحرير الخام تغطي عنق المرأة والصدر والظهر وهي قطعتان.

وتحلى الحطاطة بالذهب وذلك بوضع صفين من القطع الذهبية على جانبي الوجه وعلى أربع طبقات.. القطعة الكبيرة من الأسفل والصغيرة من الأعلى.. ويحلى الشمبر عند وسط الصدر من الأسفل بمجموعة قطع ذهبية تسمى (العوينة) كما يحلى أعلى الرأس والظهر بسلسلة يبلغ طولها مترين محملة بالقطع الذهبية وتوضع على لفتين على الظهر وتسمى (المرسلة) ويشبك الشمبر على الحطاطة بما يسمى (الدح) وهو قطعة من الميناء الأزرق مؤطرة بالذهب ومحملة ببعض الغوازي الذهبية على جانبي الرأس

القندورة: وهي القطعة الرئيسة وتتكون من القماش الغالي الثمن من (الساتان أو الكبردين) وفي اللغة المحلية (الدبك) ويكون لونها أسود حصراً وتكون إما لامعة وتسمى الطلس أو سوداء فاتحة وتخاط بشكل فضفاض مراعاة للتراث وسهولة الحركة وتطرز بكمية كبيرة من الحرير الأحمر الخام بشكل مربعات ومثلثات على أرضية محايدة مما يجعلها مثالاً حقيقياً لفن الآرابيسك العربي وانسجاماً مع التراث، وتحلى ببعض الخياطات الملونة بشكل عفوي لإكسابها قيمة جمالية في الشكل ولها عدة أنواع هي (الطلس - السكة - القيس) ولكل قندورة من هذه الأنواع ما يميزها عن الأخرى

وتعتبر قندورة الطلس أغلاها ثمناً كونها تأخذ أكثر من الحرير وتأخذ وقتاً أطول في الخياطة مما يزيد كلفة صناعتها وقيمتها.. أما من حيث زمن خياطة القندورة فيمكن



أن يستغرق أكثر من سنة حيث تخاط بشكل يدوي..

وإذا كانت المواصفات التي تحدثنا عنها للباس سراقب الشعبي تنطبق على لباس المتزوجات فإن لباس العازبات يختلف في غطاء الرأس حيث ترتدي العازبة حطاطة اصطلح على تسميتها بالحطاطة الحمصية وهي نفس حطاطة المرأة المتزوجة كقطعة حرير مربعة بلون أسود ومطرزة بخيوط القصب والذهب ولكنها تلبس من قبل العازبات كما يلبس المنديل، وتضيف الفتاة العزباء ما يسمى بالقراميل من الخلف وهي خيوط تضفر

من الشعر وترسل على أسفل الظهر.

الشالح في بنش:

ويتكون الشالح من (روب) مغلق يتألف من قطعة واحدة كان يصنع من الحرير الطبيعي أو الصناعي أو المخمل سابقاً، أما حديثاً فيصنع من قماش (الساتين) أو (البوبلين) أو (الشيت) وهي الأقمشة



السائدة والأرخص ثمناً حيث تطرز بخيوط الساتين ومن نفس لون الشالح على الصدر ونهاية الأكمام، وما يميز ذلك الزي الشعبي أن الشالح يلف من الوسط (الخصر) بالزنار المصنوع من قماش الخاصة القطني الأبيض اللون وبطول مترين وعرض ١٥ سم والمطرز بألوان ورسومات متنوعة ويعقد على الخصر الأيسر ويتدلى طرفه إلى الأسفل.

الحطاطة: وهي قماش مصنوع من الحرير ومقصبة بخيوط الفضة ومزينة بخيوط الحرير على أطرافها وهي بشكل مربع تبلغ مساحتها متر مربع وتلف وتعقد فوق الجبين تربط إلى الخلف بشراشيب متصلة بالحطاطة من أربع جهات، ثم المنديل الذي يلف على الرقبة ويتصل بالحطاطة ثم يتدلى إلى الخلف تحت الزنار ويلف إلى الأعلى ويربط بالزنار.

القطع الذهبية: تتعدد وتتنوع القطع الذهبية التي تزين اللباس الشعبي لمدينة بنش حيث تبدأ بصف من الذهب المتصل بالطاقية ويظهر نصفه ويتألف من ثلاثين قطعة نصاص غوازي، ثم شقّالات ذهب تصل بين الطاقية والحطاطة من الجبهتين إلى الوجه (الجبين) وتتألف من ١٢ قطعة ذهبية تتصل بكلابة فضة يتوسطها حجر كريم، إضافة إلى ذلك يوجد قطعة ذهب على الصدر تسمى (عود) تتكون من ١٢ قطعة ذهبية من الأسفل وثلاث قطع من الأعلى تتصل بقرمة العود المصنوعة من الفضة بشكل مستطيل ثم طوق على الصدر من بكرات ذهب برأسها ٣٠ قطعة ذهب تتصل بقطعة قماش مخمل تربط بعروة وزر من خلف الرقبة وتحتها زردة ومخمسات مؤلفة من خمس قطع معلقة بسباحة وتحتها القلادة المكونة من ١٠٠ قطعة ذهبية على صفين تعلق على الرقبة، ثم المحمدية المصنوعة من الفضة التي يحيط بها ٦ نصاصي جهادي على شكل دائرة.

الروب المزنر بالحرير في سرمدا:

يعتبر الزي الشعبي لبلدة سرمدا زي المناطق الشمالية لمحافظة إدلب ويشابه في الروب زي ناحية بنش خاصة من ناحية زمة الوسط والزنار لكنه يختلف عنه تماماً في غطاء الرأس والحلي الذهبية، بينما يختلف بشكل جذري عن أزياء سراقب وخان شيخون، فهو يتكون من روب كامل من قماش المخمل قديماً، ومن القماش العادي حالياً، ويزم الروب من الوسط يلف حول الخصر بزنار من الحرير الطبيعي قديماً والعادي حالياً بطول ٢ - ٤ أمتار ويلف بين /٢-٣/ لفات حسب محيط الخصر ويغطي الرأس بمنديل مزين بالذهب الجهادي (الليرات الذهبية) قديماً وبالمجوهرات المقلدة حالياً حيث يصف الذهب أو المجوهرات المقلدة تحت الحطاطة على الجبين والجبهتين بحيث تظهر نصف الليرات الذهبية.. أما الحطاطة فتصنع من قماش الحرير الأسود وبقياس متر مربع مقصبة بخيوط فضة عريضة، ولها خيوط متدلية على الظهر، أما الغطاء والشمير فيوضع تحت العصبة وطوله أربعة أمتار، كما يزين اللباس بأساور من فضة وقلادة من خرز العقيق توضع حول الرقبة، ويلحق مع الزي حذاء نعلي يسمى المركوب الأحمر، ويقول أهل سرمدا بأنهم منذ آن خلقوا عاصروا ذلك اللباس الذي يلبس اليوم في المناسبات السعيدة وللدعوة إليها، كما أنه يصلح كلباس للعمل الحقلي والبيت وللزينة وقد تراجع ذلك اللباس شأنه شأن غيره من الأزياء الشعبية في محافظة إدلب وبات يقتصر على المتقدمات بالسن يرتدينه في المناسبات السعيدة، وقد كان قديماً يخاط بشكل يدوي بالإبرة والخيط أما اليوم فأنه يخاط آلياً باستثناء الحلي المقلدة (البرق) التي تخاط يدوياً... وللحفاظ على ذلك التراث الأصيل فقد قامت بعض العائلات وبعض المنظمات الشعبية بصنع ذلك اللباس (الزي الشعبي) لعرضه في المناسبات الوطنية والشعبية والسياحية.❋

في الأعداد القادمة

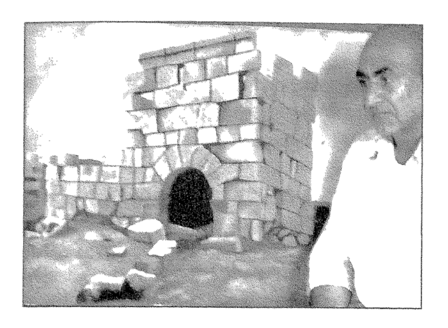
- الانثربولوجيا؛ النشأة والمآل.
- وصفي زكريا، الآثاري الوطني
- قناة حيلان.
- ذكريات شاهد على الصحافة الحلبية.
- الحب بلغة الأزهار.

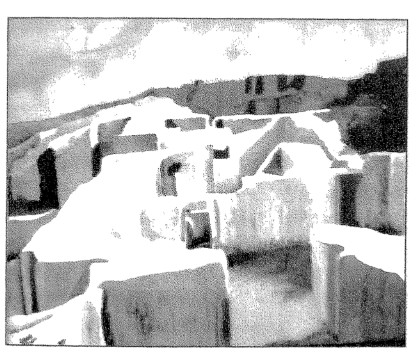
لوحات تشكيليّة

هذه بعض لوحات **سمير قريطبي**؛ وهو فنان تشكيلي من إدلب، ينتمي إلى المدرسة الواقعية، يساهم على طريقته في توثيق المواقع الأثرية في محافظة إدلب وسوريا عامة.

شارك في الكثير من المعارض:

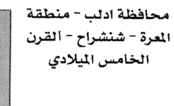
- مهرجان المدن المنسية.
- المدن التي لا تنسى.
- حلب عاصمة الثقافة الإسلامية بعنوان (المدن الحاضرة في الذاكرة)
- مهرجان أبي العلاء المعري.



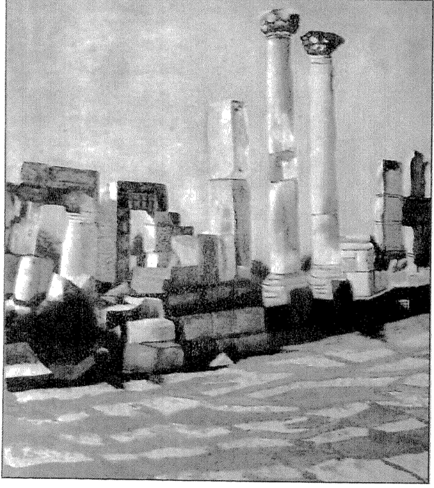


ابيلا - المكتبة - منطقة سراقب - إدلب

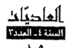




محافظة ادلب - منطقة المعرة - شنشراح - القرن الخامس الميلادي



آفاميا - بقايا أعمدة - القرن الثاني الميلادي



إدلب والزيتون

حكايات من الأمس الجميل

مصطفى محمد عبد الفتاح *



يا غصنَ الزيتونِ أتينا
مِنْ طيبِ التاريخِ سَعَيْنا
تزهو إدلبُ شمسَ ضياء
و زهوراً تشتاقُ إلَينا

إذا تشابكت خيوط الشمس المشعة مع أوراق الزيتون والتين والمشمش واللوز، وألقت ظلالها فوق تربة حمراء، فاعلم أنك في إدلب الخضراء، إدلب العروس التي يكللها تاج من خضرة الزيتون، وتزين نحرها عناقيد العنب، وتسور معصميها حمرة التين وصفرته، وتصفق بخلاخيلها حبات المشمش والجوز واللوز.

إذا وقفتَ فوق روابيها وسرَّحت البصر بعيداً بعيداً سيحاصرك امتداد البحر من كل الجهات، لكنه ليس بحراً أزرق المياه، إنه بحر أخضر يتسابق مع الأفق فلا يسبقه الأفق، وإذا أردت أن تسعف الأفق المهزوم أمام الخضرة البهية فما عليك سوى ارتقاء التلال إلى الجبال، لكنك ستفاجأ بامتداد من نوع آخر؛ خضرة تناطح الغيوم تتألق بعقود رائعة الجمال من الكرز الأحمر، إنها شفاه عروسنا إدلب وكأنها تتهيأ لفرحة الزفاف.

إدلب الخضراء ما زالت تحمل بين جنبيها الكثير من ألق الماضي، لكن الذي نسيه الزمان كان أكثر مما وصل إلينا، وإذا أردنا السياحة في عبق الزمن فما علينا سوى الاستماع لحكايا جداتنا في الأمسيات

* طبيب وشاعر.

العائلية الدافئة، فما زالت الذكريات تحفر عميقاً في قلوبهن.

إذا دار الحديث عن قطاف الزيتون فسوف يبدأ بتلك الكارثة التي حلت في شتاء عام (١٩٤٩م) بأشجار الزيتون؛ لقد نزل الثلج غزيراً واستمر بضعة أسابيع، فأصاب الصقيع أشجار الزيتون بالموت، وتعبر العجائز عن ذلك بقولهن: "احترق الزيتون" وكأن الثلج كان يضمر ناراً لاهبة عصفت بالأشجار الخضراء فتركتها أعجازاً خاوية، ولا يبالغ الناس حين يسمونها كارثة فقد كانت أشجار الزيتون تمثل المورد الأساس لسكان إدلب، وما زال الأمر كذلك بالنسبة للكثير من العائلات.

كان الناس في ذلك الأمس يعقدون خيوط حياتهم بموسم الزيتون، فهم يستدينون المال من بعضهم والوفاء عند الموسم و يؤجلون الكثير من مشاريعهم إلى ما بعد الموسم، فالخطبة والزواج وتبديل الأثاث أو إصلاحه وغيرها تؤجل إلى ما بعد الحصول على جنى المحصول.

عندما أصيبت أشجار الزيتون باليباس في ذلك الشتاء القارس اشتكى الناس لربهم الكريم، ونقل إلينا التراث الشفاهي أغنية تداولها الناس في ذلك الزمان تعبر عن مصابهم، وهذه الأغنية مشهورة عند بعض الجدات باسم: "أغنية يباس الزيتون":

مِنْ عَقْلي لَنْظُمْ فنونْ

عَلَى يَباس الزَّيْتونْ

عَنَّا يِبْسِت الأَشْجارْ

ومن وين نوفي الديون

من الزيت ما عندي تقلي

و من فقري آنا بعت المقلي

عجة بطلنا نقلي

اندرنا ع أبو أمون

و عاد الناس بعدها للعمل فزرعوا الغراس الصغيرة في السهول والوديان..

أنا فلاح بايدي زرعت

بسهل الروج زيتوني زرعت

زرعت أرضي بثمار الجنة

و خليت ارضي مثل الجنة

ثم دعوا الله الرحيم ليغيثهم ويغيث مزروعاتهم بهدايا السماء: " يا رب هلكون الواسع.. يا رب هلعبد الضارع.. ماتت مواسم الزيتون.. من يوم مات المطر.. غيث عبدك المجروح.. غيثو يا ربنا بالمطر".

و في كل شتاء يرسل الله تعالى رحماته غيثا فوق هذه الروابي وسيولا في وديانها، فيغني الناس فرحا:

يا مطر شفنا خيراتك

عمتملي وادينا

فضل علينا الرحمن

عمتشتي بأراضينا

و لكنو باس الزيتون

و شمتو فينا أعادينا

ربي الكريم بيعطي

وخيراتو والله بتحيينا

و في الربيع يزهر الزيتون، ويحاول الناس أن يكونوا فكرة عن الموسم القادم من خلال الزهر في شهر آذار، وثمة مثل شعبي يوضح هذه النقطة يقول: "في آذار بيكشفوا الخبار".

و مع إطلالة الخريف تنضج ثمار الزيتون، ويستأجر صاحب الأرض "فعالة"، وهم عمال وعاملات من العائلات الفقيرة ينطلقون لقطاف الزيتون قبل شروق

الشمس، وقد نقل إلينا أجدادنا ترنيمة جميلة كان "الفعالة" يرددونها وهم في طريقهم إلى القطاف:

أع الطيرْ عَيْني ع الطيرْ
يا هلا وصَباح الخيرْ
وَ الله انْ صادفْتَكْ مَرَّةْ
لَقُصّ جْناحَكَ يا طيرْ
يا طيْرْ وِيْنَكْ طايرْ
شلّي بْتِمَّكْ كِبَّادي
صَدْر البُنَيَّة جامعْ
حَلَتْ فيه العِبادة)

و قد يذهب "الفعالة" إلى الأرض مشياً على الأقدام أو نقلاً بالعربات التي تجرها الدواب، ويحمل كل منهم "زوادته" الخاصة من المأكولات المتوافرة في البيت من "المونة" أو من طبخ المنزل، والجميع متفقون على أسماء مميزة للأراضي فهناك أرض "وادي الآس" وأراضي "وَطا الجمَّال" وأراضي "بَكَفْلون" وأراضي "عَلا حَفْسَرْجَة".. و.. إلخ.

في بداية عملية القطاف يمد "الفعالة" عدتهم والتي تدعى: "القلوع"، وهي عبارة عن قطع منسوجة من القنّب تمد تحت الأشجار لتتساقط عليها ثمار الزيتون، وتوضع "السلاّتات" وهي سلالم ثلاثية الأرجل يتسلق فوقها "الفعالة" للوصول إلى الأغصان العالية، أما البقية فيتوزعون حول الشجرة لقطاف الزيتون من الأغصان المنخفضة، وتستخدم "العاقولة" و"المسَّاس" في عملية القطاف، وهي عصي متينة وطويلة إما معقوفة النهاية: "العاقولة"، أو مستقيمة النهاية: "المساس" لجلب الأغصان البعيدة أو ضربها لتتساقط الثمار التي لا يمكن الوصول إليها، أما دور النساء فهو جمع الزيتون المتساقط فوق "القلوع" في "الزنابيل" وفي "الدراميل" وهي "زنابيل صغيرة".

و بعد طوي "القلوع" ورفعها من حول إحدى الأشجار يقوم الأطفال بعملية "الطَّوْرَشَة"، وهي عبارة عن جمع حبات الزيتون المتبقية بعد عمل النساء، وكل طفل يحمل "درمولاً" يجمع فيه ما استطاع من ثمار الزيتون الباقية، وعند البيع في نهاية النهار يحتفظ كل طفل بثمن الزيتون الذي جمعه لمصروفه الشخصي، فهو قد تعب ويستحق هذه المكافأة.

و لا تمضي عمليات القطاف دون تسلية؛ فالتسلية تساعد "الفعالة" على استمرار النشاط، وعادة ما يقسم "الفعالة" إلى عدة مجموعات، وكل مجموعة لها "سلسال" من أشجار الزيتون؛ أي رتل من أشجار الزيتون، فتتنافس المجموعات في عمليات القطاف، وتنادي إحدى المجموعات بقية أخواتها بالنداء التالي: "بدنا نتراغم معكم"، أي نريد أن نسابقكم في القطاف، والمجموعة التي تسبق يقول أفرادها: "درملناهم"؛ أي تغلبنا على بقية المجموعات بعدد "الدراميل" التي جمعناها.

في تلك الأيام كان أبو ليلى "السَّوَّاس" -بائع السوس- معروفاً لدى الجميع، وكان يحمل على ظهره أسطوانة معدنية فضية مليئة بالسُّوس ولها في أسفلها صنبور صغير، وفي يده كان أبو ليلى يحمل "طاسات" معدنية "يخشخش" بها ليعرف الناس بقدومه، كان أبو ليلى يلقي السلام ويقول لصاحب الأرض: "على البركي.. الله يبارك في الموسم"، فيطلب منه صاحب الأرض أن يسقي "الفعالة" من شراب السوس اللذيذ ويعطيه "درمول" زيتون

مقابل ذلك.

و أثناء القطاف تقوم العجائز بفصل الزيتون عن "العطون" وهو الزيتون الأسود الناضج، ويفصلن كذلك "الجرجير" وهو الزيتون الجاف المجعد ليوضع في أوعية خاصة.

من بعيد يُسمع صوت يقول: "كسيب وحلاوة يا سمسمية"؛ لقد أتى بائع "السمسمية" الحلوة، وهنا يعتبر قدومه مؤشراً على بدء فترة استراحة قصيرة للجميع؛ حيث كان "الفعالة" يتناولون هذه الحلوى وهم يغنون هذه الأغنية التي أخذتها عن رجل عجوز جاوز الثمانين:

يا بَيَّاع السِّمسميِّةْ
و السِّمسْميِّةْ بْمِيِّةْ
يا مصطفى ارفاعْ بْراسَكْ
كَثِّرْ بارودَكْ وارْصاصَكْ
و لَوْ تَعْرِفْ مينْ هيْ اَلْماسَكْ
سَنَى الحُلْوة الإدْلبيِّةْ
يا بَيَّاع السِّمسميِّةْ
و السِّمسْميِّةْ بْمِيِّةْ

و ينال بائع السمسمية في نهاية الأغنية "درمول زيتون على كيف كيفو".

و يوضع الزيتون فوق "السَّرَّادات" وهي آلة من المعدن عبارة عن سطح معدني مشبك ومائل تتدحرج فوقه حبات الزيتون لتفصل الثمار عن الأوراق، وتسقط الثمار في الأكياس المفتوحة المعلقة في نهاية "السَّرَّادَة".

عند الظهيرة يجلس الجميع لتناول طعام "الزوادات" وهم يتبادلون الفكاهات والتعليقات الطريفة، ويلوح من بعيد أبو حشيش المهرج، وأبو عرَّاج الزَّجَّال الذي يبدأ بالتغني بمزايا صاحب الأرض: "مين مثلو أبو سعيد، ومين بهلدنيا أدو، بموسم الزيتون جينا، جيناك لتراضينا، إنتِ الجود والكرم كلو، وأنت للطالب ما بتردو.. شاباش..".

و يطلب الجميع من المهرج أن يغني، فيقول: "بدِّي غني وما حدا بيزعل؟"، فيوافق الجميع، عندها يبدأ بالغناء وهو يشير إلى هذه وتلك من "الفاعلات" ويردد الجميع خلفه وهم يضحكون من حركاته:

ليكو الشقرة.. ليكوها
بتعمل هيكي.. ليكوها
لازم هيكي.. ليكوها
ليكو السمينة.. ليكوها
بتمشي هيكي.. ليكوها
هيدي هيكي.. ليكوها

و يكسب المهرج والزجَّال "درمولين" زيتون ويغادران لأنهما من "الشباب المعَدَّلِيْنْ".

و يعود الجميع إلى القطاف ويتعاهدون على قطاف "سِلْسَالين" من الأشجار "امْقاطَعَةْ"؛ أي أنهم لن يعودوا إلى منازلهم ما لم يقطفوا كل أشجار هذين الصفين من الزيتون، وهذا يحفزهم على العمل بهمة وسرعة لينصرفوا باكراً إلى بيوتهم، إلا أن دعوة الطَّبَّال حين يأتي للدَّبكة لا تقاوم، فيشارك الجميع في الدبكة وهم يرددون هذه الأغنية:

عَ لالا ولالا ولالا يابَهْ
و ليش الزَّعَلْ يا خَالَهْ
وَ أنا ماني مْزاعِلْها يابَهْ
وَ هيِّي زِعْلِتْ لَحالا
وَ الله لَعَبِّي الجَرَّةْ يابَهْ
مِنْ مَيِّتَكْ يا الْعاصي

حُبّي راسُو بْيوجَعو يابَهْ

رِيتُو الوَجَعْ لَراسي

و ينال الطبال "درمول" زيتون ويغادر شاكراً.

و في نهاية نهار القطاف يحمل "الفعالة" أكياس الزيتون -"الشوالات"- إلى المعصرة، ولا ينسون أغنية مغادرة الأرض بعد يوم عمل مجهد:

"غ لْماني يا يُمّا ماني

عَ الأسْمَرْ زينِ المَعاني

و ماني وماني وماني ومانْ

وَ ماني خايِفْ عَ البُسْتانْ

و لَ ابْعَتْ لَحُبّي سَلامْ

يْبَكّي حْجارِ الصُوّاني

ثم يعودون إلى منازلهم في انتظار صباح عمل جديد.

في معصرة الزيتون تتلامح صور رائعة من التكافل الاجتماعي الذي كان سائداً في إدلب في ذلك الأمس الجميل، كل صاحب موسم يقوم بتوزيع زكاة موسمه بسخاء على الفقراء الذين يعرفهم، ويهدي جيرانه من عوائد الموسم حتى لا يبقى أحد من أهل البلد إلا وقد دخل بيته شيء من الزيتون والعطون والزيت.

في معصرة الزيتون يستغل الناس خروج الزيت الحار من مساكب المعصرة ليصنعوا الطبق الخاص الذي كان. وما زال . يميز هذه المدينة الخضراء؛ إنه طبق "الزَّنّانة"؛ حيث تضع النساء خبز التَّنُّور الطازج في صحاف كبيرة ويُفرط فوقه حب الرمان. ويُفَضَّل أن يكون حامضاً . بالإضافة لبعض المُكَسَّرات، ثم يُسكب الزيت الحار، و يتناول الجميع هذه الأكلة اللذيذة:

(غنُّوا يا شَباب الخيرْ

عَ أَكْلة الزَّنّاني

و إجانا مْنِ الخيرْ كثيرْ

وْ رَبّ السَّما أَعْطاني

و صبيِّلي شْوَيِّةْ زيتْ

مِنْ هَلْجَرَّة المَلْياني

و حُطّي فوق الخبزة زيتْ

و فُوقها افْرِطي الرُمّاني

يا مَحْلا زيتكْ مِنْ نُورو

شِفْنا بِاللّيالي

زِيتكْ مِنْ خَدّ الصَّبايا

لونو ومْنِ الغَوالي)

إنه موسم مبارك وكما يقولون: "الأرض وعاء؛ اللي بتصبوا فيه بتغرفو منُّو".

و بعد.. هذه لمحات من الأمس الجميل في إدلب عشت أصداءها التي تتردد في حكايا جداتنا وجدودنا عن عبق الأيام الماضية، وما زال عبيرها يتضوع كل عام في معرض الزيتون السنوي الذي يقام للاحتفال والمنافسة بين الفلاحين كمهرجان أخضر تتراقص عرائسه دلالاً وتيهاً في رحاب محافظتنا الخضراء، وفي هذه الأيام، ومع إشراقة كل يوم من أيام الخريف ينطلق أهلونا إلى قطاف الزيتون في طقس جماعي جميل يشارك فيه الجميع؛ يشارك فيه العامل والفلاح والمهندس والطبيب ومعلم المدرسة والأطفال، إنها نزهة ممتعة لا يملها الناس..

يا عِطْرَ الزَّيْتونِ الأَخْضَرْ

يا دوحا للحب الأنضر

فيك نبتنا، منك ولدنا

غصنا فتانا قد أزهر ❀

الأهزوجة

في تراث إدلب الشفاهي

عبد الحميد مشلح *

إن تجذّر تراثنا الشفهي في موروثنا الشعبي يدلّ على أصالة شعبنا وعمقه التاريخي.

وتشكّل الأهزوجة، مع أخواتها الأغاني والأمثال الشعبية، جزءاً هاماً الأدب الشعبي وهي لون يُتلى بلهجات تتلوّن وفق اللهجة المحلية لأبناء المناطق المختلفة.

وقد كانت الأهزوجة في بلاد الشام وما زالت عموماً تقال في كافة المناسبات والأفراح، بحيث تواكب حياة الإنسان في جميع مراحلها.

وهنا نستعرض ما يتردد من الأهازيج في المناسبات الاجتماعية في محافظة إدلب.

الولادة: حيث تهزج أم أو أخت المرأة (النفسى) بعد الولادة **(الحمد لله يا الله، زال الهمّ إن شاء الله، وموسى تاجى ربّه، وجانا الفرج من عند الله)** تعبيراً عن زوال الخوف على الابنة الحامل، ثمّ يبادر أهل الزوج بتهنئة كنّتهم حمداً على سلامتها هازجين **(شعَرك المدلّى، وخدودك المرايا، والحمد الله يا ربّي، ما خليتي من بين الصبايا)** وقد يبادر الأقربون من أهل الزوجة والزوج معاً إذا كان المولود أنثى بالتهوين على الأم بقولهم **(وشلحتْك قميصك، وحطيته جنب راسك، ولا فرحتلك بالبنت ولا بالصّبي، إلاّ بقيامك وخلاصك)** أمّا إذا كان المولود ذكراً فتبادر أمّ المرأة أو أمّ الزوج إلى الأهزوجة التالية: **(جابت وقامتْ، وعلى فراش الهنا نامت، والحمد الله يا ربّي، ما شمتْ فينا شامتْ).**

الختان: من المتعارف عليه أن ختان الطفل يجري بعد مرور أسبوع من ولادته، وترافق هذه العملية مجموعة من الأهازيج، أولاها تقال "للمطهّر" كي يكون رفيقاً بالطفل أثناء ختانه حيث تطلق جدّته غالباً الأهزوجة التالية: **(يا مطهّر خفْ ايدك، وريت العوا في تزيدك، وتمسك شبّاك النبي، وتهزّو بايدك).** وتعلن النسوة عن فرحتهن فيطلقن الأهزوجة التالية: **(أشو هدا، وأشو فنّو، وان شاء الله يوم عرسك، منعمل أحسن منّو)** وأثناء عملية الختان، تطلق إحدى النسوة هذه الأهزوجة **(ريتو مبارك، وريتو سبع**

---

* باحث في التراث الشعبي.


مشاهد من مراسم الخطبة - من منمنمات للفنان محمد قباوة

بركـــاتي، وان شـــاء الله بتطيــب ويتمشـــي، وبتكتمـل فرحـاتي) وبعـد أن ينـهي المطـهّر عملية الختـان يُلـفّ الصـبيّ ويُعطـى لأمّـه وعندهـا تطلـق إحـدى النسـوة الأهزوجـة التالية: (وياخضر الأخضر، ويا عبد اللطيف، وعينك على المطهَّر ورسمالنا ضعيف).

وعندمـا يكـبر الطفـل ويصبـح شـاباً تصاحب الأهـازيج مراسم الخطبـة والـزواج خطوة بخطوة.

الخطبــة: بعـد الاتفـاق والرضـا بـين الأهل، على المهر وبقيـة الأمـور الأخـرى، مـن معجّـل ومؤجّـل، تبـدأ أولى مراســم الخطوبة بحفل تلبيس المحبس، وغالباً مـا يرافقـه تقـديم قطعـة ذهبيـة أخـرى تبعـاً للحالـة الماديّة للعريس، ويقـوم فيـه أهـل العريس بالغنـاء والأهـازيج والرقص حيث تكـون معظـم هـذه الأهـازيج مدحـاً لأب العـروس وأمّـها، لأنّـه كمـا يُقـال: مـا تـزال الحـلاوة علـى النـار. وتبـدأ هـذه الأهـازيج بشـكر والـد العـروس علـى حسـن ضيافتـه، بقولـهم (أبـو العـروس ضفنـا مـنزلك ضفنـا، وعملْت معنـا معـروف، ومعـالقك مـن دهـب، وصحونك من فضّة، وعمرك طويل ولا ينقص ولايفنى) ثمّ تتقدم والـدة العريس من والـدة العروس وتقول لها (روبي زيْتي وعلّقته ببيتي، والله يخلّيكي يـا أم العـروس، علـى هـل صبايـا اللي ربيتي).

ومع استمرار حالة الفرح والغناء تقوم إحـدى قريبـات العريـس وغالبـاً مـا تكـون عمّتـه فتمـدح أهـل العـروس ذاكـرة أسـباب مصاهرة أخيها لهم بسبب كثرتهم ومكانتهم الاجتماعيـة بقولهـا: (أهـل العـروس يـا نمـل الشجر، ويا منبوع الميْ من تحت الحجر، وما عدمكم يـا مقـابلين الـوزر) ثمّ تتقـدم أخـت العريـس أو إحـدى قريباتـه بالأهـزوجـة التاليـة، كنايـة عـن فرحهـا بهـذه المناسـبة بقولهـا: (كلّـل النـدي، وحـط عـل فـانوس، وزلغوطـة طويلـي لأهـل العـروس) وفي ختـام

الحفل بعد أن يُلْبِس العريس عروسه المحبس تتقدم إحدى قريبات العروس وتقول: (**ها، شو هل نهار اللايق، اللي جمعت فيه الصدايق، وطقت قلوب العدى، وقت حقت الحقايق**).

الجهاز: وتمرّ الأيام ويقوم الأهل كلّ فيما يخصّه من تجهيز عش الزوجية وبعد تأمين كافة حاجيّات العريس والعروس المختلفة، يأتي يوم نقل الجهاز إلى بيت العريس ويتم ذلك عادة برفقة الفرح والرقص وقرع الطبول ويواكب ذلك كلّه الأهازيج، إذ تبدأ النسوة من قريبات العريس والعروس بترتيب الجهاز قبل يوم من نقله هازجات بقولهنّ: (**ميلي عل جنبين، ويا أصيلة الجدين، لا جهيزك عييري**[1]**، ولا نقدك بالدين**) وتردّ غالباً أمّ العريس أو أخته اللتان تدعيان عادة لترتيب الجهاز بالأهزوجة التالية: (**أشو هادا، وأشو منّو، وانشا الله يوم مناخدك، بنعمل هيك وأحسن منّو**).

وفي اليوم التالي لترتيب الجهاز يحضر الرجال مع بعض النسوة مع الطّبل والزّمر، لنقل جهاز العروس إلى عش الزوجية، فتبدأ النسوة من أقرباء العريس فور دخولهنّ منزل والد العروس بالأهزوجة: (**أبو العروس نحن اليوم بنحييك، وياقصر عالي والتجينا فيك، سألت ربّ السما يرحم لأبيك، ويجعل العمر الطويل إلك ولبْنيك**)، ومع بدْء حمل الجهاز من قبل الشباب والرجال تبدأ النسوة بالأهزوجة التالية: (**الله يخلّيك يا أبوها، والله يكثّر مالك، طلعْ جهيز الغالي، وطلعْ القمر من دارك**) وبعد نقل قسم من الجهاز تنطلق أهزوجة أخرى من قريبات العريس، تقول: (**أربعْ بقجْ مبقجي**[2]**، والخامسة بالصندوق، والله يخلّيك يا أبو العروس، اللّي ما حجتنا لمخْلوق**) تعبيراً تقدير أهل العريس لوالد العروس الذي أكمل جهاز ابنته فلم ينقص أي حاجة من حوائجها.

ليلة الحنة: ومساء يوم نقل الجهاز أي قبل يوم الحمّام مباشرة تكون ليْلة الحنّة، ومن المتعارف عليه أنّ العريس تُحنّى كفّه الأيمن فقط، لأنّ اليد اليُمنى هي أداة الرجل، في الحرب والقتال، ولأنها حاملة السيف، ولهذا عندما يقوم رجلٌ بعمل جيّد يُقال له (حنّى يمينك). أما العروس فتُحنى يداها الاثنتان، وتكون دعوة الحنّة إلى منزل العريس لأصدقاء العريس وأقربائه، وتكون دعوة صديقات العروس وقريباتها إلى منزل والدها، ومن الأهازيج التي تُقال للعروس في هذه المناسبة (**عروس يا عروس قومي نحنّيكي، عنّا علالي مثل علاليكي، سألت ربّ السما يحنّن حنانيكي، بحضن ابن عمّك يشيلك ويرميكي**) وتقول أخرى إذا كانت العروس من أهل العيون السود: (**ديّاتك البيض تلبقلن الحنّا، وعيونك السود ما استحوا منّا، حطّي القدم ع القدم، ما سمعْتلّو رنّه، وريت البطن اللي حملك مسْكنو الجنه**).

الحمّام: وقيل ليلة الزفّة بيوم تكون الدعوة إلى الحمّام، مع العروس، وهذه الدعوة آخر الدعوات من قبل أهل العريس للعروس، بعد أن تكون قد دُعيت أكثر من مرّة من قبل أقربائها وأقرباء العريس، وتبدأ الأهازيج، مع دخول النسوة من باب الحمّام إلى قسم البرّاني الذي يقع حول بركة الماء عادة، حيث يتمّ خلع الملابس،

١- جهاز العروس ليس مستعاراً وإنما من أهلها.

٢- البُقجة: صرة من قماش توضع فيها الألبسة.

فتبدأ النسوة وهن واقفات في باحة الحمام (البراني) مصطحبات العروس بقولهن: (**مشي خفسف حفيف، ويا أخف من الليف، وعروستنا شاش أبيض، على راس كل شريف**) ومع صعود العروس إلى المصطبة التي ستخلع ثيابها عليها يساعدها بعض النسوة ممسكات بمعصمها، وتردد إحداهن الأهزوجة التالية: (**قامت معاصمها وصلت على النبي، وتفرقط اللولو وفاح العنبري، واللي ما يصلي على النبي لا يسعدي**) وعندما تستقر العروس فوق المصطبة، وتبدأ برفع غطاء الرأس وخلع ثيابها، تقول إحدى النسوة الأهزوجة التالية: (**وشعرك السبسلي، وزيني بالميزان، ما بين الشعرة والشعرة، فتق الريحان، ولما بينزل عمك على السوق، ويقول أخدت فلاني بنت فلان، بزيد شاشو على راسو، ست سبع دوار، وفوقهم دور كتان**) ثم يصل طعام الغداء، وتوضع المائدة عادة في قسم الوسطاني، أي القسم المعتدل الحرارة من الحمام، وبعد وضع الطعام على المائدة، تبدأ إحدى المدعوات الأهزوجة التالية: (**سفرة أبو عبدو يا أم الشراشيبي، كل ما انقصتي بتزيدي، ما بيقعد على سفرة أبو عبدو، إلا كل أجاويدي**) لا تكاد تنتهي الزغاريد حتى تردد أم العروس أو أخته الأهزوجة التالية: (**بيتنا جديد، وشبابيكو حديد، وكلو يا جماعه، ريتو فستق العبيد**) وبعد الانتهاء تجتمع النسوة في قسم البراني حول بركة الماء استعدادا للخروج وتقول إحدى المدعوات مخاطبة العروس الأهزوجة التالية: (**نعيما حمامك، ودامت أيامك، والله يخلليلك عريسك، اللبي وفا ضمان حمامك**).

الزفة والدخلة: وفي اليوم التالي، حيث يذهب كبار رجالات عائلة العريس، لإحضار عروسهم، وعند وصولهم منزل أهل العروس، ودخولهم الباب، تطلق إحدى النسوة الأهزوجة التالية: (**لمين هل دار الكبيره وعالي، مزيني بورود الرياحيني، يا بو العروس عطينا عطايانا، ناخد أصيلي ونرفع لوطايانا**) وكانت العروس قديما تحمل على الجمل، أو الفرس، وفي تلك اللحظات تطلق النسوة الأهزوجة التالية: (**قومي طلعي ياعاقلي ويا زينا، قومي طلعي يا أصيلة الجدينا، نخ الجمل قومي طلعي يا نايفي، الخيل كلت والأمارة واقفه، قالت ما بطلع حتى يجي المختار وشيخ الطايفه**) وبعد أن تركب العروس الجمل أو الفرس تطلق النسوة أهزوجة أخرى (**قعدي والتفي، ونقدك عبا كفي، ما أخذتك لحسنك وجمالك، وصيت أهلك بالبلد بيكفي**) وعندما تصل العروس إلى بيت العريس يكون في استقبالها النسوة من أهل العريس بالزغاريد والأهازيج التي يبدأ أولها بالترحيب بها وبمن معها (**ميت السلامي وأهلا، وبعينك هل كحلا، ويا نخلي طويلي، قامتك من ديارنا ما تخلا**) والمعنى هنا واضح حيث يطلق أهل العريس الأماني ببقاء العروس بينهم ودوام الزواج ثم تطلق أهزوجة ثانية (**أهلا وسهلا فيكي في ديارنا إن كنتي طويلة نخلة في بستانا، وإن كنت قصيرة رمح بإيد رجالنا، وإن كنتي سمرة قهوة في فنجانا، وإن كنتي أصيلة بتعمري ديارنا**)، ثم تأتي أم العريس لتطلق الأهزوجة التالية: (**عروستنا يا بيضا ويا غضا، ويا سمكة البستان تسبح في صحن فضا، قدمت حالي ومالي لعريسك وما يرضا، وتعالي صلحي بيناتنا تا يرضا**) ثم تسحب العروس برفقة والد العريس ووالدته، وتدعو النسوة لإفساح الطريق أمامها بالأهزوجة التالية: (**روبي وردي، وخيطتو بايدي، وبالله عليكن ياصبايا، خلو هل قمر**

يعدّي) ومع دخول العروس إلى المكان المخصّص لها تطلق النسوة الزغاريد والأهزوجة التالية: (**ومشي شوَيْ شوَيْ، ويا قضامي سكّريْ، وياقماشك سكندراني، وكلْ دراع بألف وميّ**) وقد تتلوها أهزوجة ثانية (**ما شاء الله عليكي وحدي، وما شاء الله عليكي تنتين، وخرْزة الزرْقا، بتردْ عنّك العين**) وبعد جلوسها على الكرسي المخصص لها تتقدّم شقيقة العريس وتقول لها الأهزوجة التالية: (**شو أكْلت فيكي أمك تا جابتك حلْوي؟، أكلت القوانص والمعلاق والكلوي، وشو جبلك عريسك ليلة الخلْوي، جايبلك فستان يليق لقامتك الحلوي**) وقد تكون العروس سمراء اللون فتتغامز النساء عليها، وهنا تنبري إحدى قريبات العروس فتقول الأهزوجة التالية: (**والسمرْ لوْ وقفوا بباب الدار، والسمر أحلى ولو كانوا البيض قمار، وهاتوا القلم والدواي لنكتب الأسعار، ودرهم العسل يطرد من اللبن قنطار**) وربما تدخل في السجال امرأة أخرى لتشارك في الردْ على النساء اللواتي يتغامزن على سمار العروس، فتقول الأهزوجة التالية: (**نحنا السمر خوختين بعود، واللّي بشوفنا ما بيجي صبر ولا قعود، وحيات من حنّن الوالدي على المولود، والسمر حلوين ولو أنهم عبيد سود**)، تتناول الأهازيج كل صفة في العروس فتجعل منها ميزة لها فإذا كانت العروس غريبة عن القرية، تقول لها إحدى قريبات العريس الأهزوجة التالية: (**قوم انتقل يا قمر، قوم انتقل يا زين، سهران طول الليالي ما غمضلو عين، وحياة من سبّحولوا في ظلام الليل، غزلان ما في ببلدنا، وهل غزالة منين؟**) وإذا كانت العروس طويلة، قيل لها الأهزوجة التالية: (**والطّول طولك، والورد لونك، ومريم بنت عمران، تتفتّل حولك**) وتتبعها أخرى بأهزوجة ثانية: (**طولك طول، والخضر الك ناطور، ومريم بنت عمران، ترشّلك البخّور**) وأثناء الرقص والغناء، تُدعى العروس إلى الرقص، وعند وقوفها تقال لها الأهزوجة التالية: (**وقفي وخلّي الأعادي تموت، يا شجرة المستيكي ومكللي بياقوت، وان سألوكي عن أصلك، قوليلن أصلي مثبوت، وجدودي بالمقبرة، ويلبقلهم التابوت**) ويليها أهزوجة درء العين والحسد عن العروس التي تقول: (**ما شاء الله على هلْ وقْفه، ويا وردة أوّل قطفه، واللّي بتشوفك وما بتصلي على النبي، تبلى بالأوجاع المختلفه**) وأثناء رقص العروس، تزغرد النسوة تردد إحدى قريباتها الأهزوجة التالية: (**حصّنْتك بياسين، ويا زهر البساتين، ومسبحة لولو بديّات السلاطين**) وعلى الفور تجيبها إحدى قريبات العريس: (**ارقصي رهدني رهدني، ويا بنت فراخ السلطني، وعريسك قنديل الدهب، معلق عا باب المحكمي**) وتتقدم والدة العريس لتدلو بدلوها، وتزغرد لعروس فلذة كبدها ثم تقول: (**عروستنا يا كني، ويا عصفورة بالجني، والله يخلليلنا عروستنا، ويخلي كل كني**) وقد تكون العروس حنطية اللون فلا تعدم أهزوجة ترى في ذلك ميزة إذ تزغرد النسوة ويرددن الأهزوجة التالية: (**لا نك بيضا فاتحه، ولا نك سمرا كالحه، وانت وردي قطفناكي مبارحه**) وعندما تكون العروس صغيرة السن، طلق لها الأهزوجة التالية: (**زقزق العصفور، وفتح المنتور، وعروستنا صغيري، وصلوا على الرسول**). وإذ تشعر النسوة بقدوم العريس وصحبه، تأتي أم العريس وتوقف العروس وتسحبها من معصمها لاستقبال عريسها، وأثناء مشيها مع حماتها يقال لها الأهزوجة التالية: (**امشي دقه دقه، ولا تقرصك البقه، والله يخليلك عريسك، الي عرف خطب ونقى**)،

وحينما تقف العروس تقول لها النسوة الأهزوجة التالية: **(وقفي وقفة الستات، ويا حسن يوسف حط عل خدين غمّازات، ولا أكلتي من شاشة أعزب، ولا صيتك عبّا القهوات)**، وعندما يدخل العريس باب المنزل الخارجي، تستقبله عروسه، فيرفع عن وجهها "اليشمق" ويقبلها من جبينها، وإذا كان جرئياً يقبّلها من خدها. ويتقدم والدته أمامهما وتطلق الأهزوجة التالية: **(عروستنا يا ملكي، ويا فلّي بالتنكي، وهادا عريسك، ويا حلّتْ علينا البركي)**. ويجلسا في المكان المخصص ثم يأتي دورها بالرقص، فتطلق الزعاريد وتردد إحدى النسوة **(ارقصي يا أم التراكي، الله يخلّي اللّي ربّاكي، الله يحلّيلك عريسك، من بين الصبايا نقاكي)** وبعدها تتقدم أخت العريس لتقول: **(أخي يا تاج راسي، ويا رمان دركوشي ومدلّى على العاصي، ولمّا اجو العدى يقطعوا فيك، سحبنا عليهم بارود ورصاصي)**.

هذا ما يجري في حفل زفة العروس فماذا يجري في الطرف الآخر عند الرجال أي: في زفة العريس والتي تُسمى في محافظة ادلب (بالتلبيسة)؟. هنالك يستقبل المدعوين فرقة موسيقية وطبل، وعادة تبدأ زفّة العريس في ادلب بموّال بغدادي أو شرقاوي أو سبعاوي يتألف من سبع شطرات يرحب بالضيوف:

ميت مرحبا في كرام اللّي علينا وراد
ميت أهلاً وسهلاً فيمن أقبل علينا وراد
وحياة من أخلق العبّاد تقرى وراد
زال عنّا العنا حين شرفتوا لعنّا فرحْ
أنا لفْدي البشير الذي أقبل وبشّر فرحْ
أنتم أطايب مجالسكم سرور وفرحْ
الفاظكم مسك ريحتكم عطور وراد

بعد هذا الموّال يتقدّم شيْخ شباب الفرْحة ويطلق الأهزوجة التالية: **(أهلا وسهلا يا ضيوف، ويا مقلدين بالسيوف، ولو منعرفكم جايين لعنّا، لدبحْنالكم كبشين وخاروف)** وبعد أهزوجة شيخ الشباب هذه يتقدم أحد الأصدقاء المقربين من العريس ليطلق هو الآخر أهزوجة تقول:

(ويا شباب كلكن، وما منعرف أساميكن، لـ روح قاضي حلب، وقلّوا معانيكن، ويا طالبين الفرح، الله يهنّيكن) وتزداد الفرحة بالغناء والرقص، والطرب، وعندما يبدع الراقصون، يطلق شيخ شباب الفرحة الأهزوجة التالية: (يا لوا يا لوا، ويا حامض ما استوى، ولا تتعجّبوا يا ناس، ما كلّ الرقّاصين سوى) ويأتي آخر ليبعد عنهم عين الحاسد بأهزوجة جميلة: (ما شاء الله عليكم، وعين الله عليكم، وعين السوْ عميا، ما تطلّع بالغدر عليكم) وعند الازدحام حيث يغفل أحياناً أهل العريس عن استقبال الضيوف والمدعوين، ينبّههم شيخ شباب الفرحة لذلك بأهزوجة جميلة كي لا يشعر الآخرون بذلك: (يا أبو العريس لاقي لضيوفك لاقي، وقوّي قلبك، وارجمهم بالطباق، ويجعل عمرك طويل، والرزق عليك دفّاقي) وتساهم الأهازيج في تحسين صفات العريس فإذا كان صغير السن تقدم شيخ الشباب معلناً ذلك الفرحة بأهزوجته التالية: (زقْزقْ العصفور، وفتّح المنتور، وعريسنا صغير، وصلّوا على الرسول) وغالباً ما يكون العريس أسمر اللون، فيعلن ذلك أحد أصدقائه من خلال الأهزوجة التالية: (عريسنا أسمر لكن عيّاري، وما بيلبس الجوخ إلاّ بزراري، وما بيفتح الباب إلاّ بخصرو، والعدو بوقف دقْ بسماري) وعندما يراد تلبيس العريس،

يدعى زملاؤه المقربون وأقرباؤه من أقرانه، ويقال له مدحا وتمجيدا: (شدوا العريس على الحصان، أشقر ومقصب عباتو، عريسنا يا عقيد الخيل، يعطي للمحاسن جزاتو) ويتبعها (والله سوا دوس دوس هي) وعندما يبدأ العريس بخلع ثيابه القديمة يمدح من قبل أصدقائه ويقال له: (يانسر يا شايل الراي، مالك على الراي جودي، وانشاشة بالخيل بالخيل، عليك بالعريس راعي الأسود) ثم يرد آخر من أقربائه فيقول: (بارودنا دك صبياني، ورصاصنا يهد القلاعي، وانشاشة الخيل بالخيل، عليك بالعريس زينة السباعي) ويبدأ بلبس طقم العرس الذي يكون عادة من الجوخ الكحلي في ادلب حيث تقال الأهزوجة التالية: (عريسنا لبس الجوخ يلبقلو، ونقط العسل من تمو على كمو، هنهني يا أمو وزغردي يا مرة عمو، وقولوا للشباب يتعلموا الغندرا منو) ومن المفيد أن أذكر هنا أن طقم العريس الجوخ الكحلي يتكون عادة من (الشروال والصدرية المزركشة والجاكيت العربي) وهو اللباس الرسمي للعريس، وغالبا ما كان يوضع على الرأس العرقية وفوقها السمنية، وبعد الانتهاء من تلبيس العريس، يتقدم شيخ الشباب مادحا عائلة العريس بأهزوجة في نهاية فرحتهم (بيت فلان مين يخاصمكم، يا شاكلين خناجر على خواصركم، وسألت رب السما والعرش ينصركم، ويجعل عمركم طويل وما ينقص حدا منكم) وبعدها يقوم العريس برفقة والده وشيخ شباب الفرحة بالتسليم ومصافحة كافة المدعوين ثم يخرج الجميع لإيصال العريس إلى مكان زفة العروس، بموكب جميل على أنغام الموسيقا والغناء ويدعى ذلك بـ(دورة العريس) وكانت دورة العريس تجري مشيا على الأقدام، وعندما يصل العريس إلى باب منزله، يتقدم والد العريس شاكرا المدعوين بالأهزوجة التالية: (يا فجل بطينو، ومقلوع من بساتينو، والأعزب عقبال عرسو، والمجوز عقبال بنينو) وبذلك تنتهي فرحة زفة العريس بدخوله على عروسه.

الحج: وتبقى الأهازيج مرافقة للحياة حتى أن لهم في وداع الحجاج أهازيج خاصة فإذا كانت الحاجة أنثى يقال في وداعها الأهزوجة التالية: (**عندي حمامي وجناحها صيني، وعشعشت وفرخت بالبساتيني، وما قلتلك يا أمي وين رايحة وتخليني، قلتيلي رايحة زور النبي وادعولي الله يهنيني**) وفي استقبال الحجيج كانت تنتظرهم النوبات والدفوف والأناشيد الدينية أما اليوم فقد حل الطبل والزمر مكان الدفوف والنوبة وكانوا يستقبلون بأهزوجة تقول: (**يا جمل ميل ميل، تحت في الياسمين، وكل نظرة من محمد، تساوي المال والبنين**) وهناك أهزوجة خاصة كانت تقولها الزوجة لزوجها الحاج عندما يعود: (**كلل الندي، وحط عل كركدي، وإلك الحمد يا ربي، اللي رجع الحجي لعندي**).

وختاما: لقد أثر الميل الشعبي إلى تطويع اللغة للاستخدام اليومي فجعل هذا الأدب متلونا بلهجات مختلفة ولكنه بقي منتسبا إلى اللغة العربية، وهو بحجمه ونوعه، وسمو أفكاره، وشفافية أنغامه، ورقة موسيقاه ينقل إلينا جانبا هاما من أصالة الأباء والأجداد.❀

إدلب نموذج العيش المشترك

الله في وسطها فلن تُزعزَع

رياض نجيب حكيم*



نقش حجري في أعلى قبة كنيسة إدلب

لم يدخل الإسلام إلى سوريا قاهرًا لشعوبها بل لحكامها البيزنطيين، ولقد عانى سكان سوريا الأصليون من الحكم البيزنطي الدخيل والتمييز الطائفي الذي مارسه ضدهم، ثم أتى الإسلام العربي الذي اعترف بالديانة المسيحية فاندمج تحت لوائه من أسلم ومن بقي على نصرانيته فأصبحت المسيحية العربية جزءاً عضوياً من الواقع الاجتماعي والثقافي العربي المسلم، وأضحت كل محاولة لفصل هذه الرابطة أمراً يضر بطرفيها. وساعد على ذلك أن الفتح العربي الإسلامي عندما جاء إلى سوريا وجد فيها قبائل وعشائر مسيحية لها صلات قربىً رحم مع قبائل الجزيرة العربية.

ولقد أفاض الكتاب والمؤرخون في وصف هذه الحالة من العيش المشترك بين الإسلام والمسيحية في الماضي والحاضر، لكن ذاكرتي تحفظ بمشاهد عشتها وعاصرتها في مدينة إدلب أحببت أن أسجلها قبل أن يطويها الزمن.

إبراهيم هنانو يقضي على فتنة طائفية في مهدها:

فقد حاول الاحتلال الفرنسي أن يفرق بين أهل إدلب من سكان الحي الغربي مسيحيين ومسلمين، فحرض بعض عملائه على التعرض للمسيحيين وسلب ممتلكاتهم، فتصدت لهم كافة أحياء المدينة، وتدخل الزعيم إبراهيم هنانو وعاقب المعتدين ورد المسلوبات إلى أصحابها بالتعاون مع وجهاء إدلب وخاصة الوجيه منير آغا الفنري. ولقد انخرط بعض

---

* عضو مجلس إدارة جمعية العاديّات، مختار حيّ الحريّة في إدلب.

مسيحي إدلب في صفوف الكتلة الوطنية منهم أقدم محامٍ في إدلب "المحامي انطون غنوم" والوجيه "جرجي سليمان دغيم" خرقاً لأهواء الفرنسيين.

كبيرة الحارة:

مرضت امرأة مسلمة في حارتنا، وكان زوجها فقيراً جداً ولها طفل رضيع لم تستطع أن تستمر في إرضاعه، فما كان من والدتي "أم جورج" إلا أن أرضعت الطفل واعتنت به كأحد أولادها. ودارت الأيام وإذا بالطفل الرضيع "راسم مكحل" وهو مازال على قيد الحياة يصبح رجلاً، ويمتلك فرناً لصنع الخبز، وها هي والدتي العجوز تأتيه أحياناً لشراء الخبز فتجد الناس طابوراً طويلاً ينتظرون، فإذا وقع بصره عليها تجاوز كل دور وهو يقول للمنتظرين: إنها أمي التي أرضعتني يوم الشدة وأن لها علي ديناً لن أستطيع أن أرده مدى الحياة.

وكانت أمي تحفظ الإنجيل وقسماً كبيراً من القرآن الكريم، وفي أوقات الشدة تجلس ونساء الحارة ويتوجهن جميعاً بالدعاء إلى الإله الواحد بقراءة القرآن والإنجيل، وكانت والدتي تدعو يومي الأحد والجمعة وقت الصلاة للناس جميعاً مسلمين ومسيحيين اعتقاداً منها بأنه في هذين اليومين الفضيلين يستجاب الدعاء.

ومازلت أذكر جدتي إذا أرادت تلبية طلب لأولادها، أو انجاز عمل أو أمر تأخر، جلست مع نساء الحارة المسلمات وهن يدعون الخضر " القديس جاورجيوس" بقولهن "يا خضر يا خيّال.." فإذا بالدعاء يستجاب بإذن الله ويحضر المطلوب.

قبور مسيحية عليها آيات من القرآن:

لقد كان المسلمون والمسيحيون ومازالوا يتشاركون في السراء والضراء، في



ترخيص (جرجي دغيم) بمزاولة مهنة الطب

الأفراح والأتراح. حتى أن من يزور مقبرة المسيحيين في مدينة إدلب يشاهد بعض القبور وقد كتب عليها آيات من الإنجيل وإلى جوارها آية القرآن الكريم التي تقول: ((يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)).

جدي.. طبيب المدينة:

كان جدي "جرجي دغيم" قد ورث الطب العربي أباً عن جد، وكان يداوي أهل إدلب وما حولها بالأعشاب الطبيعية بدون تمييز، ولقد تفوق في مهنته تفوقاً مشهوراً. حتى طغى اسم مهنته على كنيته الأصلية فأصبحت عائلتنا تحمل اسمها الحالي "حكيم" بدلاً من دغيم. وما زال الأستاذ مصطفى قطيع يروي عن آل قطيع من كبار السن حكايات عن براعته في مهنته.

داود الأنطاكي

آخر أعمدة الطب عند العرب

محمد ياسر زكور*

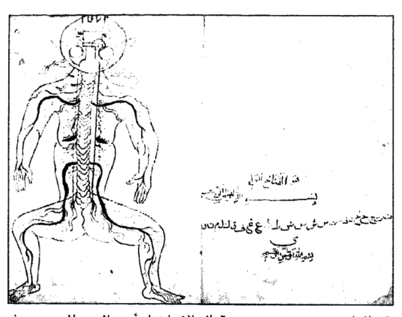
يلاحظ المتتبّع لتاريخ الطب عند العرب أنه قد مر بمراحل ثلاث، وهي: مرحلة الترجمة، فمرحلة التأليف والإبداع، ثم مرحلة الانحطاط وذلك مع أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. ولا يعني هذا أن العلم بالطب قد توقف، فقد استمر ولكن بتباطؤ، ينهض حيناً ويتعثر حيناً آخر. وقد كان هناك أطباء وعلماء بارزون يتمتعون بقيمة جيدة، أمثال حجيج بن قاسم الحلبي (المتوفى عام ٩٩٢ هـ = ١٥٨٤ م)، وأبو بكر الحكيم (المتوفى سنة ١٠٠٧)، ورضوان درشام شريف (المتوفى عام ١٠٠٥ هـ)، وإبراهيم الدمشقي، وأحمد بن شرباتي، وبدر الدين الرومي، وعمر العَنْز (العتّر) الإدلبي ومحمد الكيالي، وصالح السلوم الحلبي، وهاشم السروجي، وداود بن عمر الأنطاكي، ومدين القوصوني، وشهاب الدين بن الصائغ. وكانت تجاربهم لا تقل قيمة في عالم الطب، وإن لم تصل إلى مستوى الأوائل، ولكنهم بحثوا وكتبوا وأبدعوا، فتركوا لنا تراثاً جديراً بالبحث والدراسة والتحقيق لإظهار مكنوناته.

ولعل في سيرة داود بن عمر الأنطاكي ما يبرهن على أن شعلة العلم لم تزل متقدة حتى في المرحلة التي نعتوها بالانحطاط.

داود بن عمر الأنطاكيّ (٩٤٢ - ١٠٠٨ هـ): أشهر الأطباء في عصره الضرير الكسيح، ثم شفي من كساحه بقصة يرويها عن نفسه، وكانت سبباً له في تعلّم مهنة الطب، اعتبره لوسيان لوكليرك آخر ممثل للطب عند العرب، إذ كان العثمانيون قد بدؤوا ببسط نفوذهم وسلطانهم؛ وقد وصفه ولقّبه المؤرّخون بألقاب متعددة، منها: " الرئيس داود، والحكيم داود بن عمر البصير، والطبيب الأكمه، والطبيب البصير، والرئيس الضرير"، اعترافاً بذكائه وعلمه رغم فقدانه نعمة البصر التي عوّضها ببصيرة قلّ من ينافسه أحد فيها، وحظي بمكانة رفيعة في كلّ مجالس العلم في المدن التي زارها، وضعته في مصاف الأطباء الأوائل، بل ورأس الأطباء في زمانه، وكانت اهتماماته تنصب على دراسة العوامل النفسية وأثرها على صحة الأبدان.

* طبيب، باحث في تاريخ الطب العربي.

أورد الشيخ مصطفى الحموي في كتابه "فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر" معرفاً به:



" الرئيس داود بن عمر الأنطاكيّ الحكيم البصير نزيل القاهرة المعزية، الشيخ الإمام المميز على من له بها المزية، المتوحد بأنواع الفضايل والمتفرد بعلوم الأوايل، شيخ العلوم الرياضيّة، سيما الفلسفة والعلوم الحكمية، وعلم الأبدان القسيم لعلم الأديان، فإنه بلغ فيه الغاية التي لا تدرك، وانتهى منه إلى الرتبة التي لا تكاد تملك، مع فضل في جميع العلوم، ليس لأحد وراه فضلة، وعلم لم يحوِ أحد في عصره مثله، وأدب يغض منه الناظر ويحار في وصفه الفكر والخاطر. مولده بفوعة بالعين المهملة، ثم انتقل به والده إلى أنطاكية، فنشأ بها، ثم منها إلى الشام، ثم منها إلى مصر، فقطن بها وكانت له خلوة بالمدرسة الظاهرية تجاه البيمارستان يجلس بها نهاراً، قال تلميذه الفاضل الخفاجي في ريحانته، في ترجمته: "ضرير بالفضل بصير، كأنما ينظر ما خلف ستارة الغيب بعين فكر خبير، لم تر العين مثله بل لم تسمع الآذان، ولم تحدث بأعجب منه مسائل الركبان. إذا جس نبضاً لتشخيص مرضٍ عرَض، أظهر من أعراض الجواهر كلَّ غرض، فيفتن الأسماع والأبصار، ويطرَب بجس النبض ما لا يطربه جس الأوتار... وكان يقول لو رآني ابن سينا لوقف ببابي، وابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابي".

وقال الفاضل أبو المعالي درويش الطالوِي مفتي دمشق في كتابه السانحات بعد أن أثنى عليه:

"وممن لقيت بالديار المصرية، من أساتذة العلماء وأكابرها، وجهابذة الفضلاء ونوادرها، الأستاذ رأس الحكماء ورئيس الأطباء... الشيخ داود بن عمر الأنطاكي، نزيل القاهرة المعزيّة، والمميز على من له فيها المزيّة، ... وقد سألته عن مسقط رأسه، ومشتعل نبراسه، فأخبرني أنه ولد بأنطاكية بهذا العارض، ولم يكن له بعد الولادة بعارض، قال ثم إني بلغت من السن عدد سيّارة النجوم، وأنا لا أطيق أن أنهض وأقوم، لعارض ريح تحكم في الأعصاب منع قوائمي من حركة الانتصاب، وكان والدي رئيس قرية سيّدي حبيب النجار، له كرم خِيم وطيب نِجار، فاتخذ قرب مزار حبيب رباطاً للواردين، وبنى فيه حجرات للفقراء المجاورين، ورتّب لها في كلّ صباح من الطعام، ما يحمله إليها بعض الخدّام، وكنت أُحمل في كل يوم إلى صحن الرباط فأقيم فيه سحابة يومي، ويعاد بي إلى منزل والدي عند نومي، وكنت

إذ ذاك قد حفظت القرآن، ولَقَنتُ مقدّمات تثقيف اللسان، وأنا لا أفتُر في تلك الحال عن مناجاة قيّم العالم في سري، ومبدع الكل فيما إليه يؤول عاقبة أمري.

فبينا أنا كذلك إذ برجل جاء من أقصى المدينة يسعى، كأنه يَنْشد ضالّة أو أضلّ المسعى، فنزل من الرباط بسَاحته، ونفض فيه أثواب سياحته، فإذا هو من أفاضل العجم، ذو قدر مَنيف، يدعى بمحمد شريف، فبعد أن ألقى فيه عَصى التسيار، وكان لا يألف منزلاً كالقمر السيار، استأذنه بعض المجاورين في القراءة عليه، وابتدأ في بعض العلوم الإلهية فكنت أسابقه إليه، فلما رأى مني ما رأى مني، استخبر ممن هناك عني، فأجبته ولم يك هناك غير الدمع سايلاً ومجيباً، فعند ذلك اصطنع لي دهناً مَسَّدَني به في حرّ الشمس، ولفني بلفافة من فرقي إلى قدمي، حتى كدت أفقد عنده الحس، وتكرر ذلك منه مراراً من غير فاصل، فتمشت الحرارة الغريزية كالحميّا في المفاصل، فبعدها شد من وثاقي، وفصدني في عضدي وساقي، فقمت بقدرة الواحد الأحد، بنفسي لا بمعونة أحد، ودخلت المنزل على والدي فلم يتماسك سروراً، وانقلب إلى أهله فرحاً مسروراً، وضمّني إلى صدره وسألني عن حاله، فحدثته بحقيقة ما جرى لي، فمشى من وقته إلى الأستاذ، ودخل حجرته وشكر سعيه، وأجزل عطيّته فقبل منه شكره، واستعفاه برّه، وقال إنّما فعلت ذلك لما رأيت فيه من الهيئة الاستعدادية، لقبول ما يلقى إليه من العلوم الحقيقية، فابتدأت عليه بقراءة المنطق، ثم أتبعته بالرياضي، فلما تمّ شرعت في الطبيعي، فلما أكملت اشرأبت نفسي لتعلم اللغة الفارسية، فقال: يا بني، إنها سهلة لكل أحد، ولكني أفيدك اللغة اليونانية، فإني لا أعلم الآن على وجه الأرض من يعرفها أحداً غيري، فأخذتها عنه، وأنا بحمد الله تعالى الآن فيها كهو[1] إذ ذاك، ثم ما برح أن سار كالبدر يطوي المنازل لدياره، وانقطعت عني بعد ذلك سيّارة أخباره.

ثم جرت الأقدار بما جرت، وخلت الديار من أهلها وأقفرت، بتنكرها عليَّ لانتقال والدي، واعتقال ما أحرزته يدي من طريفي وتالدي، فكان ذلك داعية المهاجرة، لديار مصر والقاهرة، فخرجت عن الوطن في رفقة كرام، نؤم بعض المدن من سواحل الشام، حتى إذا صرت في بعض ثغورها المحميّة، دعتني همّة عليّة أو علوية، أن أصعد منه جبل عاملة، فصعدت منصوباً على المدح وكنت عامله، وأخذت من مشايخها ما أخذت، وبحثت مع فضلائها فيما بحثت، ثم ساقتني العناية الإلهية، إلى أن دخلت حمى دمشق المحمية، فاجتمعت ببعض مشايخها من مشايخ الإسلام، كأبي الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام، وكشمس علومها البدر الغزي العامري ذلك الإمام، والشيخ علاء الدين العمادي، ثم لم ألبث أن هبطت مصر هبوط آدم من الجنة".

اتخذ من المدرسة الظاهرية مجلساً له في النهار ليداوي ويعلّم ويؤلّف، وفي مربع قيسون كان مجمع إيناسه، ومن مناقبه ما يتابع الطالوي في السانحات أيضاً فيقول: "وأما معرفته لأقسام النبض

١- كهو: اتصال الكاف بالضمير جاء في عبارة نصيّة ما أردنا حذفها

فإن له منقبة باهرة، وكرامة على صدق مدعاه ظاهرة، يكاد لقوّة حدسه، يستشف الداء من وراء حجابه، ويناجيه بظاهر علاماته وأسبابه". وللأنطاكي قول في أنواع النبض: " فهذه مئتان وستة عشر نبضاً، فإذا ضربتها في أقسام الحركة بلغت ستماية وثمانية وأربعين، هكذا المجموع في باقي الأجناس."

ويقول الطالوي في السانحات، ص١١٣: "وأما ما شاهدته من قوته القدسية والحدسية، في تحقيقاته الفنون الحكمية والطبيعية والرياضية، فإنه كان إذا سئل عن شيء منها أملى على السائل في ذلك ما يبلغ الكراسة والكراستين، كما هو مشهور مثل ذلك عن الشيخ الرئيس أبي علي ابن الحسين، فمن ذلك ما شاهدته وهو بحجرته في الظاهرية، وقد سأله شخص عن حقيقة النفس الإنسانية، فأمر السائل أن يكتب ما يملي عليه، ويلقيه عن ظهر قلب إليه، فلم يمض ساعة أو بعضها، حتى أكمل الرسالة وعرضها، فقضيت العجب مما رأيت، واهتديت لنوره وبه اقتديت".

ويقول المحبي في خلاصة الأثر: "كان له حجرة بالمدرسة الظاهرية، اتخذها لاجتماعه بالناس، ومداواة أصحاب الباس، فورد عليه في بعض الأيام، رجل من الأجناد مجهراً بالسلام، فمذ سمع سلامه، عرف مرامه، وقال اذهب فلا شفى الله لك علّة، ولا برّد لك غلّة، تشرب الخمر، وتفعل ذلك الأمر، حتى يحدثا لك هذا الداء، وتأتي الضرير تروم منه الدواء، ثم استتابه وشفاه من دائه بعد ما أشفاه، وما فهم كنه علته، إلا من تحرك شفته".

وكان ملازماً لكتاب إخوان الصفا وخلان الوفا للمجريطي، ولكتابيه رتبة الحكيم، وغاية الحكيم، ومن كتب الشيخ الرئيس ابن سينا؛ القانون، والشفاء والنجاة، والحكمة الشرقية... وغيرها.

ثم لم يزل الأنطاكي متديراً الديار المصرية، يرتع بربوعها النضرة المعزيّة، إلى أن حدا به حادي المسير وزمزم، وناداه منادي الحرم فلبّى وأحرم، وأقام بمكة دون سنة، ومات بمرض الإسهال عن تناول عنب، سنة ثمان بعد الألف، عن ست وستين سنة، رحمه الله تعالى ".

مؤلفاته:

" له من الكتب والرسائل والأشعار المزرية بما هو بأيدي الناس مألوف، وعند أربابه من الفضلاء معروف، فمن ذلك الكتاب الذي صنّفه وسماه بالتذكرة (أو تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب في الطب)، ولكنه لم يكمل، جمع فيها الطب والحكمة، وهي بأيدي الناس شهيرة، ثم اختصرها لقصور الهمم في مجلد سمّاه تشحيذ الأذهان (أو النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة). ومنها نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان. وكتاب غاية المرام في تفاصيل السعادة بعد انحلال النظام. وكتاب طبقات الحكماء. وشرح القانون لابن سينا. ومجمع المنافع البدنية. ورسالة فيما يتعلق بالسفر من المسائل الطبية. وله غاية المرام في تحرير المنطق والكلام. وله زينة الطروس في أحكام العقول والنفوس. وله ألفية في الطب. وله نظم قانون جك. وله شرح على النظم المذكور. وله شرح أبيات السُهروردي التي أولها:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى
وصبت لمعناها القديم فشوقا

وله مختصر أسواق الأشواق للبقاعي، سماه تزيين الأسواق. ورسالة في الحمّام. وأخرى في الهيئة. وكفاية المحتاج في علم العلاج، وله مجربات داود الأنطاكي في الطب، وغير ذلك. وشرح قصيدة النفس المشهورة للشيخ الرئيس ابن سينا التي أولها (هبطت إليك من المحل الأرفع) سماه الكحل النفيس لجلاء عين الرئيس، وهو شرح فصل فيه حقيقة النفس وجوهرها النفيس يُرضي السائل، وإن كان هو الشيخ الرئيس. وله قطعة منظومة في هذا المعنى تشعر باعتراضٍ فيها على الشيخ:

من بحر أنوار اليقين بحسنها
لو ضل أو فصل تنوب كما ادعى

هذا وقد بلغت مؤلفاته كما أحصيناها في مقدمة كتاب نزهة الأذهان، حوالي (٢٩) مؤلفاً في الطب وغيره.

تلامذته:

ذُكر من تلامذة الأنطاكي في كتب التراجم:

الشهاب الخفاجي (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ): أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري، صاحب (ريحانة الألباء).

مدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري (٩٦٩ هـ - بعد ١٠٤٤ هـ): صاحب (قاموس الأطبا وناموس الألبا).

الطالوي (٩٥٠ هـ - ١٠١٤ هـ): درويش محمد بن أحمد، وقيل أبو المعالي الطالوي الأرتقي ثم الدمشقي الحنفي، صاحب (سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر).

عبد الرؤوف المناوي (٩٥٢- ١٠٣١ هـ): هو محمد المدعو عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الملقب زين الدين الحدادي ثم المناوي، القاهري الشافعي، له (النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية).

منزلة داود الأنطاكي العلمية ومآثره:

لاشك أن داود الأنطاكي كان فريد عصره وزمانه، ذلك الرجل الضرير، الذي استطاع بعبقريته العلمية، أن يصل إلى مرتبة من سبقه من الأطباء العرب بحدسه وبصيرته الثاقبة، بل فاقهم في بعض الأمور مما مرّ ذكره: كالنبض مثلاً، فله فيه نظريات واسعة، وأشكال أحصاها بالمئات. ومنها أيضاً العلاجات الخاصة به سماها بالمجربّات، وهذه تعدّ أحد قواعد العلاج (القياس والتجربة)، كما له فضل السبق في تسمية بعض الأمراض؛ كالمرض الذي سماه (النقطة)، وهو السيلان البني (Gonorrhea)، والحب الإفرنجي أو المبارك وهو القرحة الزهرية (Syphilis)، وهو أول من استخدم مادة الزئبق في علاجه.

كما أنه أول من ذكر مادة البن وأماكن زراعته وطريقة استخدامه، وكذلك قوله في الجرب بأن منشأه دود، والتي نسميها هامة الجرب حالياً، وكذلك تسميته لمرض الحزاز الذي يصيب الجلد والذي ندعوه حاليا (Lichenplanus).

وما ذكره في الصمم وإمكانية شفائه، اعتماداً على شدته ونوعه، وذلك في السمع

عن مسافة معينة (نحو قصبة = ٣,٥٥ سم)، وهو ما يتماشى مع التفريق ما بين نقص السمع الخفيف والمتوسط، أو الشديد، وحتى التفريق ما بين نوعي الصمم: النقلي أو الحسي العصبي.

هذا فضلاً عن مؤلفاته وتصانيفه العديدة في الطب وغيره، ومعالجته لأمراض كثيرة بأدوية ابتكرها وسماها من مجرباته.

أما رأيه في تعليم الطب فله فيه موعظة ذكرها في مقدمة تذكرته، مفادها الحيرة في أن يترك الطب محصوراً، كما كان في آل إسقليبيوس، أو حين اعتذر الفاضل أبقراط في إخراجه إلى الأغراب بخوف الانقراض، وقد عوتب أبقراط في بذله الطب للأغراب فقال: "رأيت حاجة الناس إليه عامة، والنظام متوقف عليه، وخشيت انقراض آل إسقليبيوس ففعلت ما فعلت". ويعقّب الأنطاكي على ذلك بقوله: " ولعمري قد وقع لنا مثل هذا، فإنني حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشي إلى أوضع يهودي للتطبّب به، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم يدرّس ليستفيد منه المسلمون، فكان ذلك وبالي ونكد نفسي وعدم راحتي من سفهاء لازموني قليلاً، ثم تعاطوا التطبب فضرّوا الناس في أبدانهم وأموالهم وأنكروا الانتفاع بي، وأفحشوا في أفاعيلي، أسأل الله مقابلتهم عليها. على أني لا أقول بأني وأبقراط سالمان من اللوم حيث لم نتبصر، فيجب على من أراد ذلك التبصر والاختبار والتجارب والامتحان، فإذا خلص له شخص بعد ذلك لتخف الضرورة."

وتخليداً لذكرى داود الأنطاكي أقيم في مدينة إدلب سنة ١٩٩٠م، المؤتمر الرابع عشر لمعهد التراث العلمي العربي بحلب، وذكر في التقديم أن اختيار المكان كان موفقاً باعتبار محافظة إدلب (قرية الفوعة) مسقط رأس داود الأنطاكي. كما أقيمت ندوة (الاحتفاء بالطبيب المسلم داود الأنطاكي) في معهد التراث العلمي العربي بحلب سنة ٢٠٠٤م.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).
٣. ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب).
٤. ابن الغزي (ديوان الإسلام).
٥. الأنطاكي (مخطوط تذكرة داود: المسمى تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب).
٦. حاجي خليفة (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون).
٧. الحموي (فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر).
٨. الحموي (معجم البلدان).
٩. حميدان (زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية).
١٠. الخفاجي (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا).
١١. الزركلي (الأعلام).
١٢. الطالوي (سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر).
١٣. طباخ (أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء).
١٤. العصامي المكي (سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والخوالي).
١٥. عيسى (معجم الأطباء).
١٦. كحالة (معجم المؤلفين).
١٧. الغزّي (الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة).
١٨. قطاية (شخصيات الطب العربي في لوحات).
١٩. القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا).
٢٠. المحبي (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر).
٢١. المرادي (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر).
٢٢ -Leclerc , Lucie nHistoire de la medicine Arabe, Leroux , Paris ١٨٧٦,.

رحلة البحث

عن "عبق التاريخ"

نجيب كيالي*

قصة الرحلة:

لا يجهل أحد أنَّ محافظة إدلب غنية جداً بالمواقع الأثرية؟ رومانية، بيزنطية، إسلامية، ولكنْ كم من أبنائها زاروا هذه المواقع؟ وهل ذلك تقصير أم عقوق أم لامبالاة أم ماذا؟ إنني أتصوَّر جدَّنا التاريخ بقامته المديدة وحاجبيه الكثيفين يعاتبنا، يشدُّ آذاننا، يشيح عنا حزيناً، لذا خجلتُ منه مؤخراً، فانتسبتُ إلى جمعية (العاديات)/ فرع إدلب لأطلع وأعرف.

إثر انتسابي أعلنت الجمعية عن رحلة إلى بعض المواقع في جبل الأعلى والوسطاني موعدها: (٢٢ / ٨ / ٢٠٠٥). في الحقيقة كنتُ متردداً في الاشتراك فيها بسبب الحر اللاهب في آب الذي ستزيد حصتي منه بسبب فقداني مظلة الشعر الطبيعية اللطيفة التي يتمتع بها أكثر الناس، لكنَّ أصدقائي قالوا لي:

ولو.. عليك أن تتحمل الحر لتشم عَبَقَ التاريخ..

حين انطلق بنا (الميكرو باص) نصبتُ أنفي في الهواء كقرن استشعار بالغ الحساسية لأستنشق العبق المذكور، وأجمعه في ذاكرتي، وربما أفتتح به معملاً للعطور يضاهي العطور الفرنسية.

وقلت لنفسي: يا سلام.. عبق التاريخ أطيب من عبق الياسمين، والزنبق، والفل، ولعله أطيب أيضاً من عبق الأنوثة الذي أبدع نزار قباني في وصفه.

لحسن الحظ كانت الرحلة جيدة التنظيم، والمرافق الثقافي للرحلة لم يبخل بتزويدنا بما يعرف عن المواقع التي نمر بها: اسم الموقع، عمره الزمني، ازدهاره، انهياره.

آثار تفوق الوصف:

ومن ضمن عشرة مواقع زرناها أو أكثر استرعى انتباهي خراب طورين وهي مدينة أثرية في جبل الوسطاني، امتدادها واسع، غنية بمعاصر العنب، والمدافن الوثنية التي تعلوها صور الموتى محفورةً في

---

* أديب، عضو اتحاد الكتّاب العرب

الصخر، عرف سكانها عبادة الشمس المقدسة، فرأينا صورتها على الحجارة نافرة ناضرة، مرت بأطوار وثنية - رومانية - بيزنطية (مسيحية)، ويبدو أن المدينة كانت موقعاً عسكرياً هاماً، فهي تنظر من الأعلى بعيون يقظة إلى السهول الزراعية من حولها، ولاسيما من جهة (العاصي) الذي يتابع رحلة الماء والعطاء.

من أبرز ما فيها كنيسة أسقط الزلزال أعمدتها العملاقة، لكنَّ إحدى واجهاتها ظلت قائمة مع جزء من قاعتها الكبيرة، وفي المكان نبتت أشجار الغار، وكأن يد الطبيعة تبارك جهد الإنسان القديم الذي بني هذه المدينة فوق أكتاف الجبل مستخدماً كلَّ طاقة عقله وذراعيه.

وبعد طورين كنا نتوقع أن تكون المواقع في مستوى أقل، لكنَّ (بشندلايا) فاجأتنا بكنوزها، وهي بلدة رومانية الطابع تعادل القرى الأثرية الكبيرة في جبل الزاوية، واقعة في جبل الأعلى من ناحية (كفر تخاريم). فيها أسواق، معاصر، قصور، معابد، ومدفن وثني يدعى (ساندروس) من القرن الثاني الميلادي، وبجانب المدفن عمود مربع الشكل بطول سبعة أمتار يتألف من قطعة واحدة، يحوي صوراً نافرة للموتى، وفوق المدفن لوحات تتضمن صوراً للبقر الذي كان معبوداً لديهم مع كتابة باليونانية، وهي لغتهم الرسمية يومئذ، أما اللغة الشعبية فقد كانت السريانية.

وقد مرَّ الموقع بعهود مختلفة، ففيه دير سرياني، وقبور إسلامية عائدة للعهدين الأيوبي والمملوكي. أما اندثاره فناتج عن الزلازل، وموجات الفقر التي سببها الجراد.

هموم سياحية:

أمام عظمة التاريخ صفع وجوهنا إهمال المواقع المذكورة، والتقصير الفادح في الخدمات السياحية، فكل فرحة قابلتها غصة، وعند كل وردة شوكة اخترقت قلوبنا!

فالآثار نفسها تشكو أولا من عدوان البشر والشجر والبقر عليها.. إذ أن الريفيين - لجهلهم أو فقرهم أو للاثنين معا - جعلوا سكنهم في أطرافها، وأحيانا في وسطها.. سكنوها بدجاجهم، وأغنامهم، وأبقارهم، إضافة إلى رجالهم، ونسائهم، وأطفالهم، واقتلعوا الحجارة الثمينة من هنا وهناك، مع ألوان شتى من العبث، فرب تاج لعمود لايقدر بثمن أصبح مصطبة ينام عليها كلب الحراسة! ورب قاعة للأمراء غدت مربطا لحمار يعلن سيادته عليها بنهيقه الرخيم!

ويبدو أن تجاوزات البشر أغرت الطبيعة بالتجاوز أيضا، فراحت تغزو هذه الأماكن بالأعشاب، والأشواك، والشجر، والأفاعي!

أما الطرق المؤدية إلى المواقع، فهي بدائية جدا إذا تذكرنا أننا في القرن الحادي والعشرين.. كنا عند كل منعطف نقرأ الفواتح على أرواحنا ونحن نرى الوديان المحيطة بالدرب الجبلي الضيق، ونتساءل في أنفسنا: ما مصيرنا إذا انزلق دولاب (الميكرو) لاسمح الله؟ هل سنصبح سردينا في داخله أم بسطرما أم جبنة فرنسية؟

ليس هناك أدلاء سياحيون، ولا

دليلات، ولا مجرد (بوفيه) لبيع المثلّجات والمناديل اللازمة لمسح العرق، لكنني للأمانة أقول: ثمة كلاب تنبح بسخاء، وعيونها تقدح ناراً! والغريب أنني في (بشندلايا) سمعتُ نباحاً في الجو، فرحتُ أجيل بصري في السماء: يا ألطاف الله..هل الكلاب هنا مجنّحة؟ أخيراً رأيته على سطح أحد المنازل ينبح ويدور غاضباً، وقبل أن أنبس بأي تعليق قال لي صديق مخضرم يسير بجانبي، وقد سبق له أن زار أكثر المواقع:

- احمد الله يا عزيزي.. هذا لطيف جداً قياساً إلى كلب (رويحة) الذي هاجمنا بضراوة، ولم ننج من شره إلا عندما تدخل أحد أصحاب النخوة بالعصا، وإنني كلما تذكرتُ ضخامته أقول لنفسي: مستحيل لم يكن كلباً، بل ثوراً أو فيلاً في صورة كلب!

أسئلة إلى من يهمه الأمر:

هذا بعض ماعانيناه في رحلتنا، والآن ألا يحق لي أن أحوِّل هذه الهموم إلى صيغة أسئلة، وأرسلها على الهواء مباشرة، وبسرعة الضوء إلى كلٍّ من مديريتي الآثار والسياحة في إدلب؟ خصوصاً وأنهما مديريتان قديمتان نسبياً، مضى على إنشائهما أكثر من عقدين من الزمن، ومن المفترض أن نلمس آثار وجودهما في الواقع.

وأضيف: إنَّ السائح في البلدان التي تملك درهماً من العقل والوعي معزَّز مكرَّم، بل إنهم رفعوه إلى منزلة الولد المدلل، لا يبخلون عليه حتى بلبن العصفور. لماذا؟ لأنه شريان من شرايين الاقتصاد لديهم، وجسر إعلامي تمر فوقه حضاراتهم إلى العالم.

ويزيدني عجباً من تقصيرنا السياحي أننا - نحن العرب - شديدو التعلق بالتاريخ نتمرغ في أحضانه ليل نهار، فلماذا لا نفعل شيئاً حقيقياً من أجله؟ لماذا لا نعطيه ولو قليلاً وهو الذي أعطانا الكثير؟ لماذا نشكو الفقر وبقربنا كنز هائل؟! تشير الإحصاءات إلى آن دخول السياحة في كثير من بلدان العالم تتراوح ما بين (٢٠ ٪) و(٦٠ ٪) من دخولها العامة، وبعضها وصل إلى (٩٠ ٪) علماً أنَّ ما لدينا من الآثار لا يقل عما لديهم، بل يفوقه أحياناً!

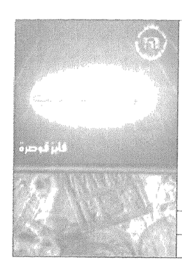
العودة الميمونة:

عدتُ إلى البيت محمَّلاً بالخيبة، وكان أول سؤال وجهته لي (أم الأولاد) التي عرفتْ كيف أغراني الأصدقاء بالاشتراك في الرحلة:

- هل شممتَ عبقَ التاريخ؟

قلتُ متذكراً عشرات المزابل المربعة، والمستطيلة، والمستديرة التي جمعها القرويون من رَوْث الغنم والبقر في الأماكن الأثرية:

- عبق التاريخ كان اليوم زائداً عن حده، والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده!



من إبلا إلى إدلب

تاريخ النشر: ٢٠٠٤

الصفحات: ٢٢٤ ص قطع متوسط

عبد الله حجار*

ضمن سلسلة "محافظة إدلب ، بوابة الحضارة السورية" صدر للباحث والمؤرخ الأستاذ فائز قوصرة كتابه السادس بعنوان" من إبلا الى إدلب". وقد سبقه في السلسلة : الرحّالة في محافظة إدلب (جزءان)، حصن شغر - بكاس، حارم ، قلب لوزة، وهي كتب صدرت بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٥.

وسأحاول أن أقدّم بإيجاز فصول الكتاب قبل الإنتقال الى المؤلف وأسلوبه:

يتألف الكتاب من ٤٢٥ صفحة توزعت على ثمانية فصول سبقتها مقدمة وتلتها ملاحق (ضمن ٢٠ صفحة).

اختص الفصل الأول بالناحية الجغرافية لمنطقة إدلب (ضمن ٢٠ صفحة) وتكلّم عن الموقع والتضاريس والمناخ والمياه والمواصلات والزلازل ...

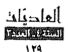
أما الفصل الثاني فقد اختصّ ، وضمن ٣٠ صفحة ، بتسمية إدلب وأصلها مع وجود إدلب الصغرى وإدلب الكبرى (الشمالية) وتفسير معنى الاسم.

وبحث الفصل الثالث، وضمن ٤٥ صفحة ،عن تاريخ المنطقة من أقدم عصورها من العصر الحجري الحديث وما قبل الفخار في الألف التاسع قبل الميلاد وحتى نهاية الغزو اليوناني السلوقي.

أما الفصل الرابع فقد غطّى، وضمن ٣٥ صفحة ، تاريخ الفترتين الرومانية والبيزنطية ودور الغساسنة في المنطقة.

وكان الفصل الخامس، ضمن ٢٠صفحة ، حول تاريخ المنطقة منذ الفتح الإسلامي وحتى مجيء الفرنجة(الصليبيين).

* مهندس مهتم بالآثار.



أما الفصل السادس فكان، وضمن ٢٥ صفحة، عن تاريخ الحروب الصليبية وفترة المماليك والمعارك الهامة التي دارت بين العرب والفرنجة في المنطقة.

وكان الفصل السابع، وضمن ٤٥ صفحة، عن الفترة العثمانية بدءاً من دور آل كوبرلي، ثم فترة احتلال إبراهيم باشا المصري سورية (١٨٣١ - ١٨٤٠) وحتى الحرب العالمية الأولى.

أما الفصل الثامن والأخير فكان، وضمن ١٢٠ صفحة، يؤرّخ للفترة من الحرب العالمية الأولى وحتى قيام الوحدة مع الشقيقة مصر باسم "الجمهورية العربية المتّحدة"، مع التعرض باسهاب الى ثورة المناضل البطل إبراهيم هنانو ضد الإنتداب والإحتلال الفرنسي، والتحرك الشعبي نحو الاستقلال وما بعده وتحقيق الوحدة.

ويضم الملحق الأول في نهاية الكتاب اسماء ٦٠ بلدة وقرية وموقعا في محافظة إدلب مع تغيّر التسميات خلال الفترات التاريخية المختلفة والمتعاقبة. أما الملحق الثاني فقد ضمّ أسماء العائلات المعروفة في المحافظة وأقضيتها مع أسماء النواب في مختلف الفترات من الإنتداب الفرنسي وحتى مجلس الأمّة أيام الوحدة.

وكما سبق مقدّمة المؤلف تقديمان للدكتور علي القيّم والدكتور عبد الرحمن البيطارعن خصائص ومميّزات الكتاب، يُختم الكتاب بتقريظ المحبين وثبت المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي زادت على مئة عنوان.

بعد هذه العجالة في تحديد فصول الكتاب، نعود إلى أسلوب المؤلف الذي ذكر في التمهيد ان منهجه في البحث هو بحسب المدرسة الفرنسية الطبوغرافية التاريخية التي تدرس الموقع الواحد عبر العصور. لقد كان المؤلف موسوعياً في معلوماته، غنياً في عطائه، يسرد أحياناً وضع سورية في المرحلة التي يتكلم عنها، لينفذ من ذلك الى دور الإمبراطور أو السلطان أو القائد الفلاني بالنسبة لإدلب أو منطقتها أو إحدى قراها.ربما كان ذلك استطراداً كبيرا في التوسّع لكنه مفيد للثقافة العامة التاريخية وقد رآها المؤلف ضرورية للوصول إلى حقيقة تاريخ الموقع المدروس.

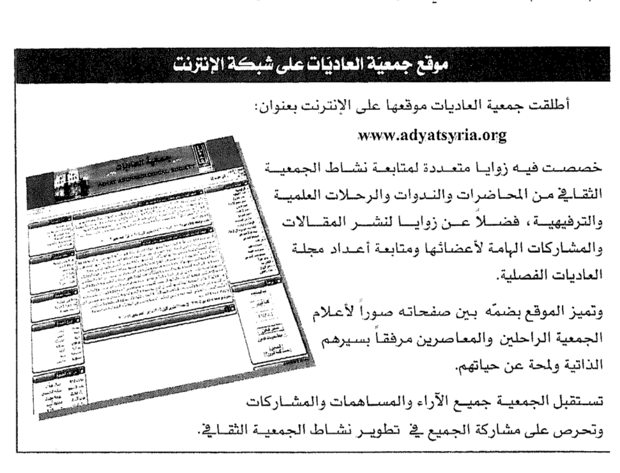
وفي دراسته لموقع ما أو لقرية كان يذكر كل ما كتب عنها في المصادر والمراجع، ويذكر آراء باحثين وعلماء آثار ومؤرخين كبار من أمثال باولو ماتيه والفونسو أركي وهورست كلنجل ورونيه دوسو وجورج تشالنكو وجورج تات وغروسيه وسواهم... ويحاول تحليل هذه الآراء ومناقشتها وذكر ما فيها من تناقض في حال وجوده. ثم ينتقل الى الزيارة الميدانية والمعاينة الشخصية المدعومة بالصور والمخططات والمسطحات ويجمع ما يذكره الرواة المسنّون من الأهالي والسكان المحلّيين، ليصل أخيراً بعد المناقشة الى الحقيقة الجليّة أو الإحتمال الأكثر قبولاً.

وهكذا تكلم بإسهاب تاريخي جيد عن تنقيبات تل مرديخ ومملكة إبلا فيه وأرشيفها العظيم ودورها الهام في رفد حضارة سورية. كما تكلّم عن آفس واحتمال وجود مملكة حزرك الأرامية فيها وناقش ذلك مبينا رأيه الشخصي. وزار جميع التلال والمواقع الأثرية التي تعمل فيها البعثات مثل إبلا وآفس والمصطومة وتل الكرخ ودينيت

وداحس وسرجيلا.. شاهد الحفريات وناقش أصحابها وأعطى رأيه الشخصي.

أبدع الأستاذ فائز في دراسته المعمّقة والمعتمدة على الأوامر السلطانية العثمانية وسواها في معالجة تاريخ إدلب الكبرى والصغرى في مراحلها الحديثة. كما أغنى الفصل المتعلق بالمجاهد الكبير إبراهيم هنانو وثورته بالصور الوثائقية النادرة مع تحليل دقيق لكل مرحلة فيها ، مع تعاطف حميمي بين المؤلف والبطل هنانو الزعيم الثوري الوطني والغيري الذي توفي في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٣٥ ودفن بحلب بجوار قبر الجندي المجهول. وتتتابع الأحداث بالحصول على الاستقلال وجلاء المستعمر عام ١٩٤٦ ثم العدوان الثلاثي على الشقيقة مصر عام ١٩٥٦ فقيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨. حيث يتوقف الكتاب.

إن كتاب "من إبلا الى إدلب" للأستاذ فائز قوصرة سفر كبير في اللغة العربية عن تاريخ إدلب ومنطقتها لم يسبقه إليه أحد. وهو غني بالمعلومات المفيدة ليس فقط لإدلب بل للمنطقة الممتدة من حلب إلى أنطاكية وفي سورية عموماً. وأشك أن يكون هناك باحث آخر قد زار وتعرّف على قرى وآثار إدلب ومحافظتها وطالع أخبارها ورصد ما قيل وكتب عنها كما فعل الأستاذ فائز. فإلى الصديق الباحث الشكر ، والى المزيد من العطاء والإضاءات المتميّزة في وطننا الحبيب، حيث الحصاد كثير والفعلة قليلون.



موقع جمعيّة العاديّات على شبكة الإنترنت

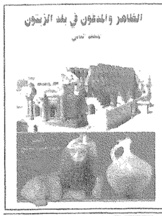
أطلقت جمعية العاديات موقعها على الإنترنت بعنوان:

www.adyatsyria.org

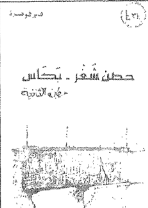
خصصت فيه زوايا متعددة لمتابعة نشاط الجمعية الثقافي من المحاضرات والندوات والرحلات العلمية والترفيهية ، فضلاً عن زوايا لنشر المقالات والمشاركات الهامة لأعضائها ومتابعة أعداد مجلة العاديات الفصلية.

وتميز الموقع بضمّه بين صفحاته صوراً لأعلام الجمعية الراحلين والمعاصرين مرفقاً بسيرهم الذاتية ولمحة عن حياتهم.

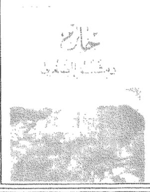
تستقبل الجمعية جميع الآراء والمساهمات والمشاركات وتحرص على مشاركة الجميع في تطوير نشاط الجمعية الثقافي.



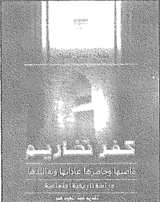
الظاهر والمدفون في بلد الزيتون
المؤلف: عبد الحميد مشلح
حجم متوسط جزءان
١- ٤٦٨ ص ٢- ٤٥٦ ص
دمشق ٢٠٠١



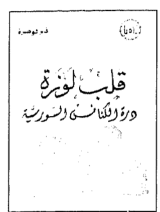
حصن شغر - بكاس
المؤلف: فايز قوصرة
حجم متوسط ٤٠ ص
حلب ١٩٨٨



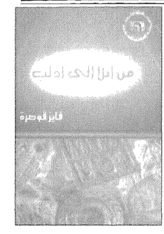
حارم دمشق الصغرى
المؤلف: فايز قوصرة
حجم متوسط ٨٠ ص
حلب ١٩٨٨



كفر تخاريم ماضيها وحاضرها
المؤلف: صلاح الدين كيالي
حجم متوسط ١٤٢ ص
وزارة الثقافة ٢٠٠٢



قلب لوزة درة الكنائس السورية
المؤلف: فايز قوصرة
حجم متوسط ٤٨ ص حلب ١٩٩٥
وباللغة الإنكليزية ٢٠٠١



من ابلا إلى إدلب
المؤلف: فايز قوصرة
حجم متوسط ٤٢٤ ص
حلب ٢٠٠٤

❖ المنطقة الغربية لولاية حلب، إدلب في القرن السابع عشر
المؤلف: عبد الحميد مشلح
حجم متوسط ١٠٢ ص
دمشق ٢٠٠٢

❖ المنطقة الغربية لولاية حلب، إدلب في القرن الثامن عشر
المؤلف: عبد الحميد مشلح
حجم متوسط ١١٨ ص
وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٦

❖ المنطقة الغربية لولاية حلب، إدلب في القرن التاسع عشر
المؤلف: عبد الحميد مشلح
حجم متوسط ١٧٦ ص
دمشق ٢٠٠٥

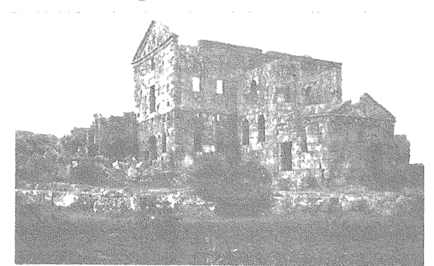
❖ التاريخ الأثري للأوابد العربية والإسلامية في محافظة إدلب
المؤلف: فايز قوصرة
حجم متوسط ١٩٢ ص
وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٦

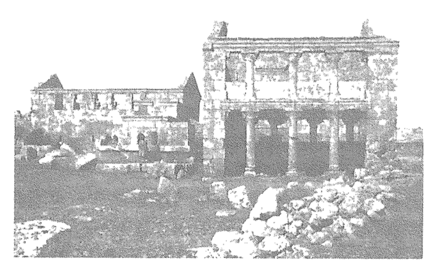
❖ الرحالة في محافظة إدلب
المؤلف: فايز قوصرة
جزءان حجم متوسط
١- ٢٦٠ ص حلب ١٩٨٥
٢- ٢٧٦ ص حلب ١٩٨٨

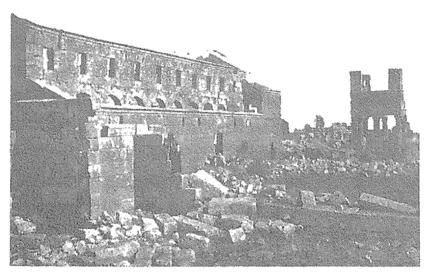
❖ إدلب الحضارة والتاريخ
المؤلف: عبد الحميد مشلح
حجم متوسط ٢٣٨ ص
دمشق ١٩٩٩

صور نادرة لآثار البارة

التقطت أواخر القرن التاسع عشر







مجلس إدارة جديد

لفرع الجمعية في إدلب

عقدت الهيئة الاستثنائية لفرع جمعية العاديات في إدلب اجتماعها الثاني لانتخاب مجلس إدارة جديد، وذلك يوم السبت الأول من شهر أيلول ٢٠٠٧ وقد حضر الاجتماع نائب رئيس الجمعية في حلب الأستاذ فؤاد هلال، الذي ألقى كلمة شكر فيها المجلس المنتهية ولايته على جهوده، وبيّن فيها أهمية المواقع الأثرية والتاريخية في محافظة إدلب وتمنى أن يكون للمجلس الجديد للجمعية دور موازٍ لهذه الأهمية وبين أن الجمعية في حلب قد خصصت عدداً من "مجلة العاديات" لتغطية بعض هذه المواقع سيصدر قريباً.

وبنتيجة الانتخابات فاز بعضوية المجلس: د. هاشم دويدري، علي الزير، سهى وتي، رياض حكيم، فايز قوصرة، د. محمد بعبيش، عبد الحميد مشلح.

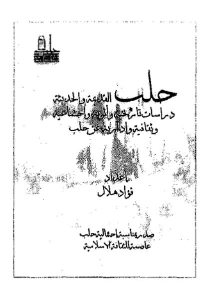
وبنتيجة الاجتماع الأول لمجلس الإدارة الجديد الذي عقد فور انتهاء اجتماع الهيئة العامة تم تشكيل مكتب المجلس على الشكل الآتي:

- د. هاشم دويدري: رئيساً.
- الأستاذ فايز قوصرة: نائباً للرئيس.
- الأستاذ عبد الحميد مشلح: أميناً للسر.
- الأستاذ رياض حكيم: أميناً للصندوق.
- الأستاذة سهى وتي: عضواً إدارياً.

مع تمنياتنا لأعضاء المجلس الجديد بالنجاح والتوفيق في مهامهم الجديدة.

حلب القديمة والحديثة

تأليف: فؤاد هلال



أصدرت الأمانة العامة للاحتفالية بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية كتاب "حلب القديمة والحديثة" للأستاذ فؤاد هلال وقامت بطبعه بـ ٦٢٠ صفحة المطبعة الرقمية بجامعة حلب. تضمن الكتاب ٤٢ دراسة تاريخية وأثرية واجتماعية وثقافية واقتصادية وإدارية عن حلب ومؤسساتها، اعتمد فيها المؤلف على ١٣١ مرجعاً.

وهذا الكتاب كما جاء في المقدمة هو حصيلة جهود بذلها المؤلف على امتداد خمسة عشر عاماً وصاغها بأسلوب علمي اعتمد الأرقام والإحصائيات وتطورها بحيث تجيب على معظم ما يتبادر إلى الذهن حول حلب وسكانها.

الرؤى الإصلاحية للمفكر النهضوي عبد الرحمن الكواكبي

تحرير: د. محمد جمال طحان

منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٧

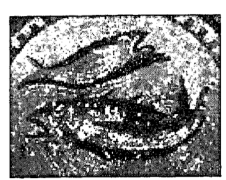


الكتاب الذي هو باكورة كتب ندوات احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية يتناول فكر الكواكبي في قراءات معاصرة عبر ٣٧٠ صفحة من القطع الكبير من تحرير الدكتور محمد جمال طحان الذي قدم للكتاب بمقدمة طويلة تتحدث عن تاريخ الكواكبي.

وبعد كلمات افتتاح الندوة تأتي الأوراق البحثية التي ألقيت ضمن أعمال الندوة الدولية التي أقيمت في إطار فعاليات حلب عاصمة للثقافة الإسلامية في مديرية ثقافة حلب. ويتضمن الكتاب المحاور التالية:

الكواكبي في إطار العصر الكواكبي ومفهوم الاستبداد، الإصلاحات السياسية والاجتماعية والتربوية، الإصلاحات الدينية، مواقفه بين العروبة والإسلام، صحافة الكواكبي وأساليبه في التعبير، راهنية أفكار الكواكبي.

اكتشاف كنيسة أثرية في إدلب



عثرت دائرة آثار معرة النعمان خلال أعمال الكشف والتنقيب في موقع بابولين الأثري جنوب شرق المعرة على مبنى لكنيسة يعود تاريخها للقرن السادس الميلادي". ونقلت صحيفة تشرين عن غازي علولو مدير آثار المعرة إن "الكنيسة هي على نمط الكنائس البازليك التي كانت شائعة في المدن المنسية في شمال سورية". وأضاف إن "الكنيسة تتألف من صحن مركزي ورواقين جانبيين يرتكزان على دعائم حجرية وقد رصفت أرضية الكنيسة بالموزاييك وتختلف موضوعاتها بين المشاهد الحيوانية كالمطاردات والزخارف النباتية والأشكال الهندسية ونقش كتابي واضح يوثق اللوحة وقد زينت أرضية اللوحة بجرار كبيرة تتناظر عن جانبيها ومشاهد لطواويس وضعت بدقة وإتقان وقد كانت تعيش هذه الحيوانات في المنطقة حيث اختار الفنان صوراً لحيوانات من الواقع المحلي وأن اكتشافها يدل على غزارة المواقع الأثرية وانتشارها الكبير في كل بقعة من ربوع المحافظة.

اكتشاف مقبرة عمرها ٩ آلاف سنة في محافظة إدلب



اكتشف فريق تنقيب أثري سوري ياباني مشترك "مقبرة تعود إلى تسعة آلاف عام في موقع عين الكرخ جنوب سهل الروج في محافظة إدلب شمال شرق سوريا". ونقلت صحيفة الثورة عن الباحث جمال حيدر الذي يدير الفريق الأثري السوري إن هذا الاكتشاف "يعد شيئاً خارقاً للمألوف، حيث تعود الهياكل في المقبرة إلى ٩ آلاف عام "مشيرا إلى إن "الاكتشاف الجديد يؤدي لفهم الطقوس الدينية المعقدة التي تدخل في صميم تفكير إنسان تلك الحقبة". وعثر في المقبرة على عشرين هيكلا عظميا يعود معظمها لأشخاص "بالغين"، وكل منهم دفن بوضعية "الجنين" وعثر بجانبها على بعض التقدمات الجنائزية فيها أوان حجرية وقطع فخارية وخرز مصنوع من أصداف بحرية".

البرنامج الثقافي للقسم الثاني من عام ٢٠٠٧

م	التاريخ	المحاضر	عنوان المحاضرة
١	٢٠٠٧/٦/٦	د. بغداد عبد المنعم	مفردات من قاموس المدينة العربية.
٢	٢٠٠٧/٦/١٣	د. وحيد خياطة	المدارس الفكرية عند العرب.
٣	٢٠٠٧/٦/٢٠	د. يايوئي يامازاكي	تجربة تطوير المتاحف الأردنية
٤	٢٠٠٧/٦/٢٧	د. أحمد أديب الشعار	مشروع النسخة الإلكترونية لموسوعة الأسدي.
٥	٢٠٠٧/٩/٥	طاهر البني	قلعة حلب في الفنون التشكيلية
٦	٢٠٠٧/٩/٦	لوتونسورير وآخرون	أهم المكتشفات الأثرية
٧	٢٠٠٧/٩/١٠	حميد حمادة + أسامة خربوطلي	الأختام الأسطوانية في عصر أوروك
٨	٢٠٠٧/٩/١٢	م. تميم قاسمو	نصوص مكتشفة في الجامع الأموي الكبير بحلب.
٩	٢٠٠٧/٩/١٩	وضاح محي الدين	ثورات منسية في التاريخ الإسلامي.
١٠	٢٠٠٧/٩/٢٦	د. شاكر مطلق	الأختام الأسطوانية.
١١	٢٠٠٧/١٠/٣	د. أحمد الشيخ قدور	الغذاء والشراب في تذكرة أولي الألباب للأنطاكي
١٢	٢٠٠٧/١٠/١٧	م. ياسر الجابي	تجربة إعادة توظيف البيوت الدمشقية القديمة.
١٣	٢٠٠٧/١٠/٢٤	أكرم سعيد	قلعة الرحبة "دراسة معمارية".
١٤	٢٠٠٧/١٠/٣١	د. أحمد هبو + فيلم وديع زركلي	البتراء والأنباط
١٥	٢٠٠٧/١١/٧	م. خير الدين الرفاعي	إبداعات فنية في تراث العمارة الإسلامية.
١٦	٢٠٠٧/١١/٨	عبد الحليم حريري	فنون الغناء في حلب.
١٧	٢٠٠٧/١١/١٤	د. نجوى عثمان	جولة في آثار المغرب.
١٨	٢٠٠٧/١١/٢١	فؤاد هلال	التنظيمات الاقتصادية في سورية عبر العصور
١٩	٢٠٠٧/١١/٢٨	عامر رشيد مبيض	قلعة حلب في المصادر التاريخية.
٢٠	٢٠٠٧/١٢/٥	د. فاروق إسماعيل	تل شيخ حمد
٢١	٢٠٠٧/١٢/١٢	مجموعة من الباحثين	نـــدوة: ماذا سيبقى من حلب القرن العشرين؟
	/١٢/١٨	د. أحمد فوزي الهيب	حلب في سيرة الظاهر بيبرس.
٢٢	٢٠٠٧/١٢/٢٦	م. عبد الله حجار	رحلة إلى كركميش.

الرحلات الداخلية لجمعية العاديات للنصف الثاني من عام ٢٠٠٧

م	التاريخ	مكـــــان الــرحلـــــة	الدليل	قائد الرحلة
١	٢٠٠٧/٦/٨	عاروده، قلعة نجم، جرابلس، الساجور، حلب.	دليل محلي	عدنان جسري
٢	٢٠٠٧/٦/١٥	حلب، قلعة الحصن، حلب.	فتح الله راهبة	فتح الله راهبة
٣	٢٠٠٧/٦/٢٢ ٢٠٠٧/٦/٢٣	حمص، دير مار موسى الحبشي، يبرود، معلولا (مبيت) صدنايا، حلب.	فتح الله راهبة	ميري صايغ
٤	٢٠٠٧/٧/١٣	القساطل، سلمى، قلعة صلاح الدين، صلنفة، الغاب (جوريد، الزيارة، قسطون)، اريحا، حلب	عامر مبيض	رياض التونجي
٥	٢٠٠٧/٧/٢٧ ٢٠٠٧/٧/٢٨	حمص، حصن سليمان، صافيتا، عمريت، طرطوس (مبيت) أرواد، الشيخ بدر، وادي العيون، مصياف، حماه، حلب.	عامر مبيض	رياض التونجي
٦	٢٠٠٧/٨/٣	خان شيخون، أفاميا، قلعة المضيق، تل سلحب، مصياف، مشتى الحلو، الكفرون، حمص، حلب	دليل محلي	سمر كيالي
٧	٢٠٠٧/٨/١٧ ٢٠٠٧/٨/١٨	حمص، يبرود، معلولا، صيدنايا، دمشق (مبيت). متحف دمشق، الزبداني، بلودان، وادي الفيجة، التل، حمص، حلب.	بدون دليل	وليد باقي
٨	٢٠٠٧/٨/٣١	دركوش، كفر تخاريم، حارم، سلقين، حلب.	يوسف الضابطي	نزار باقو
٩	٢٠٠٧/١٠/٢٦ ٢٠٠٧/١٠/٢٧	حماة، السلمية، قلعة شميميس، عقيربات، تدمر (مبيت). قصر الحير الغربي، حمص، حلب.	فتح الله راهبة	رولا أزرق

الزيارات داخل مدينة حلب للنصف الثاني من عام ٢٠٠٧

م	موعدها وتاريخها سا ٩/صباح الجمعة	مكان الاجتماع	أماكن الزيارة
١	٢٠٠٧/٦/١	السبع بحرات	جامع الدباغة، الكنيس اليهودي، قصر جنبلاط، جامع المهمندار، خان قورت بك.
٢	٢٠٠٧/٦/١٥	باب النصر	باب النصر، المدرسة الرضائية، مصبنة الزنابيلي، خانقاه الفرافرة، مشروع إحياء حلب القديمة.
٣	٢٠٠٧/٧/٦	أمام القلعة	جامع الأطروش، جامع التنبغا، جامع الطواشي، باب المقام، مدرسة الفردوس، المدرسة الكاملية.
٤	٢٠٠٧/٧/٢٠	أمام القلعة	المدرسة الخسروية، جامع العدلية، جامع السفاحية، ضريح كوثر ملكشاه، مدرسة الشيباني.
٥	٢٠٠٧/٨/١٠	أمام فندق الأمير	بقايا السور، باب أنطاكية، جامع الأتراس، جامع البهرمية، خان وحمام النحاسين.
٦	٢٠٠٧/٨/٢٤	أمام جامع عبدالناصر	بقايا السور، باب قنسرين، جامع الكريمية، الزاوية الهلالية، البيمارستان الأرغوني.
٧	٢٠٠٧/٩/٧	باب الحديد	باب الحديد، جامع بنقوسا، بيت مامو، جامع الحدادين، قبو النجارين، جامع الصوري.
٨	٢٠٠٧/٩/٢١	ساحة الجامعة	جامعة حلب، معهد التراث العلمي.
٩	٢٠٠٧/١٠/٥	أمام المشهد	مشهد الحسين، مشهد الدكة.
١٠	٢٠٠٧/١٠/٩	مدخل سوق الزرب	مبنى المشفى الوطني، مبنى مديرية الخدمات، المدرسة الشاذبختية، الأسواق والخانات والقيسريات الممتدة من سوق الزرب حتى باب أنطاكية.

النسخة الإلكترونية لموسوعة حلب

موسوعة خير الدين الأسدي كنز تراثي لا مادي كبير يندر وجود مثيل له في مدن العالم الأخرى. وقد أجريت عليها عدة دراسات عليا في مواقع مختلفة من العالم. وكما هو معلوم إن المحافظة على التراث اللامادي أمر تتبناه الكثير من المدن في الشرق والغرب، فعلى سبيل المثال تحاول الكثير من المدن البريطانية المحافظة على تراثها اللامادي ولهجاتها (لهجة ال بي بي سي- لهجة الكوكني-لهجة سري-..). وهذا أمر تشجعه الأمم المتحدة ولا يتناقض مع المحافظة على تراث الأمة بشكل عام، بل يكمله.

بهذه المقدمة بدأ د. أحمد أديب الشعار محاضرته في جمعية العاديات تحت عنوان "مشروع النسخة الالكترونية من موسوعة حلب المقارنة".

في البداية عبر عن إعجابه الشديد بالموسوعة وأبدى بعض الملاحظات عليها، ثم بين أنه دعا منذ أكثر من سبع سنوات إلى تحويل الموسوعة إلى شكل رقمي يحل معظم الثغرات. وفي العام الماضي تبنت الفكرة كل من جمعية العاديات وجامعة المأمون الخاصة. ومنذ حوالي عشرة شهور طرح هذا المشروع، على شكل مشروع تخرج، على طلاب جامعة المأمون فتولاه ثلاثة طالبات هن: ياسمين فرام، ريما ملحيس، لمى أبو صالح. وأشرف عليهن.

ثم بين الهدف من هذا المشروع:



١- كتابة برمجية تتيح إمكانية طباعة الحروف الحلبية مشكلة بالتشكيل الحلبي الذي اعتمده كل من الأسدي ومحمد كمال أثناء إعداده الموسوعة للطباعة.

٢- إجراء بعض التجارب على إمكانية إدخال بعض الصفحات عبر الماسح الضوئي وتقدير حجم التنقيحات بعد ذلك.

٣- كتابة برمجيات تشكل نواة لمحرك بحث باللغة العربية المشكلة بالتشكيل الحلبي. والتي لا يمكن تنفيذ كامل عملياتها عبر محرك بحث الـword.

وقد نفذت الطالبات الخطوات الثلاثة أعلاه بالكامل. بعد ذلك قامت الطالبات بعرض إنتاجهن علينا. وتبين من المحاضرة أن ما تبقى فعله لظهور الموسوعة الالكترونية هو: إدخال الموسوعة عبر الماسح الضوئي وإكمال ما لم يستطع الماسح التعرف عليه.

تنقيح ما تم إدخاله (عبر الماسح وعبر لوحة المفاتيح) من قبل مجموعة من المهتمين بالموسوعة. وبالتالي تخزين النص مع محرك البحث على CD لتداوله واستعماله.

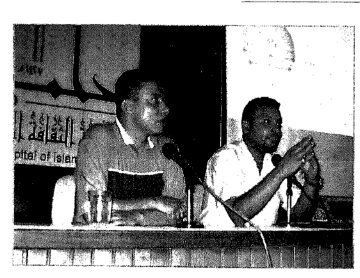
أطبّاءُ أدباءُ من حلب

محاضرة ألقاها الأستاذ محمود محمد أسد في جمعية العاديات، تحدث فيها عن الأطباء الذين برعوا في مجال الأدب بحلب إلى جانب ممارستهم لمهنة الطبّ، وبعضهم الذي طغت عليه صفة الأديب وأسدلت ستائرها على مهنته، فعُرِف بجانبه الإبداعيٍّ على حساب مهنة الطّبٍّ.



فمدينة حلب تحفل بنخبة لا بأس بها من الأدباء الأطباء، وبعضهم تجاوز حدود المحليّة إلى خارج القطر بسمعته ومكانته. وذكر من الأطباء الأدباء المتوفين الدكتور خالص الجابري والأديب سلمان قطاية والدكتور الأديب كيفورك تيميزيان والدكتور طه إسحاق الكيالي والدكتور عبد الرحمن الكيالي والدكتور بدر الدين زيتوني والدكتور إحسان شيط. ومن الأحياء سمير أنطاكي والدكتور الكسندر كشيشيان الدكتورَ محمد بشير الكاتب والدكتور عامر شيخوني والدكتور زهير أمير براق والدكتور محمد فؤاد الذاكري، وآخرون. ومن الطبيبات القاصّة ثريّا السروجي والشاعرة لميس حجة وأخريات..

ليلة رصد فلكي



بدعوة من جمعية العاديات بحلب بالتعاون مع جمعية هواة الفلك السورية أقيمت محاضرة علمية بعنوان "ليلة رصد فلكي - ظواهر كونية مدهشة" شارك فيها المهندس محمد العصيري رئيس جمعية هواة الفلك السورية والأستاذ وضاح سواس عضو الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك وقدم لها د. محمد جمال طحان.

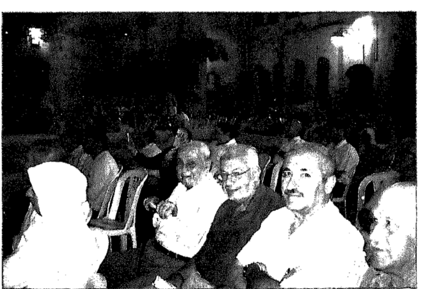
وذلك في مقر الجمعية تم الحديث فيه عن الظواهر الفلكية تلا المحاضرة انطلاق إلى موقع الرصد من أجل التطبيق العملي لما جرى الحديث عنه.

حفل تراثيّ



دعت جمعية العاديات بالتعاون مع الجمعية العربية المتحدة للآداب والفنون إلى الأمسية التراثية الموسيقية الغنائية التي قدمتها: "فرقة الأندلس للموسيقا والغناء" يوم الأربعاء ٢٠٠٧/٨/١٥ في مدرسة سيف الدولة (مشروع إحياء حلب القديمة) - السبع بحرات.

تضمن برنامج الحفل الوصلات الآتية:



سماعي محيّر من مقام البيات - وصلة موشحات من مقام البيات - وصلة قدود من مقام البيات - وصلة للفرقة المولوية - وصلة قدود من مقام الحجاز - وصلة قدود من مقام العجم - أغنية فلكلورية من مقام الحجاز.

شارك في الحفل الفنانون (عامر خير - أحمد بدوي - أحمد زوري). وحضر الحفل عدد من مجلسي إدارة الجمعيتين وعدد كبير من الأعضاء والأصدقاء، وتمتعوا بليلة جميلة من ليالي ألف ليلة وليلة.

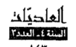


إدلب وجمعية العاديات

د. رياض نعسان آغا *

أسعدني صديقي الأديب الباحث الأستاذ محمد قجه حين أخبرني أن جمعية العاديات ستخصص هذا العدد من مجلتها لمحافظة إدلب، وكنت قد تفاءلت بحراك ثقافي يبعث الحيوية في عاصمة المدن المنسية، حين أخبرني أصدقائي القدامى، قبل عامين ونيف أنهم أسسوا فرعاً لجمعية العاديات التي انتشرت فروعها في المحافظات وباتت لها نشاطات ثقافية هامة في كل أنحاء سورية، يلتف حولها المثقفون ويسهمون في برامجها الاجتماعية والفنية والأدبية والعلمية، والمفارقة أن إدلب التي يشكو شبانها اليوم من ركود الحياة الثقافية فيها، كانت تسمى في ثلاثينيات القرن العشرين (الأزهر الصغير) لوفرة ما كان فيها من علماء أفاضل أجلاء، لعل أشهرهم الشيخ طاهر الملا الكيالي الذي كان أستاذاً لكوكبة كبيرة من فقهاء المدينة ومشايخها، وقد استمر هذا التوهج حتى أواخر الستينيات التي شهدت حوارات دينية وثقافية سرعان ما أدخلها التعصب في نفق ضيق، وجذبتها السياسة إلى نارها الحارقة، لكن ذلك لم يمنع بعض المثقفين من تجريب إبداعي كان في المسرح أكثر حضوراً من الفنون والأنواع الأدبية الأخرى، وقد أتيح لي أن أساهم في هذا النشاط مطلع السبعينيات، حين دعوت مع طليعة من الأصدقاء إلى مهرجان للأدباء الشباب، وكان نتاجه أقل مما كنا نحلم، فقد اصطدم حلمنا بخشية لا مبرر لها من بعض المسئولين الذين يرتابون في المثقفين ويريدون إبعادهم، ويميلون إلى اصطفاء الجهلاء والأغبياء، ولقد جربت في أواخر الستينيات أن أنشئ صحافة مدرسية تكون نواة لصحافة محلية حين أصدرت في مدرسة النهضة مجلة بعنوان (أشبالنا) وللإنصاف أذكر أنني لقيت تشجيعاً طيباً من محافظ إدلب آنذاك الصديق الأستاذ عبد الله الأحمر، لكن التجربة واجهت من العنت عند بعض الكارهين ما جعلني أؤجل معاودتها بضع سنين، حين أصدرت مع صديقي صبحي مبيض نسخة يتيمة من مجلة (جيل النصر) في مدرسة الثورة، وكدت أواجه مشكلة في توزيعها لولا سرعة التحرك قبل إمساكها من عقلية مغلقة ضيقت على الشباب المثقفين وحاصرت رؤيتهم لخوف وهمي من أي نشاط ثقافي قد

* وزير الثقافة.



يكشف جهلا لدى المسئولين عن النشاط الثقافي آنذاك، ولكن هذا التضييق لم يمنعنا من متابعة نشاط مسرحي حقق حضوراً في مهرجانات المسرح في سورية، وقد شهدت إدلب في مطلع السبعينيات تنافساً حاداً بين عدد من الفرق المسرحية المحلية التي كانت تقدم عروضاً ذات شأن تنال بها احترام الأوساط الثقافية في سورية، وكان من أبرز الذين عايشت معهم التجربة المسرحية الناشطة صديقي عبد الله سمسوم الذي سافر إلى موسكو ليدرس المسرح فبقي فيها إلى اليوم، وصديقي مروان فنري الذي ما يزال متمسكاً بحلمه في صنع مسرح في إدلب، وصديقي الراحل رياض سفلو رحمه الله، وكنت قد سبقته إلى الإقامة في دمشق بحثاً عن مسرح أوسع وأرحب، ولم تكد تجربة رياض الفنية والدرامية تصل مبتغاها بعد إبداعه الفذ لمسلسل (العبابيد) حتى سارع الموت باختطافه.

كان جيلنا قد تأثر بحسيب كيالي الذي أبهرنا بقدرته العجيبة على استحضار إدلب في أقاصيصه ورواياته، وعلى تحويل الشخصيات الشعبية التي نعرفها جيداً إلى شخصيات أدبية هامة، ولكن جيلنا تعرف إلى حسيب وهو في الشام، ولم يكن قد بقي في إدلب من الأدباء الموهوبين إلا عدد قليل أذكر منهم الشاعر الموهوب بديع المعلم الذي كنت أجد في شعره نكهة البحتري، ولم تتح للأدباء الشباب الذين بقوا في إدلب فرصة الشهرة أو التواصل القوي مع حركة الثقافة السورية وكان بينهم من لو أتيح له هذا التواصل لكان من أعلام الشعر في سورية مثل ابن عمي الشاعر جهاد نعسان آغا الذي يمتلك موهبة شعرية عذبة متدفقة، وصديقي محمود حميدان الذي اتجه إلى كتابة القصة والتمثيلية التلفزيونية، وقد نبغ من أدباء إدلب في فن القص نجم الدين السمان الذي كتب القصة القصيرة والمسرحية، وخطيب بدلة الذي كتب القصة والدراما التلفزيونية، وهذان الأديبان تأثرا بلغة حسيب كيالي وأسلوبه، و القاص الناقد نجيب كيالي الذي اهتم بأدب الطفل والثلاثة من كتاب أدب السخرية المبدعين، وكذلك القاص الناقد تاج الدين الموسى الذي كتب القصة وقدم دراسات نقدية جادة ونال جوائز أدبية، والناقد محمد قرانيا الذي كتب في عدد الأجناس الأدبية، كما برز في الشعر الشاعر الكلاسي المجيد محمد الشيخ علي الذي امتلك ناصية الشعر المتين، وكتب قصائد ذوات جرس ما يزال يرن في أذني، وكذلك مجيب السوسي الذي يمتلك شاعرية عذبة رقيقة، وقد نشر عدداً من المجموعات الشعرية ونال جوائز أدبية في الوطن العربي، وأذكر الشاعرين الدكتور محمد صالح رحال وعبد القادر أسود والباحث الصديق فايز قوصرة الذي اهتم بالتأريخ لإدلب، كما اهتم بهذا التأريخ عبد الحميد مشلح وأعلم عن بعد أن عدداً من الأدباء في محافظة إدلب يشكلون فرعاً لاتحاد الكتاب العرب ومن أبرز الأدباء الناشطين اليوم صديقي علي الخطيب وعبد العزيز الموسى وخير الدين عبيد وسعاد غانم و وليدة عتنابي (وقد تكون هناك كاتبات وشاعرات لا أعرفهن بسبب بعدي عن البلد لسنين طويلة، وقد اشتهرت من بنات جيلنا المبدعات في إدلب شاعرة معروفة هي حميدة نعنع، ولا أزعم أنني اطلعت على إنتاج كل أدباء محافظة إدلب، ولكنني أرجو أن يتاح لي ذلك، ولابد من الإشارة إلى أنني أقدم أمثلة حين أذكر الأدباء ولا أقدم حصراً بأسمائهم، وقد بدأت أتتبع نشاطات باحثين يجتهدون في ميدان البحث الأدبي والعلمي مثل صديقي الباحث الدكتور فاتح زغل الذي يعمل منذ سنين في البحث في مركز التراث في العين في دولة الإمارات، وصديقي الطبيب الدكتور ياسر زكور، والكاتب الناقد محمد خالد العمر.

إنني سعيد بأن تستعيد جمعية العاديات في إدلب زمن العطاء الفكري، وأن يجد المبدعون من خلالها منبر إبداع وتواصل اجتماعي، وأتوجه بالشكر الجزيل لجمعية العاديات الأم في حلب وقد بدأ نشاطها يعم سورية كلها ■

العاديّات

فصلية تُعنى بشؤون التراث والفكر · تصدرها جمعية العاديّات



في الأعداد القادمة..

- قناة حيلان
- ملف محافظة حماه
- الانثربولوجيا؛ النشأة والمآل
- ذكريات شاهد على الصحافة الحلبية